

رواية

أحلام العودة

كمال رُحيم

الغلاف / هاتيبيال - هيبو
سلسلة من كل بلد كتاب / مصر
الطبعة الأولى / القاهرة ٢٠١٤

ISBN: 978 - 977 - 6299 - 67 - 2



وكالة سفنكس

٧ شارع معزوف، الدور السابع

وسط البلد - القاهرة

ت/ف: ٠٠٢ ٠٢ ٢٥٧٩٢٨٦٥

www.sphinxagency.com

info@sphinxagency.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر، ويحظر نشر أو اقتباس هذا العمل أو أي جزء منه، وبأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية أو التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة أخرى للنشر دون إذن كتابي من الناشر، ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية.

Sphinx Agency © 2014



(١)

أقلني سائق التاكسي من المطار إلى حي الظاهر، ولم يقبل إلا
بضعف الأجر. وعندما أبديت اعتراضي، أخرج لي رأسه من
النافذة متأهباً للشجار:

- البنديرة بتقول بريزتين، ودي تسعيرة الحكومة! التسعيرة
بتاعتنا أربع برايز، وتبقى مروءة منك لو خلتهم خمسة.
- بس!!

- بس إيه الله يكرمك، وياريت تقبّضني بالدولار.
ولما توانيت، أشاح بيده:

- الهمة يا أستاذ! الله لا يسينك ورانا أشغال.
فقلت: حاضر، ووضعت في كفه حفنة فرنكات.
تأملها قائلاً:

- إيه ده يا أستاذ! أنا عايز حقي بالدولار.

فأفهمته أن الفرنك عملة صعبة هو الآخر شأنه شأن الدولار،
فهز رأسه متململاً:

- أدينا هنشوف!

وانطلق بالسيارة، والدخان الخارج من مؤخرتها يلفح وجهي.

* * *

الرصيف تأكلت حوافه وهبط بعضه على شكل فجوات، وباب
العمارة كأنما انحنت قوائمه وعلى وشك السقوط، والعمارة ذاتها
أشبه برجل مريض. بانث بطانة الطلاء في أكثر من موضع، وثمة
شرح في الأعلى ينزل متعرجاً على الجدار، والنوافذ وأبواب
الشرفات تبدو عارية إلا من بقايا طلائها القديم.

وزاد ألمي عندما لم أعثر على شقة الدور الأرضي، شقة
الأستاذ قاسم وزوجته الحاجة سماح..

طالما وقفا بالنافذة يتطلعان، هو عابس وشعره الأبيض نافر
بغير اتساق، وهي باسمه وجهها مريح، ولا تكف عن الكلام دون
أن تلقى منه إلا إيماء رأس أو بضع كلمات.

لم تكن تخلو من أشياء للصغار، حبة كراملة، باكو بسكوت، أو
قطعة حلوى ملفوفة في ورقة سيلوفان.

تشير لي بأن أقترب. يعتريني الحياء وأقف حياها متردداً.
ومرة بعد مرة ألفت وجهها، وكنت أتلأ قبالتها عسى أن تناديني.
تشعر بما أفعل، ولا تكتفي بالإشارة تنادي عليّ باسمي، ولا تنسى
الحلوى، تعطيني منها، وتسالني عن صحة الجدة والجد، ويرمقني

هو دون كلام ثم يسألها من أكون؟

تجيبه؛ فيرنو إليّ وأشعر بأنه على وشك الابتسام، غير أنه لا يكمل، يدعني ناظراً إلى الأمام.

في كل مرة يسأل نفس السؤال، ويلقى هو هو الجواب..

وقبل أن أنصرف تسألني هي بلين أن أشتري لها مشط كبريت أو باكو شاي من البقال، أو إلى العطارة القريبة أبتاع لها حبة مستكة أو ربع رطل كمون. أروح وأجيء كما الريح. يتابعني وأنا أسلمها المطلوب وباقي الحساب، وشيئاً فشيئاً امتد بيننا حبل الوصال، أخذ يربت على رأسي هو الآخر ويفعل مثلما تفعل زوجته. يمد يده إلى جيب الروب الذي يرتديه ويُخرج لي قطعة حلوى، أو يسألني باهتمام عن صحة الجدة والجد.

راحا من الشقة..

راحا وراحت معهما الشقة. صارت خلقاً آخر، شركة ربما، أو مخزناً..

سدوا النافذة التي كانا يطلان منها بالإسمنت وقوالب الطوب، وفتحوا لها باباً يطل على الرصيف، أناس تدخل وتخرج منه بلفافات وكراتين. وقطع الملاعين الشجرة التي كانت بمدخل البيت، جعلوا موضعها مركناً لسيارتهم النصف نقل التي تحمل اسمهم (أولاد الجحش لتجارة البويات ومواد البناء).

ولمحت رجلاً في حجم البقرة، متربعاً على دكة عم إدريس بوابنا القديم.

سحنة والعياذ بالله كسحنة فرس النهر، وجسد هائل في جلباب
تفتق نسيجه عند المنحَرِ والأكتاف. كانت إحدى ساقيه مطوية بين
ثنايا الجلباب والأخرى تتدلى ملفتة بضخامتها، وفردتاً شبشب
إحداهما ملقاة على مسافة منه وتوارت الثانية أسفل الدكة.
خمنت أنه البواب الجديد..

لم يخفَ لنجدتي وأنا أجادل سائق التاكسي، أو حتى انتبه
لقدومي، كان ملهواً في النوم وعمارته تسبقه كلما أطرق برأسه.
عَشِيه النعاس..

عيناه مزمومتان وفمه مفتوح فتحة كنيبة، ويلهث ببطء غير
واع للذبابة التي حطت على أنفه، ولا لأختها التي تحوم حول فوهة
قدح شاي إلى جواره. وعندما درت بعيني نحو محل عصير
القصب المواجه لباب العمارة، لم أجده هو الآخر. استبدلوا به محلا
للكاسيت وشرائط الفيديو، يقف أمامه ثلة من الشباب. والشارع
الذي أعرفه قل عليه: يا رحمن يا رحيم، فكأن شياطينَ لا بشراً قد
استباحوه!

* * *

حملت حقائبي، واحدة باليد وأخرى معلقة بكتفي، ناهيك عن
البلوى التي أجرها باليد الثانية، وما كدت ألج باب العمارة حتى
جاءني صوت البواب:

- على فين يا أستاذ؟! -

ولم يدع لي الفرصة كي أجيب، لحقني بصوته المستفز:

- انت يا فندي ياللي واخد في وشك كده وداخل!

التفت لأجده قد خلع العمامة، ووضعها في حجره. عمامة من العمام الكبار التي يضعونها على رؤوسهم في جوف الصعيد، ولو فردناها لصارت في حجم قلع المركب. ويرمقني دَهشاً وقدماه تتحسسان الأرض بحثاً عن الشبشب، ولما فقلتا عاد بمنكبيه إلى الوراء.

ترحمت على عم إدريس الرجل النوبي الذي طالما ملأ عمارتنا حركة وحياء، يدخل ويخرج ويصعد ويهبط، الابتسامة على شفثيه ومقشته مائلة على أي جدار بالمنور، وعيناها مفتوحتان لأية ذرة غبار يقذف بها الريح. وهذا الجاموس الكبير الذي يطالعني الآن، يرشف من قدح الشاي منتظراً قدومي.

دنوت منه. رائحته يا ستار يا رب! وأنا عاجز عن حماية أنفي، فيداي مشغولتان بكل هذه الأحمال.

- انت البواب الجديد؟

فرد بضجر:

- جديد إيه يا فندي! دا أنا بقالي هنا سبع سنين، انت اللي مين

ورايح على فين؟!!

السؤال بسيط غير أن إجابته تطول، فقلت:

- أنا طالع عند أم حسن.

- أم حسن اللي في التالت؟

فأومأت برأسي.

- دي بقالها يومين عند جماعة قرايبها في العباسية، والشقة
مقفولة.

- معايا المفتاح، ما هو أنا صاحب الشقة.

فمال برأسه نحوي متفرساً:

- صاحب الشقة! هو انت من سكانها الأولنيين؟

- أيوه..

- الجماعة اللي غاييين في بلاد بره؟

- أيوه..

- الجماعة ال..

- أيوه الجماعة ال..

فلمعت عيناه:

- تكونش انت جلال؟!!

وكانت قدماه قد تمكنتا من العثور على الشبشب، فدسهما فيه

وقام يحمل عني الحقائب:

- دا بيقولوا انك حاجج من هنا بقالك عشر سنين وللا أكثر!

لم أعلق، سألته عن عم إدريس (البواب القديم)؟

- تعيش انت.

- ومراته الست شوق؟

- العلم عند الله.

وبدا في التمخّط فأخذت خطوة إلى الوراء محتاطاً، وأقسمت

عليه بالله أن يعيد لي الحقيبة التي أخذها من يدي ويعود إلى دكته

سالماً، فأنا أعرف طريقي.

- مش كت تخلي عمك بشندي يوصلك لحد فوق؟

لم أجب، دسست في يده ورقة بعشرة فرنكات، فتأملها منتشياً
وهو يقول:

- إيه دي! دولارات دي ولا إيه؟!!

فقلت:

- حاجة زي كده.

وتركته مشغولاً بإخفاء الورقة النقدية بين ثنايا عمامته، وأنا
أترحم على عم إدريس الذي لم يكن يعرف سوى الربع جنييه، وأن
عبد الناصر زعيم العروبة.

(٢)

اجتزت الباب ونادية تحلق في خاطري..

نادية بنت الجيران..

كانت قادمة من المدرسة يومها، وأنا أهبط من أعلى مسرعاً.

التقينا هنا، في هذه الردهة التي تفصل الباب عن أول الدّرج.

كنت شيطاناً أيامها. لم أكن أهبط الدّرج أبداً مثلما يفعل الناس،

وإنما ثلاث في ثلاث. لم أملك نفسي في هذا اليوم، دفعتها بكتفي

وأنا في القفزة الأخيرة، وكانت هي تدلف من الباب. سقطت منها

أشياؤها وتساندت عليّ وآهة خافتة تندّ عنها، وهبطنا معاً حتى

الأرض، أنفاسنا تتلاحق ونلملم الذي وقع. أسدلت رموشها بعدها

تداري خجلها وأنا أدنو منها مسلماً، غير أنها تركت كفها طيّعةً في

يدي، ولما تركتني لبثت واقفاً أرمقها وهي تصعد إلى أن واراها

الدّرج.

وعلى باب شقة أبو السعد أفندي هذه، طالما طرقت بأصابعي
كلما حار فهمي في درس من دروس التاريخ. يلقاني بشوشاً
مرحباً، ويتقدمني إلى غرفة الجلوس. عيناه من أعلى النظارة
المتدلية على أنفه ترمقاني، وأنا أضع إصبعي على الشيء الذي
استعصى عليَّ فهمه، ثم يعود بجذعه إلى الورا متبسماً:

- إيه ده يا جلجل! هو في حد يتلخبط في (أحمس) يا ابن
الحلال! إتلخبط في أي واحد إلا الراجل ده، دا فرعون من
الفراعين الكبار! دا هو دا اللي طرد الهكسوس.

وينتبه إلى أنه لم يضيِّقني بشيء، فيتوقف منادياً على الخادمة:

- يا بت يا سعدية، هاتي يا بت قزازتين إسباتس من التلاجة

قوام.

ويعود إليَّ:

- هما اتنين يا ابني اللي ملهمش مثيل، أحمس وعبد الناصر..

وينسى ما جئت من أجله مُطلقاً لسانه في الحديث عن عبد

الناصر، وعندما ألقت نظره يقول:

- آه. آه. يا سبحان الله خدنا الكلام، نرجع بقى لعننا أحمس،

بص يا سيدي..

* * *

ثلاث درجات وأصل لشقة أم حسن القديمة..

الشقة مضاعة وصياح صبية، وأشياء يتقاذفونها تبدو خيالاتها

من وراء شراعة الباب.

لعلك جالس الآن يا حسن على أي مقعد، تحسو من قدح شاي
أو ملهوّ بلفافة تبغ، والدنيا من حولك (سداح مداح) كما هي عادتك.
انفردت بالشقة يا إبليس بعد أن مات البابا وضجرت منك
الماما، فتركتك وصعدت لتقيم في شقتنا.

جلال!!

أمسك بزمام لسانك! فالماما والبابا لا تقال هنا، تقولها عندما
تكون في باريس بين أهل أمك اليهود..

وأنت يا حسن: صحيح أنك أخي في الرضاع ورفيق طفولتي
وصباي، وكم برّت درجات هذا السلم كعبيّ حذاءينا ونحن نصعد
ونهبط عليه معاً، أو عندما كنا ندخل في سباق لنرى مَنْ منا يصل
إلى السطح قبل أخيه، غير أنني لا أود لقياك الآن.. الآن بالذات..
فأنا في لحظة زمن ليست ككل اللحظات، لحظة تخصني! تخصني
وحدّي ولا مكان فيها لدخيل..

* * *

درجة سلم، وعند الثانية تصل إلى شقتك يا جلال..
هنا أول شهيق. أول زفير. أول بكاء. أول بسمّة. أول ضحكة. أول
كل شيء..

نبّته بنت شهور مسجاة في لفّة وقماط، لا حيلة لها أو تملك
شيئاً من أمر نفسها. أستكين في حجر أمي متعلقاً بريحها ونبرة
صوتها، وأروح كلي فيها، كلي كلي في حضنها، ويسري في
نبض قلبها وكأنه لي وليس لها..

وتتناولني الأيدي، جدي زكي الذي يغلب حنوه على دهشته
وأنا ألف كفي حول إصبعه، جدتي إيْفون، خالي شمعون، خالتي
بيلا، وجارتنا أم حسن التي أرخت لي ثديها عوضاً عن أمي التي
جف من صدرها الحليب.

هنا ولدت وكبرت، لعبت وأحببت، ورحلت وأبْتُ..

* * *

تحسست القضبان الحديدية لشراعة الباب..

رطبة.. باردة.. لا دفع يخرج منها أو يأتيها..

ذرات صدأ عند قيعانها، وهاماتها التي على شكل قلوب راحت
واحدة، ومالت الثانية على أخواتها، والباقيات كلحت حوافها. ولا
أدري لماذا تبدو لي الشراعة ذاتها، أقل حجماً مما كنت أحسب.
والخدش الذي أحدثته ذات يوم عند مفصل الباب.. وأمي تقبل
عليّ مسرعة وأنا أعقد رباط الحذاء، تصيح فيّ وتدفعني بيدها كي
ألحق بجرس المدرسة، وجدي الذي خرج لتوّه من الحمام يسألها
الرفق بي..

مشوار طالما كلت منه قدمي، هيكل صغير، شيء أشبه
بمكي ماوس يحمل حقيبة على ظهره، وشارع في شارع، وزقاق
في زقاق، ونسمة البكور لا ترحم. تلدغ عنقي وأذنيّ، ترشقني بغير
هوادة، وفي يدفع بخاراً دافئاً في كفيّ اللتين تستجيران.

فناء وطابور وعلم يرفرف، وحجرة يضعوننا فيها كما
الدجاج، على جدارها سبورة كثوب العفريت. وحضرة الناظر

ببذلة سفاري وحذاء كنيب، ومدرس الألعاب الذي نعمل ألف حساب لعصاه، وصغار.. البعض يتشاءب، ومن يبكي أو يهيم في أمه التي بالبيت، ولعب ومشاجرات بالأيدي والمساطر والكراريس.

والدنيا كأنها حبست أنفاسها..

الدَّرَجُ ساكن، لا أحد يصعد أو يهبط عليه.. والجدران صامتة..
وباب الشقة يرنو إليّ.

هو أول من عرفني..

يسألني أن أدلف منه، أن ألقى الباقيين، البساط، الصوان، الفراش حيث كنت أنام، والطاولة التي كنت أجلس أمامها وفي يدي كراسة أو كتاب..

ينظر وأنا الآخر أنظر..

يسأل وأنا الآخر أسأل..

غير أن كلامنا لا يملك للآخر جواباً..

* * *

(٣)

كل شيء كما تركناه..

فروة الغنم المبسوطة أمام غرفة جدي، ماكينة الخياطة،
والرقعتان اللتان على الطرف الأيسر للكليم..

طالما أقت جدتي إيئون بحذائهما، تتحسس نسيجهما المنسول.
تتنهد ثم تميل عليهما، النظارة تملأ نصف وجهها وبين أصابعها
إبرة طويلة وشلة خيط. منذ أن طعنت في السن لم تفلح ولا مرة في
رتق شيء على نحوه الصحيح، أو حتى لضم الإبرة بالخيط. تمد
يدها بهما إلى جدي فيشبح بوجهه، تقبل أمني وتعافر غير أنها
تفشل، فأتقدم أنا وأفعل لها ما تريد في غمضة عين. أتوقع أن تربت
على كتفي أو تقول لي كلمة امتنان. لا تفعل. تدير ظهرها إليّ
وتتكب بالإبرة على الكليم.

وعلى هذه الكنبة، كان يجلس جدي وفي يده مجلة أو كتاب.

إطار نظارته تبدل لونه من لفتح الشمس وملوحة العرق، خاصة عند أول الذراعين والمواطن التي يركن فيها على الأنف والمقلتين. تبدو لي عيناه من وراء العدسات ناعستين متعبتين، وأحس مرات كثيرة بأنه لم يكن يقرأ، فصفحة المجلة أو الكتاب تظل أمامه بالساعة وعيناه قبالتها مفتوحتان. وعندما يرخي جفنيه حتى آخرهما يتأكد حدسي، ويفلت منه ما كان يقرأ فيه ويسكن في حجره، فتلاحظ جدتي وتحته على ترك الكنبه والتوجه إلى الفراش إلى أن يحين موعد الغداء. بيدي دهشته مما تقول ويصر على أنه لم يكن نائماً، ثم يرفع صفحة المجلة أو الكتاب ثانية أمام عينيه.

كان يقضي يوم الإجازة كله بالبيت، كأغلب الناس في شارعنا. يقرأ أي شيء، أو يقلب محطات التلفاز، ولم تكن لفافات التبغ تفارق أصابعه أبداً. علبة سجائر ماركة (بلمونت) إلى جواره حيثما جلس يعلوها مشط كبريت، دون أن ينتبه ولو مرة واحدة إلى رمادها الهش الذي يزداد، وعند أول حركة ليدته كان يسقط فوق ثيابه على شكل ذرات.

* * *

رحم الله جدي..

فطالما تعلقت به كلما رأيتَه خارجاً، وإذا عرفت أنه متوجه إلى قهوة أبي عوف بالذات يزداد إلحاحي. يضع ذراعه على كتفي ونمضي..

عربات يحمل أغلبها علامة شركة النصر للسيارات،

دراجات هوائية هيكلها من الحديد وقادرة على حمل رجلين
ومعهما حقيبة عند اللزوم، ملصق لفيلم الناصر صلاح الدين،
وأخر لمشروب (كينا روماني الحديدية) الذي يبث الطاقة ويقوّي
العضل.

ولم يكن يخلو الحال من أشياء تذكرنا بالزعيم، صورة معلقة
على حائط أو عمود نور، خطاب على الهواء يأتي من مذياع
قريب، أو اثنان يمضيان بجوارنا، أحدهما يتكلم عن مآثر الزعيم
والآخر يضيف إليها ويزيد.

لا أنشغل بشيء من كل هذا..

تجذبني فقط صغانر الأشياء، قطة تتمدد بحذاء جدار، لعبة تشد
البصر تبرز من واجهة دكان، ولد في مثل سني يمضي بصحبة
أمه فنتبادل النظر، أو صغار يدحرجون لبعضهم البعض كرات
البلي المشللة بالأسود والأخضر وتبدو كالعيون.
ونصل إلى باب المقهى..

أرمق جدي وهو يدقق في الجالسين، بحثاً عن صاحبه الحاج
محمود العطار زوج أم حسن. سرعان ما يلمح أحدهما الآخر
ويتجهان معاً صوب طاولة بزواية المقهى، وأنا في ذيلهما تاركاً
أنفي يشتمّ عباءة الحاج محمود التي يفوح منها عطر له رائحة
البُحُور.

يتأهبان للجلوس على مقعدين متقابلين، وأثناء ذلك يخلع الحاج
محمود عباءته ويطويها على ظهر المقعد الذي أنوي الجلوس عليه.

يبدآن بالقهوة السادة حيث كان جدي يقبض على الفجان كما الناس، أما هو فيمسك به من أذنه مباعداً ما بين أصابعه، وكنت ساعتها أتأمل كم جلبابه البلدي الواسع وخاتماً فضياً بفص أزرق يلف إصبعه.

تأتي لهما النارجيلة فيبدو عليهما الرضا، برهة ويتطاير دخانها في سحابات كثيفة أتابع تموجها في الهواء. يرمقني الجد بين الحين والحين بطرف عينه، وعندما يلحظ أن سحابات الدخان تكاثرت حولي يهشها بكفه أو يشير لي بأن أغير جلستي.

لا أنشغل عنهما، إلا إذا لمحت الرجل العجوز ذا اللحية المدببة والبيريه. طالما شاهدته يجلس وحيداً على منضدة بجوف المقهي يرسم بقلم غليظ، ولا يكف عن الكلام مع نفسه والناس تتحاشاه. لا يأخذني منه إلا صاحب المريلة البيضاء، عندما يغدو أمامي بأقداح القهوة والشاي وباقي الطلبات، خاصة عندما يصيح على الرجل الواقف على النّصبة بنداوات ممطوطة منغمة. كانت تبدو لأذنيّ الصغيرتين أيامها، وكأن لها نكهة هي الأخرى كنكهة المشروبات. قد يسيل لعابي على سائل أحمر في كوب شفيف يرشف منه أحد الجالسين، ينتبه الجد وينادي طالباً لي واحداً مثله، وتأخذني الدهشة عندما يفرد هو والحاج محمود خشبة الطاولة، وتحيلهما سخونة اللعب إلى ديكة تتناقر.

هذا المقهي بالذات كان أثيراً لدى جدي، يعرف ناسه ويرتاح

فيه..

لم ينقطع عنه إلا عندما نشبت حرب سبعة وستين، وتجهم كل الناس من الصدمة واعتراهم الذهول كأنه يوم الدين. غلب عليه طبعه الخذر، فلزم البيت. اكتفى بالجلوس في الشرفة يتابع الذي جرى من مذياع صغير، دون أن يخطو خطوة واحدة نحو المقهى يشارك روادها الملتفين حول مذياعها الكبير.

كان حزنه حزنهم وكربه كربهم، غير أنه شعر بأنه إذا اختلط وقال فقله مجروح. وأياً كان ما يبوح به فبوحه قابل للتأويل، وقد يتعرض له بكلمة أو سوء بعض الجهّال ممن يخلطون الأمور ويُدخلون هذا في ذلك. حتى أمي وجدتي، انقطعتا هما الأخريان عن الخروج، كنت وحدي الذي أدخل وأخرج وأتي بالأخبار.. ولما شعر الحاج محمود، أحاط بجدي وهون عليه. وطالما قال له: لا تأخذنك الوسوس هكذا يا أبا إيزاك! فأنت منا وهم صهاينة كلاب.

وأخذه من يده ونزلا إلى المقهى حيث التقاه الناس كالمعتاد، ظنوا أن غيابه لسفر ربما أو مرض أو لشاغل شغله، لا أكثر ولا أقل! وهو يبادلهم الكلام، ويلوم نفسه التي أغرقته شهراً بطوله في التحسب والأوهام..

* * *

(٤)

لم تبدل أم حسن شيئاً في البيت..

حتى صورة الجد لا تزال معلقة في إطارها، وجدتي على
الجدار المقابل تجلس على مقعد من الجلد ذي مسندين، وإلى جانبها
خالتي ببلا بتياب المدرسة. وأنا ابن السننين ضحكاتي ترن في
جنبات الشقة، وأعدو من غرفة إلى غرفة هرباً من أمي أو جدتي
لفعلة فعلتها، أو أقعى على مؤخرتي بطرف الصالة، ساقاي
ممدودتان وهائم في متعلقاتي، صفارة قديمة، أغطية زجاجات،
بعض الفوارغ، أو ساعة معطلة زهد فيها جدي.

يفطن عقلي قليلاً، فأعرف أنني مسلم يعيش بين يهود..

الأم والجددة والجد والخالة والخال..

غير أنه لم يكن لي غيرهم، وكنت عزيزاً على جدي زكي

بالبذات أكثر من أيّ من أحفاده اليهود في يهود..

هم كل من أملك، فأهل أبي الذين يزرعون الأرض وعندهم
المال والطين، كانوا يقتربون مني بحساب. وإذا ربت أحدهم على
كتفي مرة، كانت عيناه تجوسان في عيني وتسالان: هل أنا بالفعل
منهم أم مخلوق غريب؟!!

هل أنا لحمهم ودمهم فيفسحون لي الطريق، أم بلوى حطت
عليهم من السماء لتأكل من أكلهم وتتسمى باسمهم؟!!

كانوا كلهم هكذا، العم والعمات وكل ما خلفوه من ذرية
وأولاد، فيما عدا الجد عبد الحميد والجدّة أم محمود..

عرفاني بقلبيهما، وليس بشهادة الميلاد والموازين
والحساب. أحس الجد بأني ابن ظهره وعوضاً عن ولده (محمود)
الذي راح في حرب السويس، واشتمت الجدة فيّ ريح ضناها الذي
غاب. نزلت عليهما سهلاً، فاحتواني الجد بعينيه وانشطر لي قلب
أم محمود، لكن وكما يقال في الأمثال: (لا يبقى على المداود إلا
شر البقر). فسرعان ما رحل الجد ولحقته الجدة، وانقطع ما كان
يربط بيني وبين بلدتنا المنصورية، اللهم إلا القروش التي كان
يرسلها العم إبراهيم أول كل شهر إلى أمي إبراء للذمة، وتنفيذاً
لوصية الجد قبل أن يموت.

يهفو قلبي إلى نادبة بعد حين، وأمي عيناها علينا وتدبر كي لا
يتعلق قلبي بها، ونلحق بجدي وجدتي وباقي أهلها الذين سبقونا
ورحلوا إلى باريس. ينجح كيد النساء ونسافر معاً. أبقى هناك
سنوات لأووب ثانية بعد أن قضى من قضى، جدي زكي وجدتي

يفقون وخديجة زوجتي التونسية التي تزوجتها هناك، غير أنها
لقيت ربها عندما كنا في رحلة بمدينة (نيس). أما أمي فلا تزال
على قيد الحياة، وإن كان بعضها قد مات في قلبي، يوم أن تزوجت
يعقوب أبا السعد، اليهودي المصري الذي استوطن معنا باريس.

* * *

أقوم إلى دولا ب جدي..

خا ولا حياة فيه، والهواء الذي يسكنه راكد ثقيل..

الأرطف كلها فراغ في فراغ، اللهم إلا زجاجة دواء تكلس
الشراب الذي تحتويه، ونظارة ذراعها مكسور على مسافة منها
رباط حذاء، وغلاف فارغ من أغلفة أمواس الحلاقة مرسوم عليه
تمساح ظهره مقسوم إلى نصفين.

وتطلعت إلى صورة أبي حصيرة^(١)، التي اجتزأها جدي يوماً
من إحدى الصحف ورشقها بالدبابيس في ضلفة الدولا ب. كانت
مائلة من أحد الأطراف وطغى عليها القَدَم والاصفرار، ووجهه
كابٍ وليس الوجه الذي تركناه. وددت تثبيتها بالدبوس الذي أفلنت
منه وإعادتها إلى حالها الأول، غير أنني لم أفعل، فما الفائدة؟! بعد
أن راح الذي كان يتبرك بها صباح مساء! وتوقف عن الحركة
صرصار بحجم رأس عود الكبريت، يبدو أنه أحس بي فمكث
ساكناً لا يثير الانتباه، أردت أن أقضي عليه، لم أفعل أيضاً! أغلقت
عليه هو الآخر ضلفة الدولا ب..

(١) أحد شيوخ اليهود.

أودعت الدولاب ما أتيت به من آثار جدي، طربوشه القديم
وقميصه الرمادي، أما الدبلة التي أخرجتها من إصبعه يوم أن
مات، لم أجد مكاناً أحسن عليها من إصبعي. ولم تكن ساعته
(الجوفيال) تدور، فلففتها في منديل وواريتها أحد الأدرج عسى أن
أعود إليها يوماً ما.

وبتُّ ليلتي وحيداً إلا من أطياف من كانوا يوماً في هذا المكان،
يخيلونني وأخايلهم، يحدثونني وأحدثهم، ويقبلون ويُدبرون..
وكانني أعيش زمناً، غير الزمن الذي كنت فيه.. زمناً خُلِق لتوّه، أنا
الفاعل فيه والمفعول..

* * *

(٥)

شاع خبر وصولي، وكان أبو السعد أفندي أول المهنيين..
تبدلت هيئته..

شعر رأسه نَحَلَ من الأمام وغلب عليه المشيب، وثمة تجاعيد
جثمت على منطقة العنق وحول العينين، وامتلاً، تكثف الشحم
طبقات طبقات حول خصره وردفيه فضلاً عن المناطق العليا:
صدره ومنكبيه.

أتى امتلاؤه هذا بالوبال على قامته، فقد بدا لي وكأنه أقل قامة
مما عهدته. ورغم كل هذا الذي طرأ، فإن وجهه كان نضراً أما
ضحكته العالية فهي هي، والبذلة السفاري هي نفسها التي طالما
رأيتها عليه، وأكاد أجزم بأن النظارة التي فوق عينيه هي نظارته
القديمة.

أخذني بالأحضان، وصوته يجلجل على عتبة الباب:

- أهلاً أهلاً يا جلجل، وحشتنا يا ابن الإيه! فينك وفين أيامك يا
عكروت!

وعندما عرف بموت جدي سأسأ بفمه أسفأً، وجلسنا على كنبية
الصالة، وجهه تعلوه مسحة حزن ويربت عليّ معزياً، وجدي
صورته قبالتنا على الجدار وعيناه علينا.

- الله يرحمك يا عم زكي، كنت زي النسمة ولسانك الحلو
عمره ما أذى إنسان!

ثم دنا مني متسائلاً:

- ودفنتوه طبعاً هناك؟

فأومأت برأسي بأن: نعم.

- لا إله إلا الله! سبحان من له الدوام.

برهة وقال، وهو يعيد بطرف إصبعه إطار النظارة الذي
ارتخى منه إلى الأسفل:

- وجدتك الست إيْقون، مش بخير والحمد لله؟

- تعيش انت.

- هي رخره! يا ألطاف الله!

وتردد قبل أن يسألني عن أمي، لعله خشي أن تكون هي
الأخرى في زمرة الهالكين، غير أنني طمأنته.

- والباقيين يا جلال؟ خالك شمعون وخالتك..

وتوقف مقطباً حاجبيه ويتذكر، كما لو أن اسم خالتي راح منه،
فلحقته وأنا أكاد أبتسم:

- قصدك خالتي بيلا!

فأجابني مسرعاً:

- أيوه أيوه هي! إزيها وإزي صحتها؟ عاملة إيه؟ مش بخير؟
وأنا عيناى تزدادان تيسماً وأقول في نفسي: "آه يا أبو السعد
أفندي يا عفريت، بقى مش فاكِر اسم خالتي!!"، ثم قلت متخابثاً:

- وآه لو تشوف خالتي بيلا دلوقتي! دي هي الوحيدة اللي
الزمن مقدرش عليها، كل ما تكبر تصغر أكثر وحلاوتها تزيد!

- يا سلام!! بيلا!

وزلف لسانه:

- آه يا بيلا يا بنت القروء! فينك وفين أيامك الحلوة!؟!

وأنا أمد له الحبل مستدرجاً:

- بس دي ظروفها صعبة دلوقتي، مش مرتاحة مع جوزها
وكانت بتسييه بالشهر والشهرين وتيجي تقعد عند جدي.
وسكتُ عامداً، وعنقه يدنو تجاهي ووجهه مستنفر ويطالبني
بالمزيد:

- وبعدين يا جلال!؟ وبعدين!؟!

- تعمل إيه، حظها كده! وساعات لما تنفتح في البكا تقول: أنا
إيه اللي شبكني الشبكة السوداء دي وخالني أتجوزه! أنا لا عمري
حبيته ولا فكرت أرتبط بيه! انتم اللي حلتوه في عيني، وزى ما
يكون غصبتوني عليه.

- بتقول كده! لها حق! لها حق والله! آه يا هارون ياللي منتش

عارف قيمة الجوهرة اللي في إيديك! أه يا ناقص يا للي مناخيرك
قد مناخير الجحش.

وأنا أجاهد للسيطرة على زمام نفسي ولا أنفجر في الضحك،
وعيناى تقولان له: "بقى يا أبو السعد أفندي لما نكشتك في الكلام
طلعت فاكرا اسم هارون، وفي الأول كنت عامل نفسك ناسي اسم
خالتي!".

ويبدو أنه أدرك أنه أفصح عن مشاعره بأكثر مما ينبغي،
فتوقف وعيناه ترمقانني قلقتين من أن أكون قد فهمت شيئاً أو
لاحظت، فادعيت الغباء وبدوت له وكأني حمار بأذنين كبيرتين.

فقد كنت أعرف حكايته مع خالتي بيلا، فهو من سكان العمارة
الأوائل وجاء للسكنى فيها قبل أن أولد، وكان ساعتها عزباً وعينوه
حديثاً مدرساً للتاريخ بمدرسة النقراشي الثانوية. ورأى خالتي التي
كانت تكبر أُمى بعامين. وكان ما كان. بل وكاد أن يحدث معه الذي
حدث لأبي ويصبح زوجاً لخالتي، لولا أنه كان ثرثاراً فضلاً عن
أنه لم يتخذ الاحتياطات اللازمة، فانفضح في الشارع وطير الخبر
إلى أبيه بائع عرقسوس من قريتهم كان يروح ويجيء ببضاعته في
شارعنا. فجاء هو وأمه، وجرّاه من ياقة قميصه إلى بلدته (أوسيم)
بضواحي الجيزة. لم يعد إلا بعدها بشهرين، وفي يده الست نظيرة
زوجته.

كان جدي يتابع ما يحدث، وحاول مراراً التخفيف عن خالتي
بيلا التي كانت أيامها غضة قليلة الخبرة وفي خواتيم الصبا، لا

يزال ثديها ينمو وأردافها تستدير، وأبو السعد أفندي يشاغلها بحذائه الأبيض أبو إبزيم والقرنفلة التي يرشقها بعروة بذلته، ناهيك عن شعر رأسه الذي كان يفرقه من المنتصف بعد أن يكون قد سكب عليه ملعقة زيت ليبدو لامعاً، محاكياً بذلك دون جوانات السينما في الأربعينيات والخمسينيات.

وجدي يعزيها طالباً منها ألا تحزن عليه، فمن لا يصون حبه ويزود عنه لا يستحق أن يُكى عليه، وشجعها على الارتباط بأول رجل طرق بابها، وكان لسوء الحظ هارون أفندي كاتب الحسابات بشركة (شل) وابن أحد معارف جدي اليهود. غير أن المسكينة لم ترتح معه، سواءً عندما كانا في مصر أو بعد أن هاجرا، وكانت جدتي إيفون توازرها وأطلقت عليه اسم (أبو زلومة) لكبر أنفه على نحو غير مألوف، ونكاية فيه لردالته وقلة أدبه.

* * *

وأقبل الكابتن فريد يطوي ذراعه على بطيخة من ذوات الحجم الكبير، ووراءه بشندي البواب يلهث ويحمل له فوق كتفه صندوق (سفن أب)، وضعه بمدخل الشقة ووقف يتلأأ متوقفاً أن أعطيه مما أعطاني الله، فأشحت له بظهر يدي بأن يدعنا وينصرف.

ثوان ودق علينا حسن جرس الباب، ارتمى على صدري (وهات يا قبيلات) ثم أدخل اللفافات التي أتى بها إلى المطبخ، غير أنني لاحظت شيئاً يلوح في عينيه.. كأنها نظرة تساؤل وقلق، فلم أعرف إلا بعدها أن قدومي أوقعه في ورطة، فهل يا ترى ستبقى

أمه (أم حسن) معي في الشقة، أم تدعني وتعود إليه بعد أن أتيت؟
وزدنا واحداً بقدم مجدي ابن المعلم حبيب أحد أصدقاء جدي
القدامى، والذي كان يمتلك محل عصير القصب الذي رأيته عند
وصولي، بعدما تحول إلى محل للفيديو والكاسيت ومستلزمات
سهر الشباب. ترحمت على أبيه فأوماً برأسه شاكراً ورسم علامة
الصليب في الهواء قبالة وجهه، ولما سألته قال: إنهم أخذوا (خُلُو
رجل) في المحل واستبدل هو النشاط، فتح محلاً لبيع الأشياء
المستوردة بشارع الجيش، وكل شهر يخطف رجله إلى بورسعيد
ويأتي ببضاعته، عطور، معلبات، ثياب داخلية للنساء، شيكولاته،
إكسسوارات..

وقبلَ ظاهر كفه مثلما يفعل أولاد البلد، ثم قال:

- وأهي مستورة والحمد لله.

كان زميلي في المدرستين الإعدادية والثانوية، وأعرف أنه
كان يحلمُ بأن يكون شيئاً كبيراً، سفيراً أو أستاذاً بالجامعة.. وكان
منذوراً لذلك، فهو الأول على فصله الدراسي دائماً واجتاز الثانوية
العامّة بمجموع يؤهله لكلية الطب، غير أنه أثر الالتحاق بكلية
الاقتصاد والعلوم السياسية ظناً منه أنها الطريق للسلك
الدبلوماسي، وأنه سوف يصبح سفيراً في يوم من الأيام!

- واتخرجت بجيد جداً كمان! وفين بعدها بأربع سنين عينوني
في وزارة الري! سنة والثانية وقلت مبدعهاش ويللا يللا اتصرفت
في دكان الوالد، والقرشين اللي أخذتهم شوية للمحل الجديد اللي

فتحتة، وشوية لبضاعة بورسعيد.

وقال حسن:

- أنا لسه دكان العطارة بتاع الوالد مفتوح، لكن قلت أجرب حظي أنا راخر ويسافر مع مجدي ساعات، وأجيب لي شوية بضاعة وأبيع.

وأخذا يثرثران عن الحبل والألعيب التي كانا يتفننان فيها للإفلات ببضاعتيهما، فمرة يخفيانها في مكان مسحور بالسيارة التي يستقلانها، ومرة يتسلمانها في (القنطرة غرب) بعد أن تكون قد هربتها لحسابيهما نسوة تخصصن في هذا الأمر، أو يهربانها أحياناً في مركبة حكومية أو سيارة إسعاف!

ويُكمل حسن:

- وعرفنا دية كل واحد من بتوع الجمرك، فلان ده أبو شرز أصفر تدخل عليه متمسكن وتعمل غلبان وإنك بتجري على كوم عيال، وأبو كسكتة ده التخين تكون مربط معاه من قبلها، وأبو بنطلون اسود اللي هناك ده يا ستار يا رب عليه، عامل فيها إن عنده ضمير ويباخذ حق الحكومة بالتعريفة والمليم!

فبدا الامتعاض على وجه أبو السعد أفندي، وأشاح بيده غاضباً:

- آدي يا سيادنا اللي إحنا خدناه من الانفتاح والكلام الفارغ وسياسة حلق حُوش! مش كفاية البلاوي اللي بنسمع عنها كل يوم، لا وياه كمان! ولادنا نسيوا اللي اتعلموه في المدارس واشتغلوا

دلوقتي في النصب والتهريب!

وبصوت ينبئ عن الخيبة:

- لا لا أبداً! مش هما دول الأولاد اللي كانوا بيقدوا قدامي
على الدكك في الفصول، وأقعد أحكي لهم عن تحتمس الثالث وللا
رمسيس وعبد الناصر وسعد زغلول..

* * *

الكابتن فريد هو الآخر من سكان العمارة، ورغم سنه التي
تجاوزت الستين إلا أننا كنا نناديه (بالكابتن) لأنه كان مدرساً
للتربية البدنية بمدرسة إسماعيل القباني الثانوية، ويدير الآن مركزاً
لكمال الأجسام وتقوية العضلات. وقد كان مغرمًا بالسياسة غير أن
باعه فيها كان قليلاً، ويمكن تصنيفه بأنه سياسي من الدرجة
العاشرة، فهو لا يتقن إلا الترويج والتهليل لما يقوله الكبار.
ظل يتابع المتكلمين ويتنقل بينهم بعينيه، حتى أكمل أبو السعد
أفندي عبارته، فقال له:

- يا عمنا سيبك من تحتمس وعبد الناصر، وشيل النضارة
السودة دي اللي على عنيك، وانت تلاقي الدنيا حلوة والخير رايح
جاي.

فقاطعه أبو السعد أفندي متأففاً:

- يا كابتن فريد الله يعمّر بيتك خلينا ساكتين!

ودق جرس الهاتف..

كانت المهاتفة من باريس، من صهري السابق الشيخ منجي

العياري والد زوجتي خديجة المتوفاة، ومعه شريكي اللبناني أكرم أبو الشوارب. هنأني بسلامة الوصول، وسألني أبو الشوارب عن ميعاد عودتي وأنا أقول له:

- بالراحة شوية ياخي أكرم، أنا لسه واصل إمبراح ومش عارف هقعد في مصر لحد إمتي.

وبعد أن أنهيت المكالمة، قال أبو السعد أفندي:

- هُمّا الجماعة هناك مش صابرين على بعادك وللا إيه؟!!

فأفهمته أنني وأكرم أبو الشوارب هذا شركاء في تجارة بملايين الفرنكات، وكل واحد منا له اختصاص، وقد وعدته بالأغيب.
فقال الكابتن فريد:

- يا ابني يا جلال الفلوس هنا بالكوم، وإن كان ربنا مسهالك كده لم حالك ومحتالك وتعالى، دي الدنيا عندنا هنا عال العال واللي عايز يغرف يغرف بكفوفه الاتنين.
فرمقه أبو السعد أفندي مستاءً:

- يا سلام! يغرف بكفوفه الاتنين! ويغرف منين بقى يا كابتن فريد؟! من دمنا ودم الغلابة وللا منين؟!!

ثم هب واقفاً يقول، وهو يخطو خارجاً:
- سلام عليكم، الضُّهر وَجَب.

* * *

(٦)

فين طريقك فين..

ويروحوا له منين..

يا حبيب العين قلبك فين مِدَّاري؟!!

كنت ممدداً على السرير أطالع جريدة الأهرام، ورف مني

قلبي إلى هذا النغم المتسلل من فتحات الشيش..

بيقولوا لي توب عن هوا المحبوب..

قلت هاتوا قلوب من حجر ما يدوب..

أنحي الجريدة جانباً، وصوت (عبد الوهاب) يأتيني مشوشاً مختلطاً

بصخب الشارع والناس. نداء الباعة، أزيز المركبات، وبوق لعين صمم

صاحبه على تخطي الجميع. ورويداً رويداً أستكين. أهيم في الغناء،

ويروح انتباهي عن كل ما عداه. يغمرنني هذا النغم الشاكي الباكي الآتي

من مذياع قريب..

وكان نادية تلوح أمامي بثياب المدرسة..

وجهها مريح بلونه الرباني الخالي من أي طلاء، ونهدها
تداريه عن الأعين بحقيبة الكتب والأقلام.

تلملم أطراف ثوبها وتهبط على الدّرج الخشبي للترام، وأنا
هنا من زمن بمحطة الترام..

أراها بعين الخيال، وهي واقفة على الطوار.

قدّها مسبوك، وفمها حلو وهي تضحك أو وهو مزموم..

عيناها تتطلعان هنا وهناك، وكان قلبها يتحسني ويقول إني
هنا في الانتظار..

لا تطيل.. تعبر الطريق وأنا أرمقها من الورا، ساقاها
تخطوان بوقع متزن، والشعر ناعم فاحم تشاكسه نسمة هواء..

تشعر بي وأنا ألحق بها، ونخطو معاً بلا كلام إلى أن تعرج بها
قدماي إلى شارع نحيل تخف فيه حركة الناس.

ويوم أن كنت أغلق باب شقتنا وهي تهبط على الدّرج،
استوقفتها، فتلفتت خائفة من أن يلحظنا أحد..

تتدافع أنفاسي وأنا أدنو منها، فتسكن وتتلقاني وعيناها
غاربتان..

أحس بطراوة شفيتها بين شفتيّ، وجسدها بين يديّ يطاوعني
وأطاوعه..

كانت القبلة الأولى لنا..

نظر بعدها في أعين بعضنا البعض، مدهوشين من رحيقها

وفعلها..

عطرها أولي فطري وليد الخلقة والمسام، غير أنه كان لحظتها
قاتلا ولا يضاھيه أبداً أي ترياق يعبئه أهل الحيلة في زجاجات.

هي لحظة..

خطفة زمن..

ودفعتني بعيداً عنها وعيناها اللانمتان لا تصدقان ما حدث،
ويأقل لونها ونداوة تطراً على وجنتيها وجبينها. لا أعرف إن كان
هذا مما كنا فيه، أم من الذنب وبغته الحدث..

وأيام طوال كنا فيها معاً، نحلم ونحلم ونبني معماراً في الهواء.
وإذا غلب علينا الصمت مرة، يغدو الصمت ذاته أشهى من الكلام،
وله حلاوة بغير انتهاء..

تزوجت الآن..

تزوجت وأنا في الغربية، خطفها مني ابن خالها..

* * *

أقوم إلى الشرفة..

الشارع ليس الشارع الذي أحبه قلبي ووطنته قدماي..
مقهى أبي عوف القديم التراث، وضعوا يافطة على واجهته
تقول: إن اسمه الآن (كافيتريا مرجان)، بعد أن اشتراها هذا
المرجان من ورثة أبي عوف. وعلى اليسار وأنت تهتم بالدخول
لوحة خشبية عليها ملصق بالألوان، يحوي قبعة سوداء إلى جوارها
كأس فارغة يتمدد فوقها سيجار.

ولم تكف أيديهم..

استبدلوا بالباب الخشبي العتيق ذي الثماني ضلقات والزجاج
السميك المليء بالرسوم، استبدلوا به واحداً من الألوميتال بارداً
كارهاً للحسن والجمال. ومقاعد زمان الخشبية العفية المبطنه بالقش
والخوص وتتحمل الأوزان، ألقوها بعيداً ولم أعد أرى إلا مقاعد
رخوة تؤذي البدن.

و(حسن) الغبي عديم الإحساس لم يكلف نفسه بإصلاح واجهة
محل أبيه، الواجهة مزرية بهت لونها وعششت فيها عوادم
الطريق. وجزارة (الحاج زينهم) فقدت شرفها، بتلك الثلجة
الكبيرة المملوءة بصدور وأوراك الدجاج، ولحم قاتم مجمد مشحون
لنا في كراتين من أستراليا والبرازيل.

الشارع راح لطفه وسماحته، وشجره الذي كان يعرفنا
ونعرفه، ويحتوينا بظلاله كلما اقتربنا وترمقنا من علٍ شواشيء،
ويطالع كل هلة صبح معنا كأنها أول نور له ولنا في الحياة..
وأنتبه إلى زغرودة تملأ الأفق، زغرودة طويلة مرحة
مسنونة، تقول إن صاحبها فرحان..

أنظر إلى باب العمارة دَهْشاً، لأجد أم حسن تخرج من سيارة
الأجرة التي كانت تقلها. ويبدو أنها لمحتني بالشرفة فانهاالت
بالزغاريد، والسائق يطل عليها من نافذة السيارة ويسن أسنانه لينال
الحساب ضعفين!

أهبط الدَّرَج ثلاثاً في ثلاث مثلما كنت أفعل في الصغر ونتبادل

العناق، وتنتفتح أبواب الشقق، وتخرج علينا نسوة يسلمن عليها
وعليّ، منهن قدامى يعرفنني، وجديدات كان بادياً أنهن سمعن بي
وبحكايتي. نصعد في زفة حتى باب الشقة، وكأني أبْتُ الآن وليس
قبل أيام!

أم حسن في نصف حجمها الذي أعرفه..
راح الشحم واللحم والرسغ المتين، وتهدل الثدي المغدق العفي
الذي كنت أغرز فيه أصابعي فيتقطر في فمي. وهزلت الأقدام التي
كانت تدور في الشقة كالديبان، وتروح وتجيء من عند الفرارجي
والجزار والخباز والبقال.

- من السكر يا ابني، قطع نفسي وهد حيلي الله يهد حيله.

- بس يا أمي لازم تاخدي بالك من صحتك.

- أمك! أمك لسه على ضهر الدنيا يا حبيبي، ربنا يخليهاك يا

قادر يا كريم.

وبحسبها أمي رفعت الطرحة السوداء من فوق رأسها، فبدت
أكثر بؤساً وهزالاً مما كانت مغطاة. وكنت ألحظ كف يدها أحياناً
ترتعش، وإذا طالت ضحكتها مرة كانت تعقبها نوبة سعال حتى أني
كنت ألحقها بكوب ماء.

طفقتنا زمناً نتكلم، حكيت لها حكايتي كاملة في الغربة
والشتات، وشكت هي لي ما أصابها بعد وفاة زوجها الحاج محمود
الطار. وأنها صارت كالغريبة بين ابنها حسن وزوجته، فلا قول

لها يُسمع أو عادت لها وظيفة غير رعاية أولادهما الصغار،
فأثرت الصعود إلى شقتنا ريثما أعود. وعندما جاء ذكر جدي،
أخرجت منديلها تمسح دمعة علقت بجفونها:

- كانت عشرة يا ابني، والعشرة متهونش إلا على ولاد الحرام.
وتلتقط أنفاسها:

- كان سره سرنا وشكوتنا شكوته، وياما قعدنا أنا وعمك الحاج
محمود قبل ما يموت نفكر ونقول: يا ترى عاملين إيه في الغربية،
وفينك يا عم زكي وانتي يا ست إيئون! وغبتي كده ليه يا كاميليا
انتي وجلال!

وسألنتني عن أمي، فأخبرتها بأنها تزوجت.
فتمتت:

- اتجوزت!

ثم تداركت مدارية ما طرأ على وجهها:
- حقها يا ابني حقها.

فأجبتها بنبرة تكاد تكون ساخطة:

- حقها! أمال انتي متجوزتيش ليه يا أمي؟

- أتجوز! أتجوز بعد الحاج محمود!

ويبدو أنها أحست بما يدور في نفسي حيال أمي، فأردفت:

- بس الجواز سترة يا ابني للي زي أمك، دي ياما شافت المر
في تربيتك وياما سهرت الليالي وإيديها على خدها، إوعي تشيل
منها يا جلال.

وأخذها الفضول:

- واتجوزت مين؟

بدوت وكأني لم أسمع.

- واحد يهودي؟

فقلت: نعم.

- الله يسهل لها!!

قالتها على نحو شعرت منه بأنها قد تكون أكثر رضاءً، لو

كانت أمي تزوجت رجلاً مسلماً مثلنا..

وتركتني إلى الغرفة التي تببت فيها، ولما طال غيابها طرقت

عليها الباب. كانت تكوم ثيابها في صرر متراسة على السجادة،

وتضع أشياءها الصغيرة في حقيبة يد موضوعة على السرير،

فاندفعت نحوها:

- إيه ده يا أمي؟!!

- ربنا يجازيك خير وكفاية لحد كده.

- هتروحي فين؟!!

- على بيتي.

وبصوت خافت وهي مطرقة:

- عند حسن.

- حسن! حسن إيه بيتك هنا.

وظفقتنا نتجادل وهي تلين وتزداد استجابة، لم تبدِّ مقاومة تذكر،

اكتفت بالكلمات القليلة التي قالتها، وأخذت ترمقني دون اعتراض

أو تعليق وأنا أعيد أشياءها ثانية إلى الدولاب.

كنت أشعر بأنها تنظر إليّ على أيّ ولدها، وأنها تفضل البقاء
معي على الذهاب إلى حسن. والحال ذاته بالنسبة لي، فلم أتمسك
بها لمجرد الشهامة ورد الجميل، وإنما على أنها أم صنعتها
واصطفيتها لنفسي، عوضاً عن كل ما أفقده في أمي التي
أخرجتني من أحشائها.

اختارت هي الغرفة التي كانت مخصصة لي أنا وأمّي من
قبل، أما أنا فنقلت حاجياتي إلى غرفة جدي.

* * *

(٧)

أم حسن على مقعد بالشرفة، وأمامها طاولة عليها صينية
تحتوي كوباً من الماء وقدرح قهوة مقلوباً على حافظه.
تشعر باقترابي..

- تعالى.. تعالى يا حبيبي..

أدنو منها وببيدي قدرح من القهوة أنا الآخر، أحسو الرشفة
المتبقية فيه وأضعه إلى جوار قدرحها، فترنو بعينيهما إليّ وأدعها أنا
لأميل بجذعي إلى سور الشرفة متأملاً الشارع والرائح والغادي.
وكنت بين الحين والحين ألتفت إليها، فأجدها تلقي نظرة عميقة
لقدرحها ومحتواه ووجهها ما بين الحيرة والإحباط، كما لو أنها لم
تعثر بعد على إجابة للسؤال الذي يشغلها!!

وبعد أن فرغت أمسكت بقدرحي، تأملته بنظرة خاطفة ثم أبعده
وقربته من عينيها، مدققة في البقايا العالقة بجدرانها على شكل

خطوط وتعرجات. برهة ونادت عليّ، فأقبلت عليها سائلا عن
أخبار الفنجان:

- آهي حاجة بتسلى فيها، لا مسكت الفنجال قبل كده ولا كتّ
يعرف بيقول إيه إلا بعد ما فِضي عليّ المطرح.

- عايز أطمئن على اللي في بالي؟

- فنجالك كله خير، الفرحة حواليك والسعد قدامك.

- واللي شاغل قلبي؟

فتفهم، غير أنها تحجم عن الخوض فيما أتكلم عنه:

- خلينا من إبليس اللعين وتعالى هنا جنبي، عايزاك في كلمة.

أجلس قبالتها وهي تعيد القدح إلى موضعه، وتمسك بحُقّ
النشوق الراقد في حجرها. ترفع عنه الغطاء فتتسرب رائحة
المسحوق حارة لاذعةً لمسام أنفي، وتصدر عني سعلة خفيفة فتعدل
عما تقصده، وتتأملني بعينيها الكليتين قائلة:

- نفسي أحج يا ابني.

تبدو حميتي ظاهرة في نبرة صوتي:

- تحجي! يا سلام يا أمي، وتكاليف الحجة كلها عليّ من أول

ما تركبي الطائرة لحد ما ترجعي.

فتوقفني بإشارة من يدها:

- مش هو دا القصد، أنا ليّ إيراد من المحل والفلوس زائدة

معايا والحمد لله، أنا بس بشاورك.

أجيبها دَهشاً:

- تشاوريني!

- أمال! مش ابني، وانت دلوقتي راجلي ومسئول عني.

أريح يدي على كفها النائمة على مسند المقعد، ودفقة حارة

تسري في:

- وحسن عارف؟

- حسن!

ولم تكمل.

- أصل فيه شوية ستات في الشارع ناويين على الحج، وأنا

عايزة أروح معاهم، بس مدتش كلمة لحد ما أسألك وأشوف هتقول

إيه؟

ويتوقف الحديث على جلبه وصياح بالشارع، فنسرع إلى سور

الشرفة لنجد مركبة حكومية صندوقها الخلفي مفتوح، ويصعدون

من بابه بفتى شعره مشوَّش وذيل القميص خرج بعضه من فتحة

البنطال، ورباط حذاء معقود والآخر مفكوك، فيبدو أنهم أوقعوا به

بغثة ولم يمهله حتى يكمل ارتداء ثيابه.

كان مستسلماً لا يبدي مقاومة، ومع الرجال الذين يمسكون به

رجل أشيب لا يزال بمنامته، وامرأة هي الأخرى بجلباب البيت،

ومن الخصة والعجلة أقت على شعرها أي شيء يستره. أظنها

خرقة أو فضلة قماش، أو ربما بشكيراً من البشكير التي يدثرون

بها الأطفال.

الرجل الأشيب على وجهه الغضب، ويسأل محتداً ويده

تذودان عن الفتى بغير نظام أو حركة محسوبة، فيدفعه أحد العسكر مرة بعد مرة، ومع ازدياد احتداده ومحاولاته البائسة يعلو الصوت ويكادان يتشابكان. والمرأة تنهه باكية، وتحكم الغطاء على رأسها بأصابع متوترة كلما انفكت عقدته، والناس كثر غير أنهم بلا مفعول، يتقدمون خطوة ويرجعون اثنتين.

وتتعطل حركة السير..

فيُخرج أصحاب العربات رؤوسهم من النوافذ متسائلين، ومنهم من لا يعنيه الأمر ويدق على البوق كي يفسحوا له الطريق. تنطلق المركبة أخيراً، فيعلو نحيب المرأة وتشرئبُ بعنقها نحو مؤخرتها إلى أن واراها الشارع، وتطرق أم حسن بإصبع السبابة على وجنتها قائلة:

- يا عيني!! دا الواد إسلام ابن الحاجة تقية! كل يوم والثاني ييجوا يأخدوه هو وعيل ثاني في أول الشارع اسمه خالد.
وتطل برأسها متتبعة مسار المركبة، ظناً منها أنها ستقف أمام منزل هذا الذي اسمه خالد، وعندما تكذب المركبة ظنونها تعود إلي وتكلمني عن إسلام:

- دا تلميذ في الجامعة وأمه وأبوه ناس غلابة، وهو يا كبدي عليه عيل زي ما انت شايف وبيقولوا إنه من الجماعات الإسلامية، وأديك من هنا ورايح هتسمع عن اللي جاري بينهم وبين الحكومة!
برهة وتسالني:

- وهو إسلام واللي زيه إيه اللي يخليهم يحاربوا الحكومة،

ويعملوا الحاجات دي اللي بيعملوها؟!!

لا تجد لذيّ إجابة..

- بيعملوها كده من الباب للطاق، يعني هُمّا ناس مجانيين؟ مش

معقول!!

* * *

وندخل في حديث آخر..

- وانت ناوي على إيه يا جلال؟ زيارة والسلام وللا قاعد معنا

على طول؟

- مش عارف يا أمي الدنيا هتاخذني لحد فين!

وأصمت برهة ثم أعاود الكلام:

- نفسي أعيش هنا على طول، نفسي أكمل في بلدي لأنني مهما

كبرت بره لا عمري هبقى حاجة هناك ولا حد هيحس بيّ،

وتلاقيني برضه عايز أتمّ شنطي وأرجع تاني! ومن الصبح كمان!

هعمل إيه مش عارف؟! وبعدين مصالحي اللي هناك هعمل فيها

إيه؟!!

فتغلب عليها بساطتها:

- وهي المصالح هناك وبس! أنقل حالك ومالك وسط أهلك

وناسك، عجبك قوي القعدة هناك! عجبك العيشة مع الخواجات!

دول لا مننا ولا طبعهم طبعنا، وكل حي في حاله لا بيود التاني ولا

بيسأل على جاره!

وتغور بعينيها في أعماقي:

- وجدك الله يرحمه أهو راح لرب كريم وأمك آهي رخرة
اتجوزت، هتقعد هناك لمين؟!!

أسهم مفكراً، وتتابع هي مُيسرة عليّ الأمر:

- انت بس تتكل على الله وهتلاقي باب الرزق انفتح لك هنا،
وشوية شوية تعتر في بنت الحلال اللي تونسك وتريح بالك.
تأخذني دون أن تشعر إلى نادية، وعندما أسألها تجيبني
باقتضاب:

- آهي كويسة..

وترمق ما طراً على وجهي، ثم تقول:

- مش حسن كان بيبيلغك أول بأول عن أخبارها في الجوابات؟!
وبعدين إحنا مالنا ومال نادية دلوقتي! خليك في حالك وشوف
مصلحتك فين.

أروح بعيني بعيداً، وهي لاتزال تضيف:

- نادية دلوقتي ست متجوزة، وزى ما انت عارف وراسي
اتجوزت فؤاد ابن خالها، والراجل ظابط في الجيش ومهنيها
ومريحتها، وعندهم دلوقتي بنت زي القمر.
وبصوت يغلب عليه التأثر:

- بس يا حسرة عليه صاحب عيّا!

أعود إليها ببصري وإحساس بالرضا يدهمني كما لو أن عدواً
لي يأتييني خبره، وأظنه بدا على وجهي غير أنها لم تلاحظه.

- عنده الكبد يا عيني وبيرقد في المستشفى العسكري بالشهر

والشهرين، وبتبقى نادية دايحة ورايحة جاية عليه.

وأسألها عما إذا كانت نادية، لا تزال تسكن بالعمارة؟

فتقول: نعم، وتلحظ صمتي بعدها فتتألمني حانية:

- كل واحد بياخذ نصيبه يا حبيبي، واللي خلق نادية خلق سنها

وست سنها، بص يا ابني لقدام ومتديش ودنك للشيطان، دا اللي

يبص في طبق غيره تبقى مش عاجباه قسمة ربنا.

وتنحو بالحديث إلى مسار آخر:

- هو انت مش لك أرض في البلد، هتسيبها كده؟

- أرض بس، وأخت كمان.

- طيب يا نور عيني روح أسأل عليها وودها هي وأهلك اللي

هناك، وبالمرّة شوف أرضك ومصلحتك.

وبتُ ليلتي مشتتاً وأسأل نفسي: لماذا جئت؟ وهل أعود أم

أبقى؟ وإن بقيت ما الذي أفعله؟

صحيح أني رجعت إلى بلدي، لكن أين أجد بلدي؟!

في حب ضاع، أخت لا أعرفها ولا تعرفني، أو عم يتجهمني!

أم في مرتع شربت فيه ولعبت، وذكرى لا تزال تسكنني،

وعجوز أخالها أُمي!

* * *

(٨)

سوق روض الفرج يقول أنا مصر بجلوها ومرها..
وصلت بشق الأنفس لبوابته التي تحاكي بوابات الحصون،
وأول ما ولجتها بقدمي ضعت في الزحام.
الناس على كل لون..

من الأرياف والبنادر والصعيد، حاسري الرؤوس أو بطواق
وعمامم وجلابيب. وأفندية بقمصان وبناطيل، ونسوة بملاءات سود
يجرجرن أولاداً، أو بثياب غالية ووراءهن خدم يحملون لهن
الطلبات. وصبية كبار، ورجال أشداء بالصداري والسرراويل
يدفعون عربة يد، أو يحملون على أكتافهم خيرات الله في أقفاص،
وعربات نقل أو كارو مشدودة ببغال تفرغ حمولتها من البطيخ
والشمام والكوسة والخيار.

وأكتاف تأخذها راضياً، أو بقايا وفوارغ وكراتين تتعثر فيها

قدماك إن لم تكن منتبهاً وفي رأسك ألف عين، ومذيعاق قريب تأتي منه تلاوة للقرآن الكريم، وآخر يشدو منه عبد المطلب ويقول: "يا حاسدين الناس.. مالكم ومال الناس".

ومحلات على كل اتساع، الصغير والكبير وما في حجم علبة الكبريت، ومفروشة كلها برمّل ناعم لين على الفاكهة والخضار، ولها أسماء أغلبها وارد من الصعيد، آل زيدان، وأولاد هريدي، والمرزوقي، والسوهاجي، وفلان وعلان.

والداخل والخارج..

ومن يشتري بالجملة له وللجيران، ومن يُقبل على الطازج من الثمار، أو يرضى بالتالف طالما سعره بخس وفي المتناول. وهلافيت بخرق يمدون أيديهم لأي عابر سبيل، ومنهم من يلتقط أي شيء يراه ويضعه في كيس أو جوال، نصف بطيخة، ثمرة مانجو معطوبة، أو بقايا طعام.

وصنبور ماء يخرج من ماسورة بجدار خلفي لأحد المحلات، أمامه رجلان شمرا جلبابيهما حتى منتصف الفخذين، ولف كل واحد منهما هذا الجزء المشمور، مخرجاً إياه من فتحة الجلباب. أحدهما محني على الصنبور وعلى وجهه رغوة صابون، والثاني ينتظر الدور، كأنما كانا يبيتان بالسوق واستيقظا الآن. وامرأة بحجم الحوت على بعد خطوات، يبدو أنها فرغت للتوّ من غسل رأسها بالماء. طرحة الرأس الملقاة على كتفها طرفها يلامس الأرض مبلا بقطرات ماء مغموسة برمّل وطين، وتعتصر بكفيها

شعرها الكئيب فيسيل منه سرسوب ماء، ووجهها مشدود مما تفعل
وانفرت شفتاها عن سنتين ذهبيتين في الأمام.

وصخب وتهليل، وبيع وشراء بطيبة ولين، وأحياناً بزعيق
وعراك، وأصوات تصلي على الهادي الرسول، وأخرى يدفعها
الضجر إلى سب كل شيء حتى الدين.

دنيا تشد البصر كما لو أنها تستحق الإعجاب، وفوضاها تبدو
وكأنها محكومة بقانون..

* * *

ذرعت السوق جيئة وذهاباً أتلفت على محل الليثي..

الليثي زميلي القديم بالمدرسة، الذي كان يحضر يوماً أو يومين
على أكثر تقدير، وباقي الأسبوع مع أبيه في محله بسوق الخضار.
قضى المسكين سبعة أعوام بالدراسة الثانوية بلا طائل، فلم يستطع
إعراب جملة، أو نطق كلمة إنجليزية على نحوها الصحيح، أو فك
شفرة مسألة من مسائل حساب المثلثات. وإن كنت أشهد له
بالمروءة ووقفات الرجال، أشهد له بكل جميل إلا في أمور العلم
وتحصيل الدروس.

أحببت أن أراه وأحبي الود القديم، وأن تكون زيارتي له زيارة
وتجارة مثلما يقال، فقد أصاب كلام أم حسن هوىً في نفسي.. ومن
يدري؟! فقد يساعدي الليثي في تجارة، أو أتشارك معه في
مشروع.

سألت عنه أحد المارة، فأجاب:

- قصدك محل الليثي ومفتاح؟

فوقفت حائراً.

- أيوه هوه، أصل مفيش غير ليثي واحد في السوق وأخوه

مفتاح، عندك قدام على الشمال.

فيممت وجهي شطر ما أشار..

كان حاسر الرأس وبجلباب، ويجلس على مقعد خشبي أمام
المحل. أشاروا لي عليه، ورفع هو النظارة (البيرسول) من فوق
عينيه عندما أقبلت عليه. لبث برهة يتأملني، ثم هب لملاقاتي وهو
يصيح:

- مين! جلال!

وتعانقنا وبدأت المتلجات فالقهوة والشاي، وأشار إلى رجل
يمر أمامنا حاملاً على كتفه (سطل عناب) إلا أنني رجوته ألا يفعل،
غير أنه لم يعبأ وأصر أيضاً على أن أقبض على مبسم الشيشة التي
أمامه وأخذ نفسين وإلا فلا كلام، فأذعنت له ونفست في نفس حتى
انفجرت في السعال.

تكلمنا في القديم والحديث..

الزمن الممتع اللذيذ عندما كنا صغاراً في المدرسة..

الأستاذ البصراطي، الذي سرعان ما كانت تتحول حصته إلى
مسخرة وملهاة. والأستاذ خربوش مدرس الأحياء المتعطر الأنيق
ذو الشارب الأبيض والحذاء اللميع، الذي كان يبدو لنا أيامها كما لو
أنه وزير للتربية والتعليم، أو في أدنى الحدود هو الكل في الكل،

وباقى المدرسين بعده مجرد عيال..

وتطرقنا إلى ما جد علينا من أحداث..

أنا في سفري الطويل، وهو في محل أبيه الذي أصبح يمتلكه بالكامل إلا جزءاً يسيراً باسم شقيقه مفتاح، الذي شق طريقاً آخر غير هذا الطريق، مكتفياً بريح حصته من المحل واسمه المعلق على اليافاطة التي بأعلاه.

- وآديني مستور والحمد لله، بركب المرسيديس وأشرب المارلبورو، وشقة لأم فتحي في مدينة نصر وشقة لأم حسين في المهندسين.

وبدأت أنا في الحديث عن الأمر الذي قدمت من أجله، فرمقني بجانب عينه وبدا وجهه جاداً وهو يقول:

- بص يا عم جلال، أنا مبفهمش غير في الفاكهة والخضار، فإذا كنت حابب الشغلانة دي يا ألف أهلا ويا ألف مرحب بيك، بس تقولي معاك كام؟

- ودي تفرق؟!!

- إلا تفرق! دي صلب الموضوع.

وأتابع كلامه بزومة تفكير، ثم استمهلني ليميل على غلاف كراسة ملقى بجوار قدمه، التقطه وحركه يميناً ويساراً دافعاً الهواء نحو جمرات النار، وسحب نفساً أشد من سابقه ليخرج الدخان من فمه على شكل دفقات.

- اسمع يا سيدي، السوق هنا زمنه راح خلاص، وسنتين تلاتة

وهينقلوه في حطة اسمها العبور، وأنا ناوي أحجز لي هناك محلين كبار، وانت وشوقك، عايز تدخل معايا، أخليهم ثلاثة وتبقى شريك. بس الحكاية دي يا بطل عايزة مبلغ محترم، إشي مقدم وإشي أقساط دا غير العمولات والتوضيب، وفوق دا كله قرشين يندفعوا مقدمات للفلاحين، وإذا يا حلو محصّلناش محلات، هندفع الطاق اتنين ونشتري من اللي رسي عليهم الدور.

وأنا أهدق فيه متابعاً، وأومئ برأسي بدلا عن الكلام.

- بس خلي بالك أنا مبهتغلش غير في زراعة الفلاحين، زراعة جدودنا بتوع زمان، يعني لا بيدخل دكاني زراعة (الصوّب) ولا الحاجات اللي بتطلع في غير أوانها أو منفوخة من كتر الهرمونات، أنا نظامي كده! وبالعربي الفصيح، هو ده اللي مسبب ليه المشاكل مع أخويا مفتاح.

ودنا مني بوجهه:

- وللا هتقولني أنا لسه راجع من بلاد بره، والتكنولوجيا ومش التكنولوجيا والناس كلها ماشية على الكلام ده، ساعتها هقولك يفتح الله وكل واحد من سكة، أنا صحيح راجل دقة قديمة لكن دوغري ومبهتغلش غير في المظبوط واسأل عليّه كل السوق، هتخط إيدك في إيدي يا أهلا وسهلا بيك، بس تفهم طبعي والشرط قبل الحرت يا ابن الحلال.

لم أعلق، تركته يستطرد:

- دا يا أول يا هادي، وإذا كنت عايزنا نتوسع أكثر وأكثر أنا

جاهز، وممكن نشوف لنا حطة أرض في زمام البحيرة ونزرعها
لحسابنا ونورد المحصول للمحلات، بس كده هتفتح معنا بزيادة
في الفلوس.

فراقت لي هذه الفكرة، وأسرعت قائلاً:

- طيب وندور على أرض ليه! أنا عندي الأرض.

وأخبرته عن الأرض التي لي في حوزة عمي، وأنه يمكن

إدخالها في حساباتنا ومشروعنا.

- والأرض دي فين؟

- في المنصورة.

- وجاهزة على الاستلام؟

فحرت في الإجابة، ثم قلت:

- كل اللي أعرفه إنها أرض ورثتها عن جدي، لكن هي فين

بالظبط؟ معرفش، وجاهزة وللا مش جاهزة على الاستلام؟ برضه

معرفش.

وقلبت كفي، وهو يرمقني وبوادر دهشة تلوح على وجهه.

- وعازب تدخل بيها المشروع؟!!

وما إن أشرت له برأسي بأن: نعم، حتى بادرني قائلاً:

- بقولك إيه يا جلال، من أولها كده تطلع الأرض دي من

كلامنا، دا على اللي انت بتقوله ده تبقى حكايتها طويلة، ومسائلها

هتفضل متعلقة لحد راسك ما تشيب!

دققة دخان أخرى أخرجها من فمه، ثم نحى مبسم الشيشة جانباً

وهو يقول:

- إيه ده يا راجل يا طيب، أقول عليك إيه! خواجه لابس
برنيطة، وللا أقول واحد على نياته ولسه عايش في الطراوة!
ولحقتني قبل أن أقاطعه:

- بقى انت فاكرك هتاخد الأرض دي، وإن خدتها هتاخذها
كده بالساهل!

ثم أشار إلى قروي بانس يقعى بالقرب منا قبالة كومة من
البطيخ، ويحسب شيئاً على أصابع يده.

- انت شايف اللي مكفي على زراعته ده ويصعب عليك!
فذهبت ببصري إلى حيث يشير.

- أهو دا اللي انت فاكركه غلبان وعبيط يضحك على العفريت،
وياخدك البحر ويرجّعك عطشان، وإذا محرّمتمش وافتكرت انك
فهمت اللعبة، هيقولك يلا بينا تاني وبرضه ترجع عطشان!
ومشيحاً بكف يده:

- انسّ انسّ الحكاية دي! إلا الأرض! ولا عمرك هتقدر
تاخذها منهم إلا بالخناق وتقطيع الهدوم.

ويلتفت برأسه زاجراً أحد العمال، ثم يعود إليّ مكملاً:
- أنا أصلاً فلاح وطول عمري وأباً عن جد بتعامل معاهم، هُمّا
غلاية وطيبين مقلناش حاجة، لكن لو شافوا واحد بيمد رجليه في
الأرض اللي بيزرعوها يتقلبوا ديابة!
ويقلب كفه:

- مسمعتش عن حد غلبهم أبدأ في موال الأرض ده!

فأجيبه:

- أغلبهم دا إيه! دا حقي وهاخده زي ما أي واحد بياخد حقه!

- كلامك على العين والراس، بس هما مش هيحسبوها كده!

وكل اللي هيدور في دماغهم انك جاي تمد إيدك في الطبق اللي بياكلوا منه.

- دي أرضي يا ليثي!!

- وهما كمان هيقولوا دي أرضنا.

- حتى ولو كان عمي!؟

- حتى ولو كان أخوك ابن أمك وأبوك، طول ما انت بعيد

وملكش جدور هناك قول على أرضك يا رحمن يا رحيم، وبالكتير هيراضوك بقرشين.

وأنهينا الحديث، وهو يودعني قائلاً:

- آدينا هنشوف هتعمل إيه، وبخصوص شغلنا مع بعض جهز

فلوسك وهتلاقيني قاعد مستنيك.

* * *

(٩)

تركت الليثي مفكراً فيما دار بيننا، خاصة قوله بأنه لا يحفل إلا بالفاكهة والخضراوات التي خلقها لنا الله طاهرة عفيفة تشبعنا وتغذيها وتقينا شر الأمراض، لا أن تمرضنا وتضرنا بعدما عبث بها المخاليق بالحقن والحبوب، فوجد حبة الخيار كبيرة عبيطة كحبة القثاء، وثمره الفراولة ليس لها (شمخة) أو مفعول وبحجم ثمرة الجميز، والبطيخة تحترمها وتهابها لحجمها الكبير، وفي النهاية ماذا؟! لا تفيدك بشيء أو تغنيك عن الجوع، كأنما لا تأكل بل تعبٌ وحسب من زير ماء..

يظن الليثي وظنه خائب أنهم في (بلاد بره) - كما يقول - يُقبلون على هذه الأشياء، فهو لا يعلم أن قسطاً كبيراً من الناس هناك لا يحرصون من الفاكهة والخضراوات إلا على ما هو صحي ومفيد، وأن هذه الأشياء لها عندهم مرتبة عالية وأماكن مميزة

بالمحلات.. فلماذا لا أضع يدي في يده ونصدر هذه الثمار الطيبة إلى سوق الجملة بباريس، ويكون هذا هو المشروع الذي يربطني بأهلي وبلدي، ويضع لساقى مجالاً للتردد بين هنا وهناك..

الأمر الآخر الذي شغلني، هو تلك المخاوف التي بثها في رأسي عن أرضي التي بالبلد، فهل يا ترى سوف ألقى عنتاً بشأنها من أهلي الذين هناك؟

صحيح أن الود ليس موصولاً بيني وبين العم إبراهيم بالذات، لكن ما صلة هذا بذلك؟!!

هذا حق! وتلكم علاقات ورواسب خلفها زواج أبي من أمي اليهودية، وأظنها راحت مع الأيام..

فهل أمنع من أرضي؟!!

وإذا مُنعت، فهل للخلاف القديم، أم لما يقوله الليثي الآن؟!!

* * *

وعندما رجعت إلى البيت، أجريت اتصالاً بخالي شمعون..

كان قد هاتفني من باريس مرتين، مرة يهنئني بسلامة الوصول والثانية بعدها بشهر ليعاود الاطمئنان عليّ، ويسألني أن أدبر له زيارة إلى مصر ليراها ويلقى أصحابه القدامى، غير أنني لم أعر طلبه اهتماماً..

أعاد تكرار الطلب وأنا أعده خيراً، وفاجأني بسؤال كان قد سألني إياه المرة السابقة، هل فرع داود عدس بشارع الأزهر الذي كان مديراً له قبل أن يرحل عن مصر، لا يزال موجوداً؟! ومحل

المالكي للألبان الذي يقع قبالة مسجد سيدنا الحسين، لا يزال مفتوحاً هو الآخر؟! فقد كان يتناول إفطاره أحياناً هناك..

لم أكن قد ذهبت إلى حيث يقول، أو حتى سألت عنهما مثلما طلب مني، غير أنني أكدت له وجودهما!

قلت له عما أجهله ليس رغبة في ألا أخيب ظنه في اهتمامي بما يقول، وإنما كي أجاريه ولا أقتل ما هو حي في قلبه، ويريده باقياً ليعود إليه زائراً ذات يوم ويراه.

دهمني شوقه للروح، فسبقني لساني وقلت له ما يقولونه للولد الصغير عندما يُجن شوقه ويسأل عن أبيه الذي توفاه الله، فنقول له: بأنه لا يزال حياً غير أنه في سفر طويل، وعزمت على الذهاب في اليوم التالي إلى حيث يريد، وبعدها لكل حادث حديث..

وسأل عن أماكن أخرى وأناس، خان الخليلي وشارع الموسكي وعن محل فيه بالذات، وعم إدريس بوابنا القديم، وعم مرزوق الذي كان يدور على البيوت حاملاً فوق رأسه طاولة خشبية عامرة باللبن الزبادي في أوان صغيرة من الفخار، وقهوة أبو عوف هل أجلس عليها مثلما كان يفعل هو أيام زمان؟! وأنا أسايره وأقول له ما يريح، فقد كنت أحبه وأعرف أنه الوحيد من أهل أمي - بعد جدي - الذي كان متعلقاًً بدنياه القديمة، ويشعر أنه بفقدتها ضاع..

وعندما سألته عن أمي، قال: ألم تتصل بك؟

قلت: اتصلت مرة واحدة.

قال: إنها في إسرائيل الآن هي زوجها يعقوب، وسوف
يعودان إلى هنا (باريس) خلال أيام.
وفرغ الاتصال والكأبة تكدرني من أمي هذه التي لا تكف عن
زيارة إسرائيل، وليس مصر التي تربت وكبرت بها ولها فيها
ألوف الذكريات..

* * *

أبو السعد أفندي على مقعده المعتاد بالصلاة..
 سجادة الصلاة لا تزال مفرودة أمامه، ويقرأ من مصحف بين
 يديه بعد أن فرغ من صلاة الظهر، وخلفه على الجدار برواز يضم
 عبارة بخط النسخ، تقول: الصبر مفتاح الفرج.
 وعلى طاولة قريبة جريدة الأهرام مطوية، وجزؤها الظاهر
 يحمل كلاماً معاداً عما جرى من سلاح الجو الأمريكي في حقنا قبل
 يومين، وقطعه لمسار طائرة من طائرات شركة مصر للطيران
 أثناء تحليقها بالسماء^(٢). ومذيع إلى جوار الجريدة، يمد يده إليه

(٢) بل وإجبارها على الهبوط عنوة بمطار (سيكونيلا) العسكري بجزيرة صقلية، وتفتيشها
 والقبض على أربعة من ركبها الفلسطينيين من مجموعة (أبو العباس)، اتهمتهم الحكومة
 الأمريكية باختطاف السفينة الإيطالية (أكيلى لاورو) في السابع من أكتوبر سنة ١٩٨٥،
 وقتل أحد رعاياها ممن كانوا على متنها.

وكانت مصر قد نجحت في إنهاء عملية الاختطاف هذه التي وقعت بمياها الإقليمية،
 وأرسلت الطائرة المشار إليها وعلى متنها هؤلاء الفلسطينيين لمحاكمتهم بمقر منظمة التحرير
 الكائن بتونس وقتئذ. غير أن الرئيس الأمريكي رونالد ريجان لم يقبل بذلك، وكلف طائراته
 الحربية باعتراض طائرتنا في السماء. وقد أصاب هذا الحادث أهل = = مصر بالخيبة

بعد أن طوى المصحف، يديره مستمعاً إلى نشرة الأخبار فالتحليل الإخباري ثم يغلقه، فيعم السكوت جنبات الشقة إلا من جلبة خفيفة تخذئها زوجته الست نظيرة التي تقف بالمطبخ قبالة أواني الطعام. ينادي عليها فتأتي بدينة مكبوسة الأرداف، تفوح منها رائحة اللحم المسلوق.

يلتقيها بوجه باسم قائلاً:

- شدي حيلك يا أم هديل، إوعي تكسفينا النهارده إعملي معروف.

تبادلته الابتسام، واثقة من نفسها ومن طهيها. وبرهة يدق جرس الباب، والخادمة تدلف حاملة فوق رأسها صينية تفوح منها رائحة السمن البلدي وجوز الهند، فيمد عنقه متسانلاً:
- ودا إيه دا كمان؟!!

فتجيبه زوجته وهي تخرج خرقة من جيب المريلة التي ترتديها، وتسند بها ما على رأس الخادمة متجهتين معاً إلى المطبخ:
- دي صنية بسبوسة كتّ بسويها عند أم نبيل، أصل البوتجاز بتاعنا مش فاضي وفرنه صغير زي ما انت عارف.

وتلقت إليه قائلة، قبل أن يوارئها باب المطبخ:

- مش كتّ تغيره يا أبو هديل، وتجب لنا واحد من الكبار

المستوردين؟

والإحباط، وقام الشباب الغاضب بالتجمع والتظاهر في الجامعات متهماً أمريكا بالقرصنة والإرهاب.

وتغيب عنه وصوته يلاحقها:

- وماله بوتجاز المصانع! شغل بلدنا وعلى قد لحافك مد
رجليك.

ويُقبل بشندي البواب حاملاً أرغفة الخبز الطازجة وأكياس
الفاكهة، فيقوم إليه وبعد حوار يدور بينهما ينفعل عليه أبو السعد
أفندي طالباً منه أن يحترم نفسه، وألا يكون لحوماً هكذا في طلب
البقشيش. ومن ضجره أخذ يفتش في أكياس الفاكهة، متهماً إياه بأنه
أكل ثمرة أو ثمرتين على الأقل من كل كيس.

وبعد أن تفرغ الست نظيرة مما في يدها، تأتي بهيئة جديدة.
جلباب بيّتي نظيف، وشبشب من منتجات الصين تعلوه وردة
حمراء، وشعرها يبدو أنها أعملت فيه أسنان المشط قدر ما
تستطيع، غير أنه لم يسمع الكلام أو ارتدع وتموجّ حسبما تريد.

تجلس قبالتة، سائلة عن وقت قدوم الضيوف.

- لسه بدري، معادنا الساعة ثلاثة.

ويرمقها بنظرة من يدبر لأمر ما:

- إيه رأيك في جلال يا أم هديل؟

- طيب وابن حلال وعمرنا ما سمعنا عنه حاجة وحشة، مفيش

بس غير الحكاية إياها.

- قصدك على حكايته مع نادية، لا لا دا كان شغل عيال.

وتلوح خالتي (بيلا) في خاطره يوم أن ترصد لها مرة وحاول

أن يخطف منها قبلة، فأفلتت منه مسرعة على الدّرج.

وتكاد تغرب عيناه، وهو يكمل للست نظيرة:

- ما هو كل واحد مننا في أول زمانه، بتبقى له حكاية زي دي
وبتروح مع الأيام.

برهة ويقول، وهو يميل برأسه متصنعاً الانشغال بإزاحة ذرة
غبار بكمّ منامته:

- مش يناسب هديل؟

- هديل بنتنا!

فيعود إليها بعينه:

- أمّال! أخطب لبنتك.

تأخذها الدهشة:

- دي ما شاء الله معاها بكالوريوس زراعة ومحللتاش غيرها،
وهو يعني..

وتسكت ثم تعاود الكلام:

- أنا فاكرة كويس إنه يدوبك خد الثانوية العامة من هنا وسافر
على طول، وأم حسن اللي هي سره وزى أمه معايا على طول، ولا
عمرها قالت إنه كمل تعليمه ولا حاجة من دي.
فيجيبها متكلماً من أنفه:

- وهو محمد على باشا كانت معاه شهادة يا ست الستات! وللا
عباس العقاد كان كمل تعليمه! وللا ابن رشد والغزالي كان بيوقف
قدامهم مدرس ماسك تباشيرة وهما قاعدين قصاده على دك زي
التلاميذ!

- مين! مين! بتقول إيه يا أخويا؟!!

فيروح برأسه بعيداً، وهو يتمتم:

- لا! مفيش! بقول إن الله يحب المحسنين!!

وتهم بالذهاب إلى غرفتها، غير أنها تعدل وهي بمنتصف الطريق فتقف وتساله:

- هو فتح معاك كلام، وللا بان عليه حاجة؟

- الولد لا فتح ولا قال، أنا بس اللي مستخسره.

فتعود إلى حيث كانت تجلس، وهي تعيد حساباتها مرة ثانية:

- دا أنا سمعت إن عنده في البنوك بره شيء وشويات.

لا يعلق، فتعقد كفيها في حجرها سائلة:

- طيب والحكاية الثانية؟

- قصدك على أمه وأخواله اليهود؟

فتدنو بعنقها منه.

- يا نظيرة يا بنت الناس مش إحنا اللي هنحرّم اللي حلله ربنا،

الولد مسلم زي ما انتي عارفة ودا بيت القصيد، لكن هتقوليلي أمه

وأهل أمه، أهو دا الكلام اللي ملوش لزوم.

ومشيحاً بظهر يده:

- بس هو يطلب..

لا تعلق، وقلها حائر بين (نعم) و(لا)..

* * *

وفي الثالثة بالتمام - وحسب الاتفاق - وجدت الكابتن فريد في

انتظاري على الدّرج حيث اتجهنا إلى شقة أبي السعد أفندي، فالتقنا مرتدياً روباً على المنامة وفوق رأسه طاقية أشبه بالطرطور.
دخلنا فوراً إلى مائدة الطعام، وبعدها إلى غرفة الجلوس حيث لفتت نظري مكتبة بأحد الزوايا، لها أضف زجاجية تلوح من ورائها كتب طففت أقلب فيها.

كتب بأغلفة جلدية وأخرى بأغلفة ورقية مقواة، ومنها ما هو مهترئ أو منزوع الغلاف، وبين ثناياها وفي الكعاب غبار وأشياء كالهاموش ميتة من زمن بعيد. وأكثر الكتب عن التاريخ. التاريخ الفرعوني بالذات، عن خوفو وتحتمس ورمسيس وإخناتون، وكتاب (الدر النفيس في مدينة ممفيس) لأحمد باشا كمال^(٣) وموسوعة مصر القديمة لسليم حسن^(٤)، وكتب عن محمد علي باشا الكبير، والخديو إسماعيل، والزعيم عبد الناصر، وكتاب (خريف الغضب) لمحمد حسنين هيكل، وبالرف العلوي نسخة مجلدة للمصحف الشريف إلى جوارها كتابا طه حسين (مرآة الإسلام) و(الأيام).

وعدت لأجلس مع الكابتن فريد نتكلم ربع دقيقة ونصمت ثلاثاً، إلى أن لحق بنا أبو السعد أفندي وببده مذياع بحجم الكف. وضعه على منضدة عالية السيقان، وتطرق بنا الحديث إلى كل شيء حتى

^(٣) أثري ومؤرخ (١٨٥١م-١٩٢٣م)، وبعد أول مؤرخ مصري يكتب في الحضارة الفرعونية كتابة علمية دقيقة.

^(٤) أثري ومؤرخ (١٨٨٦م-١٩٦١م)، وهو صاحب أحمد باشا كمال وتلميذه، وله اكتشافات أثرية ومؤلفات وتراجم بالغة الأهمية.

وصل إليّ، فحكيت لهما عن زيارتي لسوق روض الفرج وما دار
بينني وبين الليثي، فقال أبو السعد أفندي وعلى وجهه الرضا:
- والله كلام جميل، ومعنى كده إنك مستمر معنا؟
فأومات برأسي..

- ويا سلام يا جلجل لو انت وصاحبك ده مكتفتوش بالتجارة
والمحلات، وبدأتم في مشروع الأرض واستصلحتكم بيحي
عشرين وللا ثلاثين فدان!

فقال الكابتن فريد، وعيناه تطلان أبو السعد أفندي:

- وساعتها تستفيد من خبرة بنتنا المهندسة هديل.

فزاغت عينا أبو السعد أفندي، وبصوت على وشك التلعثم

عقب قائلاً:

- هديل! آه. آه.

ورمقني بعينييه، دون أن يلحظ بالطبع أي أثر يبدو على
وجهي. فلم أكن أعرف ساعتها من هي هديل؟ بل وحسبتها ابنة
الكابتن فريد، وكان لا يروق لي كثيراً، فلم أشرع معه في حديث
عنها أو أثارني أي فضول. وحك أبو السعد أفندي دبلته الذهبية
بظفره، ثم مد يده إلى المذياع وأداره لينساب صوت ليلي مراد
أمس، شفيفاً معطراً بعقب قديم لم ينسه قلبي يوماً أو سلاه.

يا طبيب القلب بقيت حبيب القلب..

يا فاييتني ونستني ما داوتني من عذاب القلب..

وينساب مع الغناء، صوت نادية وهي تهاتفني يوم أن حصلت

على مجموع عالٍ بالثانوية العامة، وكنت أعد نفسي ساعتها
للالتحاق بكلية الطب.

كانت تقول: "النهارده الجمعة إالحق افتح الراديو، ليلي مراد
هتغني حالا في برنامج ما يطلبه المستمعون".
أقول لها: "هتغني إيه؟".

فتصمت خجلاً، وعندما يزداد إلحاحي تجيب بمثل ما تقوله
ليلي مراد الآن:

عنيه فيها كلام آه لو قرينه..

وف قلبي شوق وغرام ياما داريته..

ويعلو الصوت حولي..

فتذهب أذناي إلى الكابتن فريد، وهو يجادل أبا السعد أفندي في
جدوى المشروع الذي أنويه، وأنني قد أتورط وتحيق بي الخسارة.
وأعود ثانية إلى نفسي معزياً حالي، فلا أنا صرت طبيباً كما تقول
ليلي مراد أو حتى حبيباً للقلب. وألحظ عيني الكابتن فريد وهما
ترنوان إليّ متوقعاً أن أشارك وأجيبه عما يقول، فتبدو على وجهي
الحيرة ويتبسم هو قائلاً:

- جلال! جلال! رحمت فين يا ابني! تكونش سرحان في الست

والدتك، وللا وحشتك باريس ودنيتك الحلوة اللي هناك؟

أومئ برأسي له مجارياً، ويستطرد هو:

- مش كنت توفر الفلوس وتعب القلب ده، وتخطف رجلك

أحسن لحد الصين تشتري لك شوية بضاعة وتيجي توزع وتبيع،

والمكسب يا ابني في الشغل اللي زي ده كويس ومضمون!

فيضرب أبو السعد أفندي بكفه على ركبته متبرماً:

- يا سبحان الله عليك يا كابتن فريد، صين إيه وبتاع إيه!

ويرفع صوت الراديو مشوشاً على كلامه، حيث كانت ليلي مراد في الختام، أعقبها حوار يجري مع رجل من رجال السياسة الكبار. يسألونه عن رأيه فيما فعله العم سام بطائرة مصر للطيران، وهو يجيب بكلام رزين عما خسرته أمريكا بطيشها وما كسبته مصر بحكمتها وسماحتها، وكأننا نستمع لحكم في مباراة أو لسياسي من تنزانيا أو الفيليبين، لا تجري في عروقه من دماننا أي دماء!

وتزداد ثائرة أبو السعد أفندي:

- يعني ولاد العم سام وللا ولاد العم زفت دول، يقلوا أدبهم ويتجرءوا علينا بالشكل ده، وحضرته يقول إننا بسكاتنا بقينا قدام العالم كبار وعاقلين!

فيرد الكابتن فريد:

- وكنا هنعمل إيه؟! دي أمريكا يا أستاذ!

فيلتفت إليّ أبو السعد أفندي ضارباً كفاً بكف:

- بيقول هنعمل إيه! يادي الخيبة!

واستأذنت أنا صاعداً إلى الشقة، وتركتها ملتحمين في هذا الجدل.

* * *

(١١)

- وبعد ما تخلص من عند البقال الله يسترك تعدي على الفرن،
وتشتري لي كيلو وللا اتنين قرص على قراقيش على كعب الغزال.
- حاضر.

- بس توصيه يا جلال، الحاجة تكون طازة وابدع عن الناشف
أنا مليش سنان.
- حاضر.

أم حسن في قمة الانشغال، فبعد باكر الصبح سوف تقلع بها
الطائرة إلى الحجاز.

تتربع على الأرض بغرفة النوم، حبات عرق على جبينها
ويداها مشمرتان وإلى جوارها حقيبة من حقائب زمان. ناهيك عن
الأشياء المبعثرة أمامها، جلابيب وطرح بيضاء، سجادة صلاة،
فردتي شيشب وغيارات، صرر مربوطة بفتلة دوبارة أو زيق

قماش، ومصحف تمد يدها وتأخذه من فوق سطح الكومدينو،
وتدسه بجيب الحقيبة الداخلي هو ومسبحة بشراشيب خضراء.

وترفع رأسها إليّ:

- مش كتّ قايلالك على دستة علب فول خليم دستتين،
والتونة والسردين بدال خمس علب خليم عشرة.
أسمع وأسكت.

- واللمون كيلو، والبلوبيف هما هما الست علب زي ما قلت
لك.

- فيه حاجة تانية؟!!

- فيه!! دا لسه فيه وفيه، إنزل انت بس اشترى دول وكل ما
افتكر حاجة أديك هتروح تجيبها، ولسه فين لما عمك زغول البقال
يقفل!

لقت نظري بطن الحقيبة المهول، ناهيك عن الصدغين الحديد
والرزتين والأقفال والسير والأبازيم، فأشرت إليها قائلاً:

- دي زي الرزية وهتهلك يا أمي، وعلى حد علمي لا
هيرضوا يقبلوها على الطيارة أو يوقفوها على ميزان!
خليك انت بس في الطلبات، وسبيك من الشنطة.

- يا أمي دي عاملة زي الصحاحير اللي كانوا بيحملوها على
ركايب ويزفوها مع الحجاج، أيام ما كان الحج بالبر وبيركبوا
جمال!

- بقولك إيه يا جلال إلا الشنطة دي! دي مبروكة وراحت

الحجاز بدال المرة عشرة.

وخلت ما في يدها، وأخذت تعد على أصابعها:

- عمك الحاج محمود الله يرحمه حج بيها مرة سنة ستة وخمسين وحج بيها بعدها بعشر سنين، وأبو نبيل عمل بيها عُمَرتين، دا غير كام واحد في الشارع استنفوها وهما مسافرين.
لم أعلق، وقبل أن أدعها قالت:

- آه والنبي افكرت! اتصرف لي يا ابني في حزام جلد يكون عريض وله جيوب وكَبَاسين أحط فيه الفلوس وأتحزم بيه.
- تتحزمي بيه!!

- أيوه أتحزم بيه، أمَّال هحرص على فلوسي إزاي!
فتركته وهبطت إلى الشارع وقد اتخذت قراراً بأن أعود بطلباتها وأطير من هنا، فهي لن ترحمني وسوف أهبط وأصعد هكذا طوال الليل.

* * *

الشارع يعرفني الآن..

بشندي البواب، والرجل الأكتع الذي يقف بقذرة الفول، وصبية فرن أبو عجوة، والأفندية الذين يقدمون (المشاريب) بكافيتريا مرجان، ناهيك عن عم زغلول البقال الذي يعرفني منذ الصَّغر، ويتلقاني الآن ببشاشة يسمع مني ويرص الطلبات:

- وأدي علب التونة والسردين، عايز إيه تاني يا سي جلال؟

- إيه تاني.. إيه تاني..

ولبثت مفكراً في باقي الطالبات التي حملتني إياها أم حسن،
وراح هو ببصره نحو رجل دخل المحل ووقف بحذائي.
تيسم له قائلاً:

- أهلاً يا سي فواد، ثانية واحدة الله يخليك.

نظرت إلى حيث ينظر فأشار لي الرجل برأسه محيياً، وبدت
الدهشة على عم زغلول ووجه إلينا الحديث قائلاً:

- وهو انتو متعرفوش بعض وللا إيه؟! دا انتو جيران!
وأشار إليّ:

- دا جلال أفندي ابن الشارع، كان غايب في بلاد بره ورجع
أديله تلت أربع شهور.
ثم راح نحوه بعينه:

- ودا الأستاذ فواد جوز الست نادية اللي ساكنة فوقك بدورين.
فرمقته وقلبي حذر ويدق، وتلقفني هو بعينه ثم مد كل منا يده
إلى الآخر. شجعتني حفاوته وحرارة سلامه، فأخذت أهز يده مثلما
يفعل، غير أن عيني خرجتا عن السيطرة وطففتا تلاحقانه.

لم أفلح في كبح جماحهما وهما تنتقلان من حذائه الذي يبدو
كالأحذية الميري، إلى بنطاله الذي ينزل منفوخاً بلا كسرة تضبط
إيقاعه، حتى الحزام الذي يلف خصره ولون القميص لم يفلتا من
عيني، وفي المجل بدا لي ضامراً ووجهه بلون التراب وانتفاخات
وهالات سوداء تحيط بعينه.

واقترحت علينا المكان مسرعة طفلة احتضنت ركبته، ورفعت

رأسها إليه تذكره بالشيكولاته وباكو اللبان، فخمنت أنها ابنته. ربت عليها بخنوّ وسألها عن (ماما)، فقالت: إنها بفرن أبو عجوة وحالا قادمة.

وقال هو لي مبتسما:

- دي بنتي (ريم)، وياريت تشرفنا يوم بعد الضهر نشرب فنجان شاي سوا.

فراق لي ما يقول، وخف توجسي من أنه ربما يعلم شيئاً مما كان بيني وبين نادية، وكانت ابنته ريم تتلمل من انشغاله عنها فحملها إلى صدره وأردف قائلاً:

- وحضرتك كنت مسافر فين؟

- فرنسا.

- وغبت كثير؟

- حوالي عشر سنين أو أكثر شوية.

فرفع حاجبيه مستطرداً.

- ياه! دا عمر بحاله.

العم زغلول كان يتابعنا بأذنيه، رمقتي بجانب عينه وأنا أقول

له بصوت خافت:

- ظروف..

- ظروف! على العموم نورت وأهلا وسهلا بيبك.

فأيقنت أنه لم يسمع بي من قبل، وقال عم زغلول:

- ألفّ الحاجة يا سي جلال؟

فأومأت له بالإيجاب، وقال لي الأستاذ فؤاد:

- خلاص أنا مستنيك، بس إوعى تنسى تجيب لريم الشيكولاته

اللي بتحبها.

فأشارت إلى أحد الأرفف، وهي تقول:

- شيكولاته من دي.

وقال هو:

- وإن جابها هتحببه قد إيه؟

ففتحت ذراعها على اتساعهما، وضحكنا..

* * *

وأقبلت نادية..

فوجدت بي فوقفت لحظة على باب المحل، ثم تقدمت خطوة

وعيناها عليّ، أما أنا فطاشت عيناى. هبطنا إلى حيث موضع

قدمي، وبلفتة خاطفة ذهبنا إلى زوجها الأستاذ فؤاد، ثم إلى رف

بجدار المحل يحمل علباً محفوظة وأكياساً للشاي إلى جوارها

حزمة من أمشاط الكبريت. ولم يفطن عم زغول إلينا، انشغل عنا

بالتشويح في وجه قطة تطل برأسها من الباب.

ترهلت قليلا وغطت شعرها، ولم ألحظ شيئاً آخر..

عيناى لم تتجاسرا، لا أكلتا وجهها أكلا مثلما فعلتا من قبل مع

الأستاذ فؤاد، ولا سقطتا على نهديها وعنقها أو حامت على مواضع

كنت يوماً أحوزها..

وقطع علينا اللحظة زوجها قائلاً:

- دا الأستاذ جلال جاركم القديم، أكيد فاكراه.

فمددت يدي مُسَلِّماً، ثم استأذنت خارجاً.

غفلت بالطبع عن فرن أبو عجوة وعن كيلو الليمون، بل وحتى

عن الأشياء التي ابتعتها من عم زغلول، وصعدت مسرعاً إلى أم

حسن أقص عليها ما حدث وهي تقاطعني متململة:

- يا دي الخيبة! أمال فين الطلبات!؟

* * *

(١٢)

منذ هذا اليوم راق لي البقاء بمصر، كما لم أفكر في ترك
شقتي القديمة والنزوح إلى مصر الجديدة أو المهندسين..
فقد كانت عزيزة عليّ..
صحيح هي جماد في جماد، غير أنها جماد له مساكن في
القلب..
ولو أنصفت لقلت إنها مني ولو كانت جماداً، وأنا منها ولو
كنت على هيئة إنسان..
فعلى كل بلاطة فيها حبوت بيديّ وقدميّ، ومن شرفتها هذه
رأيت الدنيا أول مرة..
فوق هذا الفراش دثروني بأول غطاء، وأمام هذا الحوض
طالما شببت بهيكلي الصغير لتصل يداي إلى الصنبور..
هذه الجدران الحميمة..

والزوايا التي راح عنها الطلاء..
هذه الصور والخدوش والتعاليق..
والآثاث القديم..
هذا الحيز الضئيل..
الغرفتان والصالة والملحقات..
هو بيتي..
فيه جدي وهزلي..
ودقات على الباب من أصحاب..
وموطن سترني، بعدما عز على أهل أبي حتى السؤال..

* * *

المشكلة الآن، هي كيف أدبر المبلغ الذي سوف أبدأ به مشروع مع الليثي؟
بدأت بالأمر السهل، اتصلت بشريكي اللبناني (أبو الشوارب) في باريس وأبلغته بما عزمت عليه، فأجابني متبرماً:
- شوها الحكي الفاضي يا جلال!!
ولما ضجرت من إقناعه وصممت على أن يرسل لي من رصيد الشركة مبلغاً من المال، بدا الغضب في نبرته:
- مصاري مصاري! من وين راح جبلك مصاري يا سيد جلال؟! ما عندي سيولة بالحساب وما بحتكم على فرنكات، كل مصاريننا بضاعة بالسوق.

واحتدم الجدل بيننا إلى أن قال:

- إذا كل مرة راح تجي وعلى لسانك ما في إلا مصاري
مصاري، خلينا نصفي الشركة ياللي بيناتنا وكل واحد ياخذ
مصارياته ويعمل فيا (فيها) ياللي بده.
ودخلنا في شوط آخر من تبادل العتاب وتذكر الأيام الخوالي،
وهو يختتم حديثه بنبرة مؤثرة:

- ياخي جلال، انت شب طيوب ومعزتك بقلبي كبيرة، حظ
عقلك براسك وما تخرب لناها الشركة وها التجارة ياللي عدنا
سنين طويلة نبنيتها، وإوعى تسمع كلام الناس عندك بمصر من
فليتان وعليتان (من فلان وعلان)، ولا أزرع من هون وأزرع من
هونيك.

وكان آخر ما أكد عليه أن أمسح مسألة المصاري هذه من
رأسي بممحاة، وأن أعود في الحال، فيكفي أنه فعل كذا وكذا في
غيابي، وأنه تصرف وحده في مخزون بضاعة الخريف. وها نحن
على أعتاب رأس السنة، ويلزم أن نجلس معاً ونقطع الأمر فيما
سوف نعزم على شرائه، من (مرتجع) المحلات من بضاعة
الشتاء. وأنا أعهده بالنظر فيما قال، وعقلي يدبر ويبحث عن يمد
لي يده بالمال.

لم يكن أمامي من حل، إلا سؤال أهل أمني..

أول من لاح لي منهم خالي شمعون، غير أنني نحيته على
الفور فهو (كما خلقتني يا ربي) و(على الحميد المجيد). وهارون
زوج خالتي بيلا رجل نذل بشهادة الجميع، وكذلك خالي إيزاك

خارج الحساب فهو ثقل الظل ويمقتني وأمقته.

لم يبق أمامي إلا أمي..

أمسكت سماعة الهاتف، وما إن بدأت في الحديث حتى
قاطعتني ساخرة:

- شمام إيه وخضار إيه يا جلال! عايز تسرح بعربية شمام
على النواصي، وللا تبيع لك زرين كوسة للي رايح واللي جاي!
- يا ماما!!

- يعني بعد العمر اللي انت عشته في باريس! ومعارفك اللي
هناك، وتجارتك في حاجات جافينشي وشانيل وكريستان ديور،
عايز تفتح دكان وتبقى فكهاني وللا بتاع خضار! إفطن لعقلك يا
حبيبي ويللا يللا لِمَ شنطك وارجع أنا مستنياك.

ولما أفهمتها أن جوهر الموضوع ليس في الشمام والبطيخ،
وإنما أرغب في إنشاء مشروع يربطني ببلدي. مشروع يكون لي
موطاً قدم أذهب منه وأعود، أجابنتي حانقة:

- بلدك! إذا كانت الحكاية حكاية بلدك زي انت ما بتقول، إحنا
كمان ناويين نستثمر في مصر، بس إحنا يا شملول لا بنزرع
أرض، ولا بنبني مصنع، ولا عايزين نفتح شادر فاكهة وخضار.

فأعض على شفتي، وهي لا تزال تكمل برتمها السريع:

- خلاص الموافقات على كازينو القمار اللي إحنا ناويين عليه
في شرم الشيخ قربت تطلع، بيع أرضك اللي في البلد وصفي
تجارتك هنا في باريس وادخل معانا شريك.

فقلت بضجر:

- يا ماما أنا محطش فلوسي في حاجة حرام، ومش هعمل إلا اللي نويت عليه.

ودخلنا في جدل ممض، إلى أن قالت:

- خلاص خلاص انت حر، وإحنا كمان لا تلزمنا فلوسك من أصله ولا محتاجين لك معانا في مشاريع، أنا بس صعبان عليَّه العبط اللي انت فيه، وكنت بفتح لك باب رزق محترم وفي بلدك زي انت ما بتقول، بدال ما تحط مشنة على راسك وتنادي على السبانخ والقرنبيط!

وتجادلني وأجادلها ثانية لتحتني على أن أعود، وأن مصر لم تعد لنا وطناً حتى نقوي ما لنا فيه من رابطة، أو ندقق فيه عن جذور. وأنا أترفق بها بقدر ما أستطيع ثم يشتد غضبي وأقول لها: لا تزوفيني معكِ ولا تتحدثي هكذا بصيغة المثني، وكلام آخر يخاليني ومنه من سعد حتى سقف حلقي. كلام له وزن وأذى الأحجار، غير أنني غالبت نفسي ومعقته ثانية إلى جوفي، فهي قبل كل شيء أُمِّي..

* * *

لم تعد (أم جلال)، بنت (٧) شارع كذا بحي الظاهر..

الشارع الذي طالما ذرعه جيئة وذهاباً، والشقة التي كانت تخرج منها كل صباح إلى المدرسة وتعود، وجارات عرفتهن، من كانت كالأخت الشقيقة أو كالعمة والخالة. أحببتها وأحبتهن، وطالما

ضربن المثل بأدبها وانكسارها، وأكبرن تعففها عن الزواج بعد أبي
كي لا أضيع وأنفرك بين البيوت.

كبر عودها واكتملت استداراتها، على الخبز البلدي
وجبن وزيتون عم زغلول البقال، وأقراص الفلافل وحبّات الفول.
وطالما رمقتها تهيم بعينها مع أغنيات عبد الحليم وليلى مراد وأم
كلثوم، وهيا بنا يا جلال إلى السينما نشاهد فيلماً للريحاني أو عمر
الشريف، أو إلى خالتك أم حسن فقد دعتنا للإفطار عندها أول يوم
في رمضان.

وماذا الآن؟!

أصبحت خلقاً آخر، وسنة تلو السنة حتى صارت تاجرة
وصاحبة مشاريع وأرصدة في البنوك، وطبع كطبع الذناب..
تبدلت من النقيض إلي النقيض..

ولا أبرئ نفسي فلعلها تظن بي ما أظنه بها الآن، وأني الذي
كنت أسكن أحشاءها وأتمدد بحجرها أصبحت عاقاً، وغفلت عن أنه
من جرائي وبسببي طمس الزمن أجمل سنين عمرها بممحاة.
وطال الصمت على سماعة الهاتف، حتى حسبت هي أن شيئاً
يحول دون تواصلنا:

- جلال! جلال! انت رحيت فين؟!

ولما سمعت سعلتي المصطنعة، أردفت بنبرة من يختتم
الحديث:

- أنا قلت لك على المفيد، وشاور انت نفسك ورد عليه بعدين.

- أنا لا بشاور نفسي ولا ليّ دعوة بالقمار والحاجات اللي
تغضب ربنا، وحبيب الفاكهة والخضار ومش ناوي أسيب هنا.

- تغضب ربنا!!

فعلا صوتي:

- أيوه تغضب ربنا! في شرعنا القمار حرام وكمان في
شرعكم، وإذا مكنتيش عارفة روعي اسألي أي كاهن عندكم وللا
حتى الحاخام!

همت بمقاطعتي، غير أنني أغلقت عليها الطريق حتى أفرغ كل
ما عندي:

- وعلى فكرة، أنا عارف كويس إن حضرتك وجوزك أونكل
يعقوب لو قادرين تفتحوا الكازينو ده في إسرائيل لكنتو فتحته، إنما
انتم عارفين إن القانون هناك مانع الحاجات دي، ومفيش في
إسرائيل كلها ولا كازينو واحد للقمار!
فأجابت متهمّة:

- شرعنا إيه وشرعكم إيه يا متخلف! دا بيزنس وتجارة
وفلوس بتشتغل في السوق، والفلوس يا شاطر لا لها ملة ولا عندها
دين ولا بتعرف إلا إنها إزاي تكبر وتزيد، فوفر كلامك لنفسك
وخليك انت في الفاكهة والخضار، وإحنا بيك وللا من غيرك كلها
كام شهر وجايين.

وبنبرة أشد تهكماً:

- وناوي بقي حضرتك تقابلنا لما نيجي مصر، وللا دي هي

کمان حرام!
وانقطع الاتصال..

* * *

(١٣)

ولم ترحمني أم حسن..

فمرة تكلفني بالنزول وشراء علبة دبابيس، ومرة إبرة وبكرة
خيط، تحسباً لمزق أو قطع بأي ثوب فالاحتياط واجب كما تقول،

ثم تسألني إن كان بالسعودية (نشوق)؟!

تعتريني الدهشة وأقول: لا أعرف!

- خلاص ما دام متعرفشي يبقى انزل اشتريني لي حُقين، وعلى

فكرة القراقيش طلعت ناشفة، كعب الغزال هو بس اللي طازة
ويتاكل.

أقول في سري: أمري إلى الله! وأضع قدمي في الحذاء تأهباً

للنزول.

ولم تكف عن إلقاء اللوم على ولدها حسن، الذي استبدل لها

الريالات السعودية بسعر أعلى من سعر السوق. وتطلب مني أن

أطل من الشرفة على الدكان، ألا يزال مفتوحاً أم أغلقوه؟ وإن كان
مفتوحاً هل قليل الأدب (حسن) لا يزال فيه؟!

ووقعت الطامة على رأسي، عندما شرفت الجارات..

تسع نسوة بطرح وجلابيب، واحدة منهن تجر وراءها عيلين،
وأم حسن تتربع على الكنبه تمسك بقدر القهوة وفي حجرها
مسبحة، وأنا بينهن كالمكوك.

- وهات لنا يا جلال الكراسي اللي في الترسيمة علشان اللي
لسه جايبين، وحط شلثة على الكرسي ده علشان خالتك أم نبيل
عندها ولا مؤاخذه..

ولا تكمل..

- وبص يا جلال على بشندي البواب واشخط فيه، علشان
يطلع صندوق الببس قوام.

ومن تذكرها بمطحنة البُنّ والخلاط، وتضع يدها في عبا
لتخرج كيس النقود فتقول لها أم حسن:

- عيب يا حاجة سامية عيب! خير ربنا كثير ولما ارجع يبقى
يحلها ألف حلال، وانتي بالخصوص مش هأخذ منك ولا مليم، انتي
ناسية لما جبتي لي في حجتك اللي فاتت ست أمتار ديولين
ومرضتنيش تاخدي حقهم إلا بالخناق.

ومن صرفت النظر عن الجلابب القطيفة والشال، استبدلت
بهما خاتماً من الذهب الأصفر عيار ٢١.

والبخور..

- مش أي بخور والسلام، بخور من بتاع عطر الكعبة وللا
بلاش.

ناهيك عن الطلبات الأخرى، سجادة صلاة، حناء، طرَح
وشيلان، أو مسواك.

- وتعالى هنا جنبي يا جلال واعمل لي كشف بالطلبات، وكل
طلب قدامه اسم صاحبتة ودفعت كام.

فتنظر النسوة إلى بعضهن البعض بنظرات مشفرة، ويدركن
أن أم حسن عازمة على أخذ الحساب مقدماً أو على الأقل مقدمات
وعرابين، فتحجم من تحجم وصادقات العزم يخرجن أكياسهن
ويبدأن في عد النقود.

وتجفف امرأة بمنديل من الورق حبة عرق على جبينها،
وتقول:

- وصيتك يا أم حسن والوصية أمانة، تقفي على باب الكعبة
وتقري لي الفاتحة سبع مرات على اللي في نيّتي.

وتتلّفت أين تقذف بالمنديل، وهي تعيد:

- أه.. على اللي في نيّتي.

أرمق أم حسن بعيني قائلاً:

- أكتب دي كمان؟!

فتجيبني دَهْشَةً:

- تكتب إيه! دي حاجات متنكتبش، هي فاتحة واحدة للجميع
والسلام عليكم، عليكم السلام.

فتتبرم المرأة قائلة:

- لا لا يا أختي أنا طلبي لوحده وعلى اللي في نيتي
بالخصوص، مش أي فاتحة والسلام!

فتشبح أم حسن بيدها ضجرة:

- خلاص خلاص، إكتب لها اللي هي عايزاه.

فأمسك بالقلم متمتماً: والفاتحة للست أم لبيب على اللي في
نيتها.

وأور ببصري بين النسوة، عسى أن تتحفني واحدة منهن
بطلب جديد.

* * *

وبعد أن انكشخوا من البيت وخارت قوى أم حسن، أسرعْتُ
إلى الفراش، وأول ما وضعت رأسي أقبلت نادية على خاطري.
أقبلت بحاجبين رفيعين على مجرى العيون، واللون الزهري
للفستان، وخاتم يطوق قصبه الإصبع، وذرات نمش على الخدين لا
ترى إلا بعد فحص وتدقيق..

أنت بالأوصاف التي التقتني بها اليوم بديك عم زغلول البقال،
فأين كانت من عيني ساعتها هذه الأوصاف؟! وأنا الذي حسبت
أني لم أحظ منها سوى بطرفة عين، وكأني كنت أراها بعين
تتحسب وتسائر الحال، والعين الأخرى تعمل في الخفاء!!

فهل فينا شيء يعمل بمعزل عنا؟!

شيء بصره حديد، يرى مثلما نرى، غير أنه يرى لنا ما لا

نراه، وعندما تكون الساعة ساعة خاطر وتذكر يلوح لنا بما رآه..
أم أن هذا الذي أقوله الآن مجرد هوس وخيال، أشغل به
دروباً في القلب خاوية..

ويدنو مني زوجها فؤاد..

يدنو بلباس وسَمْتُ وكلام الناس الطيبين، أراه بعين الخيال
وهو يحثني على أن أعوده لنشرب معاً قديحاً من الشاي.. يقترب
مني ويلاطفني بحلو الكلام، وأنا الذي من بضع ساعات عين معه
والأخرى على زوجته!!

ويهدني التفكير حتى يأخذني السبات، لتجيني في المنام
زوجتي خديجة المتوفاة..

أتى الخُلم على مشهدين..

مشهد تطرق فيه عليّ خديجة الباب وهي بملابس الإحرام،
وأول ما رأته أمامها أخفت عينيها مني، وأدارت وجهها إلى بعيد.
لم أفطن إلا بعدها، أنني كنت عارياً وبهذا المنظر الكئيب فتحت لها
الباب.

المشهد الآخر كانت فيه بملابس الحداد، وتقودني إلى المقبرة
التي وارينها بها ذات يوم بضواحي باريس.

أقول: من الذي مات؟

فتشير لي نحو شاهد قبر، مكتوب اسمي بأعلاه (جلال ابن
الجيران).

وأظل نائماً إلى الضحى، لم أصح إلا على حركة أم حسن

وهي تجر الحقائق نحو الباب، أرى الحقيبة إياها فأقول:

- لا حول الله يا رب! برضه هتسافري بالبلوى دي؟

يغمر وجهها الرضا والاتكال على الله، وتقول وهي تبتسم:

- قول يا باسط..

* * *

يوم جديد ويصل باص شركة الحج والتسفير، ليقلها هي وأربع حاجات أخريات. وتعلو الزغاريد والتشويح والطل عليها من النوافذ والشرفات، أما صاحبات أم حسن المقربات فقد وقفن أمام باب العمارة، الذي تحدد مسبقاً كمركز للتجمع والانطلاق.

كنا حوالي سبعين نفرأ أو أزيد قليلا، وعربات صمم أصحابها على مرافقة الحاجات المسافرات حتى باب المطار، وعيال يمسكون بمصاصات وبذيل أمهاتهن في آن، أو غلبهم النعاس فبدءوا في البكاء، ومنهم من جلس على باب العمارة وأسند رأسه على كفه ودخل في النوم. ولولا أننا بعد الفجر بقليل لأصبنا حركة المرور في مقتل، وأغلقنا الشارع ومعه شارع آخر أو شارعان.

أم حسن تطل علينا من نافذة الباص، وتوصي الست نظيرة وزوجها أبي السعد أفندي بأن يهتما بي حتى تعود، فيردان عليها في نفس واحد:

- جلال في عيننا يا حاجة، بس التفتي انتي لروحك.

ويوصيها أبو السعد أفندي بأن تبتعد عن شمس القيالة، وأن تكثر من شرب الماء قدر ما تستطيع، فتنذكر الزمزية وتهبط

برأسها باحثة عنها، وأبو السعد يقول:

- بتدوري على إيه يا حاجة! تلاقيها مرمية تحت رجلك وللا
مزنوقة في الكرسي، ما هو سيرها لافف أهه على رقبته يا بنت
الحلال!

تكتشف أن كلامه صحيح، وتضحك وتشيح بيدها ساخرة من
(الخبطة واللهوجة) التي أصابتها وتعود برأسها إلينا ثانية. وأنتبه
أنا إلى (فلقة القمر) التي تقف إلى جوار أبي السعد أفندي، وتروح
عيناها إليها فيلحظ ويقول:

- دي بنتي الباشمهندسة هديل.

أمد يدي مُسلماً وتخفص هي بصرها، وترمقنا الست نظيرة
بربع عين ويسعل أبو السعد أفندي سعلة كاذبة، وأم حسن هي
الأخرى معنا وتتابعنا من النافذة بعين راضية. وعندما تلمح ابنها
حسن يخرج علينا من باب العمارة بجلباب البيت، تصيح فيه
غاضبة:

- بقى جاي تتمخطر وتسلم عليه دلوقتي يا قليل الحيا والدين!
وفينها مراتك والعيال؟! هو أنا رايحه أجيب كيس مخلل وللا عند
بتاع الطعمية والفول، دا أنا هركب الهوا وأعدي بحر طويل
عريض!

فتهدئ منها جارة عجوز، وتذكرها بأنها منذ هذه اللحظة في
ذمة الرسول، والحج ليس فيه رفث ولا فسوق أو كلمة واحدة
تغضب الله. ويقطع علينا المشهد سائق الباص، منطلقاً بالحاجات

ووراءه رهط من المركبات لا يكف عن الزمير، وأصعد أنا إلى
الشقة لألملم نفسي وأتأهب للسفر.

* * *

(١٤)

عندما وطئتُ زمام البلدة، لم أجد شيئاً مما كان في الذاكرة..
لا وابور الطحين بقامته التي يتصاعد منها الدخان، ولا الساحة
التي كانت تعج بالنسوة حاملات قفف الحَبِّ أو من يأتي به في
أجولة على ظهور الحمير، والحركة والوسع والفرحة بخيرات الله
التي تطحنها لهم أضراس الوابور.
رحل..

ورحلت معه العجائز اللاتي كن يجلسن أمامه بمشنيات الترمس
والفول النابت وحبِّ العزير، والنصبة التي بجانبه البحري حيث
كان أنفار الوابور يشربون الشاي والدخان، أو من يفرش منهم
ساعة القيلولة حصيرة في ظل شجرة أو بحذاء جدار، مريحاً جسده
من المناهدة والنقار مع النسوة اللاتي لا يكفنن عن الثرثرة
والفصال في أجرة الطحين.

وغاب الرجل الأكتع الذي كان يقف على الميزان، محرّكاً بذراعه المثنية وكتفه المرفوعة رمانة المؤشر إلى اليمين واليسار، ورفيقه ذو النظارة الملحوم ذراعها بالغراء، الذي كان يسجل الأرقام بريشة في يده على قصاصة ورق ويسلمها لمن عليه الدور. لعلهما رحلا إلى رب كريم، هما وصاحب الطاولة الخشبية المرصوص عليها علب الدخان وأكياس المعسل والشاي، وعجوز كان يقعى إلى جواره وأمامه حزمة من أعواد الخيزران، يبيع منها لمن يريد أن يؤدب دابته أو يحثها على المسير.

أقاموا محلّ الوابور أربع بنايات..

بنايات من تلك نسميها التي مساكنَ شعبية، ونسوة من أهل البندر ممن استوطن البلدة يجلسن في شرفاتها بجلابيب النوم.

من تدلي بسبت من الخوص ليضعوا لها فيه الخضار والطلبات، وتفاصل من أعلى في الأسعار. واللاني يثرثرن بصوت عالٍ، أو يحدقن في المارة بجرأة لا تعرفها الفلاحات. وفي الأسفل محلّ للبقالة يبيع الجبن الرومي والبسطرمة وعلب الفول، ورجل يشوي الدجاج، ودكاكين على كل لون. الذي يعلق على واجهته بعضاً من موديلات العم سام، أو من له قاترينة معروض بها سجانر المارلبورو والسلاسل والولاعات. والملبوسات النسائية لها الأخرى نصيب، بلوزات و عطور وأحذية ذوات كعاب، وثياب تحتية مشدودة على هياكل لأفخاذ وصدور نساء.

تلفتُ باحثاً عن شيء أريح جسدي عليه..

مقهى تتناثر أمامه المقاعد والطاولات، ونادل بجلباب بسفرة
ومريلة بيضاء يتنقل بين خليط من الأفندية والفلاحين. وعلى مسافة
وبحذاء طريق فرعي يؤدي إلى الغيطان، عشة بسياج من الغاب
المضفور خالية إلا من رجال أنهموا جلستهم ويتأهبون للرحيل.
قصدتها، وأنا أتابع بعيني صبيّاً بجلباب مشمور يرش أمامها بحفنة
يده من جردل ماء، وعجوز يتفقد المصاطب الخالية ويرفع عنها
الحصير ناكثاً ما علق به من غبار، وعلى مرمى حجر منه نصل
محراث يشق الأرض، وراءه رجل بصديري وسروال يجفف
عرقه بطرف الشال العالق بكتفه.

ترك العجوز ما بيده، ورمقني وأنا أقترّب.

يبدو أنه ظن أنني قد لا أميل إلى الجلوس على المصطبة،
فأسرع وأتى بمقعد من الجريد. وضعه في ظل شجرة صفصاف
كثيفة الأغصان على بعد خطوات، وفور أن جلست قال وهو يحرق
في ثيابي:

- بس إحنا هنا يا أستاذ معندناش غير المعسل والشاي.

رفعت عيني إليه دون أن أعلق، فأردف وعيناه ترنوان ناحية
موقف السيارات:

- الحاجات الساقعة والطولة والسحلب وكل اللي بيعجب

الأفندية، عندك هناك في القهوة الأفرنجي.

وتأملني ثانية:

- ماشي يا أستاذ؟

- ماشي. شاي.

- الله يفتح عليك..

وصاح في صبيه بالمطلوب، ثم قعد بالقرب مني يتحسس ساق الشجرة التي نستظل بها، ويقصف بمطواة أخرجها من سيالته بعض نتوأتها البارزة. لم أسأم منه، تركته لما يفعل وجُستُ أنا في الأيام القليلة التي قضيتها بالبلدة وأنا صغير.. أُمي تتوجس مما حولها وتحتوى كفي بقبضة يدها، وأنا مسحور بدنيا الريف.. الشوارع المتعرجة، وبنائيات بالطوب النئى من دور واحد أو دورين، وطيور أبو قردان التي تحوم على شواشي الشجر ساعة الغروب باحثة عن موطن قدم ترتاح عليه وتنام، والبهائم بنعيرها الممطوط الكسول، أو الأغنام الصغيرة التي تلهث وراء أمهاتها بمأمة لا تنقطع.

أتيت هنا مرة ثانية وأنا في أول الشباب، أتيت وحدي ولم أمكث سوى نصف نهار، لألقى العم إبراهيم وأبلغه بعزمي على السفر إلى فرنسا للحاق بأهل أُمي هناك.
العم! كم أتحسب من لقاء هذا العم..

* * *

- هو الأستاذ ساكن هنا جديد؟

أخرجني سؤال العجوز مما كنت فيه، التفتُ إليه مشيراً بالنفي، وأقبل الصبي قابضاً بيده على طاولة خشبية فوقها قدح الشاي.

وضعها أمامي وطفق عانداً، ثم رجع حاملاً جوزة مشتعلة سلمها للعبوز، فمسح طرف الغابة بكفه واختبرها بفمه مخرجاً دفقتي دخان. ارتخى بعدها إلى جذع الشجرة مربعاً ساقيه، والجوزة بين يديه تكرر بصوت رتيب، وماؤها يتقلب في برطمان من زجاج كلما شد الأنفاس، والجمرات تزداد اشتعالاً، ومنها ما يقطق ويتقلقل من موضعه ثم يخفت مرة واحدة متحولاً إلى رماد.

برهة ونظر إليّ بعينين دامعتين من لفح الدخان:

- أصل الأعراب ملوا البلد زي ما انت شايف! اللي من امبابة واللي من الوراق وللا بولاق الدكرور، والناس بنتت لهم عمارات بتأجر بالشيء الفلاني.

وأشاح بعود حطب في الهواء مهدداً كلباً يقترب منا، ثم قال:

- هو اسم الكريم إيه؟

- جلال.

- عاشت الأسامي ياسي جلال، أصل يا ابني عمرنا ما عرفنا حكاية الإيجار دي قبل كده! كل واحد غني حتى وللا فقير كان له داره، يعني مطرحين وزربية وحوش للطيور وباب يتقلقل عليه هو وحاله وماله وعياله ولا الضالين أمين، وإذا طب علينا غريب كانت البلد كلها تعرف، وانت مين؟ وحكايتك إيه؟ ورايح على فين؟ مش اللي جاري اليومين دول!!

يسحب نفساً طويلاً يتلوه بعدة سعلات، وبصوت بدا أوله متقطعاً من أثر السعال، طفق يسخر من اللكنة الناعمة التي يتحدث

بها هؤلاء الأعراب، الذين قدموا إلى البلدة هرباً من ندرة السكن
وغلاء الأسعار. والنسوة اللاتي لا تختشين، ورجال منهم كالبيغال
يجوسون الشوارع بجلايبب إفرنجية تشف عن سيقانهم وسراويلهم
التي بحجم الكف.

- ولا بيستحوا يا أستاذ! نكت وقلة أدب وكلام مكشوف،
وعياننا الأوساخ عايمين على عومهم!
برهة وسألته عن واور الطحين؟
فتنهذ مشيحاً بيده:

- ماهدؤوه يا ابني! والفلاحين الغلابة اللي زي حالاتي ببشتروا
الدقيق دلوقتي من الحكومة، أما الأعيان وحتى الفلاحين النص
نص معدوش بيخبزوا دلوقتي في البيوت، اسم الله عليهم بقوا
بهوات وببشتروا العيش الجاهز زيهم زي الأعراب!!
تنهد مرة ثانية:

- فينك وفين أيامك يا حاج كساب؟!
ولعله ظن أني سأستفسر منه عن يتكلم، فسبقتي قائلاً:
- الحاج كساب ده كان صاحب البابور، وإيه!! يبجي على
الضحى كده راكب البغلة أم شناف.

وسكت متطلعاً إلى وجهي، فيبدو أنه لاح عليه تعجب من أن
بغلة لها اسم وهذا الاسم بالذات، فأردف مؤكداً:

- أيوه أم شناف، اسمها كده! وينزل عننا الحاج كساب من
على البردعة الجوخ، الجلابية إيه! والشمسية تحت باطه والعمة

دورين، ووسع يا ولد وانتي يا بت ويجروا يحطوا له الكرسي
الخرزان، وهو بسم الله ما شاء الله عينه على اللي بيجرى قدامه،
ويشاور بالخرزانة على الولية اللي مش واقفة في الدور ولا نفر من
دول اللي بيتبصص على النسوان، وإيه يا فندي!! ينده على أي واحدة
خارجة ويجس بايده الطحين اللي على راسها، وإن مكش ناعم
ومطحون بما يرضي الله، كان يدخل على الأنفار وهات يا زعيق.

نفس جديد وعاود الحديث، والدخان يخرج من فمه مع الكلام:

- كان الخير رايح جاي والست من دول اللي ممعهاش حق

الطحين يسامح، والمعذور يمد إيده في جيبه ويديه، والكل يرجع
على بيته متراضي أربعة وعشرين قيراط.

كنت أنصت وشيء بداخلي يعافر ويعافر، حتى التقط من قاع
القاع ركام رجل كهذا رأيته مرة أمام الوابور وأنا صغير. قصير
وسمين، له شارب تتخلله شعرات بيضاء، وخيزرانة كلما أشاح بها
تدلى كم جلاباه، وبدا ذراعه البض مكسواً بشعر أصفر وخاتم
بفص ياقوت.

فهل هذه الأوصاف كانت نائمة بالفعل في داخلي، أم أن

خاطري يشاكس ويضيف من عنده إلى مخزون الذكريات؟!

وهل هي للحاج كساب الذي يتكلم عنه هذا العجوز، أم لشخص

آخر؟! شخص هجين بعضه من عندي، وبعضه مما يوحى به هذا

العجوز!

كنت مؤتسماً بالحديث وتمر علينا بين الحين والحين أوقات يُطبق فيها الصمت، فنتبادل النظر دون كلام أو يدع كل منا بصره لما يجري أمامه. فلاحون يُعمِلون مناجلهم في أعواد زرع، حماران عن بعد يتبادلان الركلات، أو حتى أشعة الشمس التي تنفذ من بين أوراق شجرة الصفصاف متناثرة على هيئة بقع، تصغر وتكبر فوق قماش البنطال الذي ارتديه كلما اهتزت الأغصان والفروع.

سألت العجوز عن العم، فرمقني بجانب عينه وهو يخلع حجر الجوزة وينكت ما فيه على التراب:

- الشيخ إبراهيم، إلا أعرفه!

وتوقف ليدفع طاقيته إلى الوراء، ويهرش رأسه من الأمام وأنا أرمق نملة تفلت من بين أصابعه مولية الأدبار.

عاد إليَّ بعدها متسائلاً:

- وانت بقى ياسي جلال ولا مؤاخذة كده، جاي للشيخ إبراهيم

ذات نفسه وللا لحد من عياله؟

- للشيخ إبراهيم ذات نفسه.

- خير إن شاء الله، فيه معاملة بناتكم؟

لم أشف فضوله، قلت وأنا أنهياً للقيام:

- موضوع كده.

فأجابني محبطاً:

- موضوع، طيب!

ونهض يشير بيده واصفاً لي الطريق.

* * *

(١٥)

طغى بيت العم على البيوت التي تحاذيه..
أربعة طوابق، وسور من الدبش تعلوه قضبان سنونها كسنون
الحراب، ناهيك عن البوابة الحديد.
بدا كالحازوق بين الدُور الطيبة المسالمة التي حوله، فكلها لا
تعلو عن وجه الأرض إلا بقليل ويهفو بك طوبها اللين إلى الزمن
القديم، ونوافذ ليس عليها رسم أو زخرف أو لها قضبان ومتاريس.
نسوة بالطبع تكمن وراءها، لكنهن لسن بعبط وسفور النسوة
الأغراب، فهن محنكات ويرونك من (ساسك لراسك) دون أن تلمح
لهن إصبعاً أو لفطة رأس. والأبواب مواربة، تجتاز عتباتها جيئة
وذهاباً طيور وأولاد صغار في حمى كلاب تعطلت أنيابها من
طول العشرة ومعرفتها للأصول.
أقيم بيت العم على أنقاض البيت القديم..

الدار الرخية التي تبسمت لي يوم أن أقبلت عليها وأنا صغير،
ولا تزال تقاطيعها محفورة بصدري إلى الحين..

البوابة المطبوع بأعلاها من اليمين كف يد وهلال. الكلب
العجوز الممدد بحذاء الباب، لا يعبأ بأحد أو يسمع كلاماً إلا كلام
الجد عبد الحميد. الدهليز حيث كان يحلو للجد الجلوس على دكة
يرمق منها الداخل والخارج. وفي آخر البيت كانت هناك شونة
يقعى على عتبها كلاف عجوز وذبابة تحوم حول وجهه دون
انقطاع، وهو يهشها بطريقة آلية وعيناه مغمضتان، وبين الحين
والحين ينتأب بصوت مسموع ويعود إلى غفوته من جديد.

أغافل أمني متسللاً إلى الحوش، وأنا أعمل ألف حساب للديكة
الرومية التي تتبختر بخيلاء، وكل واحد منها له لغد كبير ومنقار
كالسكين. أتحاشاها كي لا تقوقى في وجهي، مثلما فعلت مرة
وهاجمتني ولم ينقدوني منها إلا (بالضالين). وأرمق كوانين عليها
قدور تتقلقل أغطيتها من شدة البخار، والجدة جالسة أمامها هي
وبناتها فوق قوالب من الطوب. أتوقف محققاً فيما يفعلون، فتراني
الجدة. تشير إليّ بأن أدنو منها، وتهم واقفة ترفع الغطاء عن إحدى
القدور. يلفحها البخار فتميل برأسها وتهشه بكف يدها، ثم تخرج لي
قطعة لحم أو كبدة إوزة. تنفخ فيها حتى تبرد وتضعها في كفي،
وهي تحثني على أكلها في الحال كي لا يخطفها مني كلب الجد
الذي يرمقنا ويهم بالاقتراب. تلتفت عماتي إلينا ومعهن زوجة عمي
إبراهيم، يرمقني باستغراب كأنما أنا لست ولداهم، وإنما مخلوق

غريب نزل عليهم من السماء.

راح بيت الجد..

راح هو الآخر مثلما راح وابور الطحين، وخرج علينا العم بهيكل كبير من الإسمنت والحديد، لا أحسب أنه سوف تربطني به يوماً أية قربي أو وصال..

* * *

يبدو أن وقفتي أمام بيت العم طالت قليلاً وأثارت فضول صبية يلعبون، إذ أقبل عليّ واحد منهم جلبابه مشمور حتى أعلى الفخذين، وبين ساقيه عصاً طويلة يتوهمها حماراً يمتطيه.

سألته: هل هذا بيت العم إبراهيم؟

أوماً برأسه، وتركني مسرعاً وهو يطلق من بين شفثيه صوتاً كبوق السيارة، ويجري هنا وهناك والغبار يلاحق ساقيه العاريتين. وخرج إليّ فحل بشارب كث، عرفته من أكون فقال وهو لا يزال يتأملني:

- يعني انت ابن عمي؟!!

أمّنت على قوله، وهو لا يزال متعجباً من المفاجأة:

- على كده تبقى انت أخو ليلى اللي مسافر بلاد برة بقالك

سنين!

وبنبرة لا خير فيها ولا شر، دعاني إلى الدخول.

ولجت الباب في إثره، لأصعد على سلم عريض على يمينه تعريشة صغيرة أسفل منها مقعدان من الخيزران، وعلى اليسار

حيث المساحة أوسع زكائب مرصوفة فوق بعضها البعض على هيئة صفوف، وثمة غرفة فسيحة في مواجهة الصاعد أجلسني فيها وتركني خارجاً.

الجدران طلاؤها عديم الذوق، والساعة المعلقة في مواجهتي عقربها الذي يشير إلى الثواني معطل، وهي ذاتها تشير إلى زمن غير الزمن الذي كنا فيه. وخليط من كنب الجد القديم وأرائك مذهبة لا تزال بزهورتها، وعلى الجدار صورتان متجاورتان للجد عبد الحميد والعم إبراهيم، والاثنان بالعمامة وعباءة مزمومة عند المنحرف تخفي ما وراءها من ثياب. الجد تقطبية على وجهه وحدقتنا عينيه متسعتان، ربما كانتا تركزان ساعتها على آلة التصوير. والعم على شفثيه ابتسامة، وعيناه تقولان إنه يدبر لأمر ما. وفي زاوية بعيدة ثلاجة مقبضها شديد الاتساح، على سطحها علبة دواء وطبق غويط. وعندما هبطت بكتفي لأحکم عقدة رباط الحذاء، لمحت برتقالة أسفل الكنبه وبجوارها فردة (شراب).

أقبل ابن العم يحمل صينية، عليها كوب به شراب أصفر اللون. كان لاذعاً فأصابني بشرقة في الزور، غير أنني تحاملت على نفسي وازدرته دفعة واحدة كأنه دواء، وابن العم الجالس قبالتي يرمقني دون تعليق.

سعل سعلة خفيفة، أظنها مفتعلة، ثم عاد بمنكبيه إلى الوراء واضعاً ساقاً على ساق، فجرت عيناى على قدمه البارزة من ذيل الجلباب. الأصابع كلها قوامها غليظ، وبطن القدم مستوٍ بلا تجويف

كما الناس، وعندما لاح لي الإصبع الكبير نحيت بصري على
الفور، فقد كان هذا الملعون (مدوحساً) ومنظره مستفزاً. ورفعت
عيني، ليبدأ هو الآخر بالتحديق في سحنة وتقاطيع هذه البلوى التي
حطت عليهم. أمضينا وقتاً لا بأس به في الفرجة على بعضنا
البعض، إلى أن سألته عن البيت القديم.

- قصدك بيت جدي عبد الحميد، ما اتهد بقاله سنين!

وأردف بحماس:

- دا كان بيت فقري ومخوّخ، شوف البيت عامل إزاي دلوقتي،
زي السراية! مَصَيِّفة ودور للوالد، ودور ليّه، ودورين لخواتي
فريد والشحات.

وأنا تراودني رغبة في التبول، غير أنني كبحتها وطفقت أتابع
كلام هذا البغل وذراعه التي تشير حتى أقبلت عليّ ذبابة، دفعتها
بيدي فولت هاربة نحوه واستقرت على كتفه. تابعتها وهي تعلق
نسيج الجلباب، ثم وهي تحلق ثانية وترف بجناحيها حوله إلى أن
هبطت فوق رأسه بسلام.

- والشونة؟

- شونة إيه يا سيدنا البيه، ما اتهدت هي رخرة ودخلت في

زمام البيت الجديد.

وتبسم:

- دي الكنبة اللي انت قاعد عليها دلوقتي، ولا مؤاخذه كده هي

المطرح اللي كانت بتنام فيه الحمير.

لم أعلق، دهمتي نوبة عطس حادة لم أفلح في السيطرة عليها.
عطسات قوية تنطلق من فمي، مخلفة وراءها رذاذاً كثيفاً طال
بعضه جلباب ابن العم، فرمقتي بضجر وطفق يزيحه متأففاً ولما
فرغ أردف قائلاً:

- والشباك ده اللي انت راكن يدك عليه، كان مطرح ما بيرتاح
الطور. إحنا لا عاد عندنا في البيت دلوقتي شونة ولا يحزنون،
البهايم اسم الله عليك بتبيت في الغيط وجنبها غير.
تأملت ابن العم للمرة العشرين، ثم تطلعت إلى صورة العم
فبادرني قائلاً:

- عمك بعافية حبتين.

فسأسأت بفمي متضامناً.

- والله تعبان، ودّناه لحكيم واتنين وبرضك مفيش فايده، الحال
هو الحال.

وأظنه أدرك أنه حان الوقت لرؤية العم، فسبقني قائلاً:

- على فكرة أنا دخلت عليه علشان أقول له انك جيت، لقيته يا

ولداه في سابغ نومة.

واندفع الباب عن امرأة برداء لا تعرف منه، إن كانت من أهل
البندر أو من الريف. قلت في نفسي إنها أختي، وهي تهلل وتسرع
نحوي فاتحة ذراعيها:

- أهلاً أهلاً بالحبيب! أهلاً بالغايب! كل واحد عنده اللي مكفيه،

وأنا لوحدي النهارده اللي عندي عيد.

وأنا كمن نزل عليه سهم الله، وانحاش عنه التعبير. لم تسعفني
مشاعري لحظتها بردة فعل أو حتى بأي انطباع، أو وافقتي بجل
للموقف الذي أنا فيه. وقفت فارغاً متيبساً، غير سهلٍ أو ليّن بين
يديها وأسارير وجهي على الحياد..

لم أتهدأ لتلك الدفقة الحنون، أخلت بتوازني، فلا أنا أعرفها كما
يعرف الأخ أخاه، أو حتى رأيتها من قبل إلا مرة أو مرتين، ولا
جاء لي طيفها يوماً على بال..

وكيف يأتي وأنا لا أعرف لها وجهاً أو هيكلًا، أو ميزت لها
نبرة صوت..

كل ما كنت أعرفه أن لي أختاً، أخت من أب تسكن عالماً غير
العالم الذي أسكن فيه. أخت في حالها وأنا في حالي، لا أكثر من
هذا ولا أقل..

حسبت أن ما بيننا مصمت جاف كحالي مع ابن العم الآن.
أغفاني البعد والفراق عن أن بيننا أباً واحداً. دماً واحداً. يُتَمَّأ واحداً.
وبلا وعي مني، أو لعل شيئاً بداخلي تحرك وثاب فأبدلني إلى
النقيض، ولقيت نفسي ألقى بجسدي عليها مثلما فعلت هي قبل
لحظات، وأقبلها على خديها ويديها ومفرق شعرها الذي يلوح من
وراء طرحتها السوداء. أسلم كل منا نفسه للآخر، كأننا لحم وعظم
يعاود الالتئام.

وأقسمت هي بالله أن تأخذني إلى بيتها في الحال، أقسمت مثلما
يقسم الرجال وابن العم يقول:

- طب بس ارتاحي وخدي نفسك يا أم جلال.
وقبل أن تأخذني الدهشة، نظرت إليّ قائلة:
- أصل أنا سميت ابني على اسمك، هو فيه أعز من اسمك،
جوزي على اسم أبويا وابني على اسم أخويا.
وخرجت في كعبها، دون أن ينطق ابن العم بكلمة تدعوني إلى
البقاء.

* * *

(١٦)

فراش أختي ليلي مريح، والجلباب الذي أعارني إياه زوجها
(محمود) أكمامه واسعة ومليء بالفتحات.
هو من عائلة من نواحي كفر الشيخ، استوطنت بلدتنا منذ
عقود.

أناس بسطاء، أبوه يمتلك دكاناً للبقالة ولعمه محلّ لبيع الطرح
والكحلّ والنشوق وباقي مستلزمات النساء، والعم الثالث اشترى
سيارة (تيوتا) نصف نقل ويعمل عليها ليل نهار ليسدد الأقساط. لا
يعرفون كار الفلاحة، ولا عزوة لهم إلا بيوت قليلة الحظ في الجاه
والمال صاهروها وصاهرتهم، ولذا كان زواج ابنهم محمود من
أختي ليلي بنت البيت الكبير أمراً غريباً، ومثار حديث البلدة عدة
سنوات.

ليلي ومحمود كانا معاً في المدرسة الإعدادية، ويبدو أن لطف

محمود وأدبه الزائد عن الحدود كانا مرسالة إلى قلب ليلى، فخفق له من بعيد لبعيد. اتجه هو بعدها إلى المدرسة الثانوية فكلية التجارة وهي إلى البيت، افترقا غير أن قلبيهما كانا على اتصال.

تقول ليلى: إن محمود بعد أن حصل على الشهادة الجامعية وعينوه في الجمعية الزراعية، جاء لخطبتها بصحبة أبيه، وأنها رأتهما يومها من وراء الشباك وهما يطرقان على البوابة الحديد. الأب بجلباب مكوي ومداس جديد، ومحمود بقميص أبيض وبنطال (شارلستون) على غرار موضحة تلك الأيام.

أقول لها: أوّ تتذكرين لون القميص وتفصييلة البنطال!؟

فتومئ برأسها خجلا.

لم يقدم لهما العم كوب ماء، أو حتى ردهما بكياسة ولين! كان شرساً، تهجّم على محمود مشيحاً بيده ويصيح: من أنت؟! وابن من حتى تتجراً وتطلب مصاهرتي يا عديم التمييز! ألم يعلموك في المدرسة أن هذا عيب!

وبسبابته التي كادت أن تنال من أنف محمود، استمر في الصياح: أنت يا جبان تريد النوم في فرشة واحدة مع بنات الأصول! يا سبحان الله! تزفت كما تشاء، ولكن ليس من بناتنا يا ابن عبد الرؤوف! اذهب لفلان بائع الفول الحراتي أو علان الذي يبيع المقاطف والحبال، فعندهما تجد العروس التي تليق!

وكلما هم الأب بدفع الأذى عن ابنه أخرسه العم بعينيه، ثم استدار له وسمح بدنه بكلمتين. والرجل يتكفأ وينحني على مداسه،

ومن ربكته ارتداه بالمقلوب، اليمين في الشمال والشمال في اليمين.
ولم يكتف العم، خرج وراءهما حتى الباب وصوته يملأ الآفاق: ألا
تستحي يا عبد الرؤوف! ألا تفهم في الأصول (يا عويل)! أتريد أن
تقف بنت الحسب والنسب معك في الدكان، تبيع الصابون والسكر
والزيت!

فطفقا يهرولان، الأب يتلفت وراءه خوفاً من أن يقذفه العم
بفرجة مداس، ومحمود لا يصدق أنه لا يزال في الدنيا مثل هذا
الحيوان!

ملاً زعيق العم بعدها كل البيت، وأم ليلي - رحمها الله -
تخفيها عن عينيه. وهو يبحث من غرفة إلى غرفة وببده (فرقلة)
لها لسانان، لا يقول الواحد بعدها إلا: آمين.. آمين.. أنا غلطان،
وهسمع الكلام!

* * *

لم يقف الأمر عند هذا الحد..
فبعدها بأشهر أمسك أحد أولاد العم بخدمة البيت العجوز (أم
الكوز)، وهي تخفي رسالة في عيها أرسلها محمود لأختي ليلي،
فقد كانت هذه الحيزبون بنت الثمانين مرسال الغرام، تأتي لها
بالأوراق المعطرة وتعود بالرد كالحمامة إلى محمود، وأهل البيت
غافلون.

شبت النار بالطبع في الجميع..

أولاد العم بالخصوص، فقد اعتبروها إهانة لا ترد إلا بقطع

رقبة محمود، غير أن أباهم ناشدهم ضبط النفس حتى لا يثار حول البنت (كلام وحديث)، وبدأ هو بالعمل في الخفاء. دس على محمود ثلثة من أنفاره، افتعلوا معه مشاجرة، أمسكوه فيها من قفاه وغطسوا رأسه في حوض تشرب منه الدواب، ولولا أن تكاثر عليهم الناس لكان محمود الآن في عداد الأموات، أو بالقليل من أصحاب العاهات.

مضت ثلاث سنوات بعدها والجميع يظن أن الموضوع مات، إلى أن أوعزت ليلى لأخوالها بالقدوم، والكلام مع العم في مسألة الميراث. هم الآخرون من عائلة كبيرة، لكنهم ليسوا في بأس وجبروت العم إبراهيم. كبيرهم كان عاقلاً. أخذ العم باللين، ولوح له باحتمال التساهل في أمر الميراث، إذا لان هو ووافق على زواج ليلى من محمود، فسأل لعاب العم وتمت المقايضة. أخذ هو أرض ليلى بفتافيت، مقابل أن يغض الطرف عن زواجها بهذا الذي اسمه محمود.

فالكزّه والحنق متأصلان في قلب ليلى حيال العم إبراهيم، صحيح أنهما يلتقيان في المواسم والأعياد وكلاماً مثل هذا يقال:

- سلامات يا ليلى.

- أهلاً يا أبا إبراهيم.

أو من تحت ضرسه يقول:

- وإزي الواد محمود؟

فتممص شفيتها وتجيّب:

- بخير وباعت لك السلام.

لكن ما في القلب في القلب، وليس لأختي من حيلة إلا الدعاء
عليه بالخراب..

قلت لها:

- وتضيعي كل أرضك؟!!

- ما هي كانت ضايعة ضايعة، هو اللي بيدخل في حنك السبع

بيطلع تاني!

وزفرت:

- وهو كان حتى بيديني الإيجار! ولما أسأله يعمل إنه مش

سامع، وإن لحيت يقول لي: أنا شايلهولك في الحفظ والصون!

* * *

وكان غداء أول يوم بالذات يسيل اللعاب، ذكرني بالطعام الذي

كانت تعده لنا جدتي عندما أتينا أنا وأمي إلى البلدة أول مرة.

أم الكوز - مرسال الغرام - التي خصصوها لخدمتنا أيامها،

تدريج الطبلية حتى تضعها بمنتصف الغرفة التي نببت فيها.

تخرج بعدها لتعود وعلى رأسها صينية الطعام، وأنا أخمن وأسأل

نفسي عن المفاجأة التي أعدوها لنا اليوم، هل هي لحم مسلوق، أو

زوجان من الحمام؟ أم ضجروا منا وسيكتفون برغيفين خبز وحفنة

مشّ!

وتزداد لهفتي وأتابع من ثقب الباب، وإذا طال غياب الصينية

كنت أغافل أُمي وأخطو عدة خطوات خارج الباب لأتقصى خبر أم

الكوز، ولا أشعر إلا وأمي خلفي وتجرتني من ياقة القميص ورُغد هنا وزغد هناك. وإذا شعرت مني بمقاومة وأني أتملص منها لأتابع حركة الصينية من جديد، كانت تقرصني في أذني أو تنزل على ظهري باللكمات..

ظلمتني أمي، فلم يكن هذا الذي أفعله سوى لعب عيال وطاقة أفرغها، فقد كنا أنا وهي كالأسرى في الغرفة لا نخرج أو يكلمنا أحد إلا بحساب، وأولاد عمي ومعهم أولاد عماتي يزومون في وجهي كلما اقتربت للعب معهم.

أيام! وها أنا بعد عقدين من الزمان، أكل من طعام البلدة من جديد.

طاولة وعدة مقاعد وليس طبلية زمان، وعلى الجدار المواجه لي لوحة بالألوان لسلة فاكهة، إلى جوارها طبق فارغ عليه شوكة وسكين وضعنا خلف خلاف..

الطبق المخصص لي عليه هو الآخر شوكة وسكين كما في اللوحة بالتمام، فضلا عن ملعقة بجوارها فوطة بيضاء. ولم يحظ زوج أختي الذي يجلس قبالي بأي شيء من كل هذا، اللهم إلا طبقاً مشروخة حافته، وأختي بجلباب البيت وتدفع بالطعام كله أمامي، وابنها جلال يحبو في ذيلها وكلما انحنيت عليه اكتساه الخجل وولى بعيداً.

الدنيا بخير..

وأنا تغمرني متعة وقلبي مستريح من دفقة الحنان التي

تختصني بها أختي، وكفها التي ربنت على كتفي اليوم عشرات
المرات..

وآه من الطعام الذي تقدمه لي الآن، فقد تضاعف أمامه طعم
البط الفريكاسيه أو بعصير الخوخ وشرائح الرومي المطهوه
بعصير البرتقال، وكل ما كنت أكله في باريس. وكان الأرز المُعَمَّر
الذي أعدته لوجبة العشاء، أشهى على لساني من المارون جلاسيه
وتورته البلاك فورست أو المارشال.

- وإيه دا يا ليلي؟

- اللي في إيدك دي عكاوي.

- ودي؟

- دي فضلة خيرك مخاصي على شوية كلاوي.

- بس لو كنا أكلنا على الطبلية؟

- ما راحت الطبالي وراحت أيامها.

* * *

مضت أيام وليلي ترعاني، ولا شيء يسعدني أو يحبب لي
البقاء إلا وفعلته، غير أنني كلما تطرقت بالحديث إلى من كنت
أعرفهم صغيراً كانت تجيبني باقتضاب. سألتها مرة عن العم إمام
خادم جدي عبد الحميد، فقالت:

- عم إمام! هو انت لسه فاكره لحد دلوقتي! ما خلاص كبر

وضهره انحنى ومعدش بيطلع من البيت.

أعتدل في جلستي لأستمع إلى المزيد، وأسألها عن عمي

وعماتي وأولاد عمي، فقد مضى أسبوع ولا حس ولا خبر أو حتى
جاء من طرفهم مرسال يقول لي: أين أنت!

وشعرت بإيقاع الحياة البطيء، وأن ما يجب أن نفعله اليوم لا
مانع من أن نفعله بعد يومين، وأن ما نستعد له غداً ما الذي سوف
يحدث في الدنيا لو استمهلناه أسبوعاً أو حتى أسبوعين.

وكان يلح عليّ طيف أم حسن، مرة وهي تطلق الزغاريد أول
يوم رأنتي فيه بعد أن رجعت، ومرات وهي تجلس معي بالشرفة
تحتويني بعينيها ولا تقول إلا ما تراه صالحاً لي، كأنما أنا ابنها
الذي أخرجته من أحشائها إلى هذه الحياة.. وأسأل نفسي مَنْ أقرب
إلى قلبي هي أم أمي التي ولدتني؟! وإلى أي من هذين القلبين أنا
قريب؟

واتصلت بأبي السعد أفندي، فسألني إن كنت قد أحرزت تقدماً،
أجبتة محبباً بأني لم ألق عمي إلى الآن.
- ياه! خمس تيام يا جلال ولسه مقابلتوش! ليه هو انت طالب
مقابلة الملك خوفو وللا الخديوي إسماعيل!

وحثني على أن أكون طويل البال وأن ألتفت إلى كل كلمة
تقال، فأمثال عمي من أهل الريف ليسوا بسطاء وإنما هم أساتذة في
فن الكلام، وإن كان لهم مقصد أخفوه في طيات الحديث لتبتلعه أنت
بسيف الدهاء.

وبعد حديث أبي السعد أفندي أخذت أراجع نفسي، فحتى الآن
لم يكن لي موقف محدد إزاء أروصي التي بحوزة عمي. ولا عرفت

ما الأجدى لي، فهل أطلبه بها أم أعرض عليه شراءها؟ وإن
سلمني إياها كيف أتصرف فيها، ولو عرض شراءها فمن يضمن
لي أنه لن يبتاعها بفتافيت مثلما فعل مع أختي!

* * *

(١٧)

جلسنا أنا وزوج أختي نحتسي الشاي بالنعناع، وليلى تحكي لي
عن هذا العم الذي ترك له الجد ثلاثين فداناً وداراً وقطعة أرض
فضاء، وأوصاه بأن يراعي الله في أخواته البنات وأولاد أخيه.
- وبعد ما مات جدك ويأول يا هادي راح بايع حنة الأرض
الفضاء، وبنى بفلوسها بيت جديد مطرح بيت أبوه، السرايا اللي انت
شفتها!

وتتأمل صدى ما تقول على وجهي:

- وبالعافية كده وزع الأرض على ولاده الصبيان، كل واحد
منهم التلت يزرع ويقلع فيه، واتربع هو على فرشته والناس تيجي
له من هنا وهناك، اللي يشاوره في حاجة واللي عايز مصلحة، ويا
شيخ إبراهيم إحضرنا النهارده في قعدة صلح وللا شرفنا عندنا
كُتب كتاب..

تتحسس موضع ركبتها، وتحكها بظفرها خفيفاً من فوق
الجلباب:

- وسنة ورا سنة وهو وولاده فاكرين إن الزمام زمامهم
والأرض أرضهم، وجدي عبد الحميد مخلفش غيرهم!
وترمقني مشيحة بيدها:

- يمكن يكون فريد أطيبيهم، اتربي في المدارس وكل الناس
بتشكر فيه، لا له في زراعة ولا يعرف حتى غيطه فين! وسلطان
أخوه الكبير هو اللي شايف له مصالحه وبيزرع له أرضه.
- سلطان؟

فتذكرني به:

- سلطان! البتاع الكبير ده، اللي انت شفته أول ما جيت.
ألحظها وهي تحرك قدمها بحثاً عن الشبشب، ويبدو كما لو
أنها تنهياً للقيام، فأستوقفها سائلاً:
- وبعدين؟

- وبعدين إيه! توتة توتة فرغت الحدوتة.

أقول دَهشاً:

- وحقى أنا وعماتي.

- عمتك نفيسة عيني عليها، ماتت وهي بنت بنوت لا طالت
أرض ولا حتى جواز! مفضلش غير اتنين هانم وأم الخير، إداً كل
واحدة منهم قرشين ودمتم يا محسنين!

أشعر بجفاف في حلقي فأمد يدي إلى كوب الماء، وتعاود هي

الكلام:

- عمّك أم الخير وليّة صاحبة مرض ومفيهاش حيل للمناهدة.
رضيت وسكتت. هانم هي اللي فضلت تناطح فيه يبجي سنتين
وبرضك مفيش فايده! ولما غلب حمارها قالت له: حقي برقبتي،
وخذت هما هما القرشين. تقول له: طيب زودهم شوية؟ يقول لها:
وهو أنا راجل ليه ذمتين، اللي خدته أختك الكبيرة هو هو اللي
هتاخديه. تقول له: يا أخويا يا ابن أمي وأبويا ارحم! السعر مش
كده الله يخليك! يقول لها: وهو انتي رحمتيني علشان أرحمك، دا
انتى فضحتيني قدام الخلق وخليتي سيرتي على كل لسان.

وبنبرة خافتة:

- وأرضي انت عارف حكايتها..

تملاً قدهينا ثانية من براد الشاي، وتهم بالكلام:

- إحنا يا ستات مكسورين الجناح، وكل واحدة وحظها! إن
طلع أخوها وللا عمها يعرف ربنا يبقى اتفتحت لها طاقة من السماء،
وإن كان حاجة تانية أديك شايف!

وتعلو نبرة صوتها:

- دا حتى بناته، عابدة وسامية وزينات منجيوش من ظلمه!
قال لهم: بعد حياة عيني كل واحدة فيكم لها عند اخواتها عشرين
ألف جنيه، وتدخل وتطلع من البيت زي ماهي عايزة، وعلى هلة
رمضان هتروح لكل واحدة حمارة محملة شيء وشويات، وفي
العيد الكبير خروف صاحي دا غير العديات، واللي يتقرص في

ودنه فاكر إنه بكدّه عمل اللي عليه! وهما التلاتة جتهم وكسة يوطوا على إيده يبوسوها ويقولوا له: حسك في الدنيا بابا ولك العمر الطويل، ومن بعدك كفى الله الشر البركة في اخواتنا معمرين البيت والغيط.

ويقول زوج أختي:

- دا أنا مرة سمعت أبويا بيقول: إنهم لما كانوا عايشين زمان في بلد كده ضواحي رشيد، كان هو هو الموال والست من دول ولا العيل اليتيم إذا خد حقه بالمضطوط، يبقى زعق له نبي وللا شيخ!
ويدير عينيه نحوي، ثم يعود إلى ليلي:

- بس يا ليلي لسه الدنيا فيها خير وناس ولاد حلال، عندك الحاج حسنين أبو عوف أهه مدخّش على ولاده مال حرام، وللا الحاج عبد الغفار المنشاوي وأهو قريبكم وانتي عرفاه، مش قال: اشهدوا عليّه يا ناس، كل واحدة من اخواتي البنات هتاخذ حقه في الدار قبل الغيط، وفوق دا كله حلال عليهم ذهب أمهم وكل اللي يخصصها من متاع.

فتجيبه وعيناها تنتقلان بيننا:

- إن كان ده وللا آدا، دول يتعدوا أوليا ومن أهل الله، شاور لي كده على ناس تانية عملت اللي عملوه، سلو بلدنا كده! يا البنت متاخذش اللي حكم بيه ربنا يتاخذة ناقص حته..

وتفالت دمعة من عينيها:

- مش حته واحدة، قول حنتين تلاتة..

وتتجهم صفحة وجهها فجأة، وتقول لزوجها محتدة:
- وبعدين ملكش صالح انت يا محمود، وحسك عينك تنحشر
في اللي بيني وبين أخويا.

يذهب ببصره إليّ، فأنظر إلى ليلي. لا تبدو مكترثة بالحرص
الذي أوقعته فيه، ويتشاغل هو بالكوفية المتدلّية على صدره، يعبث
بها ثم يعيدها إلى حالها الأول، وبرهة ويتركنا.

أسأل ليلي أن تدعوه وتطيب خاطره، تشيح رافضة:
- شوية كده وهو هيبجي من نفسه، أصل أنا مشياه على نظام
لا يحوّد منه يمين ولا شمال.

لا أعلق، وتضغظ هي براحتها على ركبتي:

- ناوي على إيه بقى يا جلال؟

- ناوي على إيه! ناوي أخذ حقي بالخردلة.

فتلحقتي مسرعة، وعيناها تلمعان:

- اسم الله عليك، أهو دا الكلام.

وتتسارع أنفاسها:

- إحنا يا خويا تلتّ منابات، هو مناب وأبوك الله يرحمه مناب

وعماتك الاتنين مناب، وكل مناب عشر فدادين. أنا منابي راح في

عب الله لا يربّحه، وشوف انت بقى اللي فاضل لك كام؟

* * *

مكثت بعدها تشد أزري..

وأن أدخل على عمي يقظاً لكلامه المنفوف، فهو داهية يرمي

الكلمة ليرى ردة فعلها، يقولها كي تبتلعها أنت وبينى هو عليها بعد حين. يأخذ الذي أمامه في طريق غير مأهول وانحناءات والتواءات إلى أن يخور، وعندها يربت على كتفه ويخرج به إلى حيث يريد. نبرتها وهي تتحدث حادة قاطعة، بل كانت تدفعها الحماسة أحيانا إلى الدخول في منطقة الصباح، حتى بدت لي وكأنها لا تشير عليّ، بقدر ما أنها تقبض على أذني وتأمرنى بالذي أفعله أو ماذا أقول! وأنا قبالتها أستمع، ويطوف في خاطري أن حميتها هذه ليست كلها خالصة لوجه الله! بل ونكاية في هذا العم الذي غلبها على أمرها يوماً ما، وكأن النار قادت فيها من أجلي، غير أن أجيجها لم يكن لي بقدر ما هو لها..

فجزء من ليلي ولعله الجزء الظاهر، كان يعمل في هذه الساعة لصالحى. أما الجزء الراكد المطمور الذي يعمل لحسابها، فكان يشفي لها غليلها هو الآخر من العم، على اعتبار أن كل حفنة طين تؤخذ منه لتعود إليّ هي قطرة ماء تطفى نارها. قد تكون معذورة..

فليس لها من نصير إلا واحد من أهلها، وكنت أنا هذا الواحد.. فزوجها محمود وكما يبدو لي لا وزن له ويكاد يكون إمعة، رداء تتدثر به أو مجرد حاشية ترخي عليها منكبيها وترتاح. وأحسب أنها هي التي تزوجته وليس هو الذي تزوجها، رغبت فيه فعقدت عليه وأخذته من يده إلى دارها، فلا حرفة لهذا المسكين إلا الرضوخ وهو في هذا لا يُبارى (وخده مداس)..

وأقرباؤها من الأب وكما فهمت أيدوا العم في فعلته، فأكثرهم لا يزال يظن أن وقوع أرض المنشاوي في يد زوجها الهلפות سابقة قد تحتذى بها نسوة العائلة الأخريات. وكان أقرباؤها من الأم يخشون بأس العم، ولعلمهم قالوا فيما بينهم: طالما أن الأرض ذاتها والتي هي مربط الفرس لن تدخل في حوزتنا وإنما سنتول للغريب، فلماذا الدخول في شجار مع هذا العم قالت الزمام؟ والمقايضة التي باركناها كانت برضاها ورضاه، هو أخذ الأرض وهي رضيت بابن عبد الرؤوف..

لم يبق أمام ليلى إلا أنا فاستماتت لنفخ صورتي، وأنا أسأل نفسي: هل سأكون بالفعل عند حُسن ظنّها، أم سأفشل وأضع يدي على خدي مثلها؟!!

ظللنا على هذا الحديث إلى أن دقت علينا الباب أم الكوز (مرسال الغرام)، ومعها الست (بهانة) والدة محمود.

أم الكوز هذه أعجوبة من أعاجيب الزمان..

العمر على أعتاب التسعين، تجاعيد الوجه لوحة ربانية تقصم ظهر أي رسام، وإن حاكها ولو حرص تخونه الفرشاة. والعينان لا تراهما إلا بعد مجهود وتدقيق، وتعجب أن صاحبتهما تراك، أما الأصابع الممدودة للسلام فهي لهيكل مسجي منذ عقود. والغريب أن قوامها ممشوق، والحركة واللفقات كأنها لامرأة على وشك الستين.

عرفتني (بنت الإيه) بمجرد أن قالت لها ليلى: إني جلال

أخوها غير الشقيق، ولما دستت في كفها ورقة بنكنوت، أخذت
تدعو لي بصوت متعرج وفم لم يبق به سوى ثلاث أسنان..
ومددت يدي مُسلماً على الست بهانة..

لا تقل أبدأً إنها مثل ليلي. شيء مختلف. جلبابها من القטיפه
الرخيصة التي توبرّ نسيجها، وطرحه سوداء مربوطة على رأسها
ربطة أشبه بربطة العمامة، والأذنان شحمتاهما مشقوقتان حتى
آخرهما ويتدلى منهما قرط من الصفيح. ولم يكن جلبابها طويلاً،
يصل إلى فوق الكاحل بقليل، وفي إحدى ساقها خلخال من الفضة
غليظ غشيم، يبدو جلد القدم من حوافه محمراً وبه تشققات من أثر
الاحتكاك. ولا (مَلَسَ) من الغالي الثمين أو إسورة تحيط بالمعصم
أو خاتم بفصوص كنسوة البيوت، أو حتى رائحة طيب بدلا من
رائحة العجين الخامر هذه التي تفوح، غير أن وجهها كان رخياً
يشع طيبة وفي نبرة صوتها حنو الأمهات.

بدأنا أنا وهي في الكلام حتى أنس كل منا للآخر، وكنت أحنو
عليها لأرمم النظرة التي لاحت على وجهها، عندما قالت لها ليلي
بامتعاض قبل قليل:

- أهلاً يا خالة، اتفضلي ارتاحي ماهو برضه بيتك ومطرحك.

* * *

(١٨)

أخيراً أدخلوني على العم..

غرفة أشبه بالقاعة يتوسطها سرير يتسع لثلاثة أشخاص يتمددون عليه بكل راحتهم، وقد جُليت أعمدته النحاسية على ما يبدو منذ وقت قريب، فببت زاهية وتضوي بلون أصفر مع ضوء النهار. وفي الأعلى (داير) من قماش شفيف، وناموسية بيضاء كالحليب ملمومة ومربوطة على هيئة عقدة كبيرة عُلقَت بناصية أحد العمدان. جاءت فوق رأسي مباشرة عندما جلست، وكنت أشعر بأنها على وشك السقوط في حجري كلما هزتها نسيمات الهواء الآتية من الشباك.

عرفت السرير على الفور..

سرير الجد عبد الحميد الذي طالما تأملتته برهبة وأنا صغير، وما زلت أذكر يوم أن سعدت عليه مرة ألعب وأتقلب، وكأني في

أرض فضاء وليس على سرير. ولاح في خاطري أيضاً عندما كنت أتسلل إلى غرفة الجد ساعة القيلولة، فأجده قد فرد ساقيه وتمدد عليه. كانا يبدوان لي ساعتها وكأن كلا منهما خلق للآخر، السرير لا يضاويه في الحجم سرير، والجد هيكله يفوق هياكل الناس.

ينام عليه العم الآن..

رأسه مغطى بطاقيّة بيضاء، والوجه هزيل منطفيء والعنق ضامر يخب في فتحة الجلباب، وما تبقى من العم مغطى فيما عدا أصابع قدميه التي كانت تطل أحياناً من ذيل اللحاف.

حاول النهوض فأشفقت عليه وأسرعت لأثنيّه، فتأملني ملياً وهو يمد لي يده في وضع التقبيل. لم أشأ إحراجه. قبلت يده ودنوت من رأسه مقبلاً جبهته، وملوحة تسري في لساني مما بها من عرق جاف. وأراح هو ظهره إلى عارضة السرير، وتنى ركبتيه أسفل اللحاف.

وأقبلت فتاة تحمل صينية عليها ثمار عنب لونها قاتم وغليلة القوام، فدعاني ابن العم سلطان لأن أمد يدي:
- دا صنف جديد جاي هدية للوالد من الباشا صاحب العزبة اللي في ريحنا.

ف فعلت ومد العم أصابعه هو الآخر إلى حبة عنب ولاكها في فمه، غير أنها لم ترق له فبصقها في كفه ثم رفع عينيه لابن العم:
- مش هو ده برضه زرع الجماعة اليهود، اللي جايبهم الباشا

بسلامته من إسرائيل.

- أبوه يا حاج والكيلو منه بيتباع بالشيء الفلاني في مصر، دا
غير اللي بيتصدر هنا وهناك.
وأضاف معجباً:

- وولاد الذين دول بيتكلموا عربي زينا، وواحد منهم اسمه
(عزرا) ساعات يلبس طاقية ويعمل زيه زي الفلاحين!
والعم يرمقه ضجراً:

- يا سلام!! وبعدين!!

فسكت ابن العم، العم هو الذي استرسل:

- جته خيبة الباشا هو وهما في ساعة واحدة، دا عنب مزز
ويشرخ الزور! فينه من العنب الفيومي وللا بز العنزة، دي الحباية
منهم ما يعلاش عليها عند اللي يفهم!
وأشاح بيده:

- وبعدين إحنا فين وأوان العنب فين! لخبطونا الله يلخبط
كيانهم، ودخلوا أوان الشتا في أوان الصيف..
فقال ابن العم:

- بس الحق يابا هما شطار، والباشا كسب من وراهم كتير.
فرمقه العم:

- شطار!! شطار إيه يا خروف، مش هما دول اللي ضيعوا
عمك سنة ستة وخمسين.

فتبادلنا النظر، وعدل هو ظهره ثم رجع إليّ:

- أهلا يا ابني.

وبدا في الحديث، وأنا اکتفي بالإيماءات.

تکلم عن الزمن والصحة التي ولت والجدة والجد عبد الحميد،
والدنیا التي تسير بالمقلوب! فهام فلاحون من أرادل الناس كل ما
كانوا يملكونه عدة قراريط أو فداناً على أكثر تقدير، وإذا تصادف
والنقاء واحد منهم كان ينزل من فوق دابته مسرعاً ويخلي له
الطريق. أصبح أولادهم الآن قضاة وأطباء ومهندسين، ويظنون
أنفسهم أنداداً للبيوت الكبيرة، ولا يتورعون عن الترشح ضدهم في
الانتخابات أو طلب بناتهم للزواج!

ويصل لسانه إلى ليلي فيتكدر وجهه، رعاها ورباها مثل بناته
ثم ماذا؟! تعصى أمره، وتتزوج هلفوتاً لا يساوي شيئاً في سوق
الرجال.

يصمت بعدها ويدخل يده أسفل اللحاف، أشعر بها وهي تصل
إلى ركبته، وبأظافره التي تحك سمانة القدم. يلحظني فيتوقف
ويرمقني، فأبدو أمامه وكأنني منشغل بأمر آخر، أحني رأسي
وتعبت أصابعي في الزرار العلوي للقميص، تخرجه ثم تعيده.
يخرج يده هو الآخر ويريحها على صدره ويبدأ ثانية في الكلام عن
أحوال الزراعة، الطماطم والبازلاء والفاول وزرعة البصل التي
أكلها الدود، ولم يأت من ورائها لا أبيض ولا أسود هذا العام.

صوته يمضي على أذني واهناً خافتاً، وبرتم واحد ليس فيه
ذرة انفعال وبلا علو أو انخفاض. يجري على خط مستقيم، دون

تلعثم أو توقف أو أية مطبات. جسده منهك بالفعل غير أن عقله موزون، يخرج من موضوع ويدخل في آخر بلا خلط أو التباس. عبد الناصر والسادات وشركة المحارث والهندسة التي علت أسعار الجرارات، ومع كل هذه الثروة لم يتطرق بكلمة عن أرضي التي عنده، أو سأل عن أمي أو كيف كنت في سنوات البعاد.

طفق يتكلم حتى أنهكه الحديث، وأحسست كما لو أنه على مشارف نوبة إعياء. وتوقف فجأة وهو يزوغ ببصره، وحنة عرق تتسلل من حافة الطاوية وتنساب على جبينه مخلفة وراءها أثراً تلحظه العين، ثم مدد ساقيه وحبك اللحاف عليه حتى حافة ذقنه. لم يعد يبدو منه إلا تقاطيع وجهه، وعيناه اللتان يتعشاهما النعاس وتستحلفانني بالله أن أرحل الآن..

فنهضت مستأذناً، وهو يتبعني بعينيه إلى أن وارانى الباب.

* * *

(١٩)

أبدت ليلى دهشتها، عندما رجعت إليها فارغاً بلا أي جديد..
- عيَّان! وهو العيان فيه حيل علشان يتسامر معاك بييجي

ساعتين!

وبحنق:

- دا بيتصلب يا جلال..

ومضى يوم فأخر حتى دخلنا في أسبوع، دون أن يسأل عني
أحد من طرف العم، فرحت أنا إليه بايعاز من ليلى كي (أقطع عرق
وأسيح دم) مثلما يقال.

رحت عدة مرات، وفي كل مرة أدق فيها على الباب كان
ينقطع نفْس البيت. يبدو كما لو أنه مهجور، وكنت أقع في حيرة
وأتلفت حولي، وإذا رفعت بصري لأعلى ألمح خيالات تلوح
خطفاً وراء خصاص الشبايبك، وكان ألف عين ترمقني من أعلى

وتتفحصني بالتفصيل. وإذا طال بقائي بالباب وشعروا بتصميمي على الدخول، كانوا يدفعون إليّ بغلام من غلمانهم يرتدي صنذلاً وجلباباً بسفرة وعينه حولاء، لكنه والحق كان محنكاً ومتمرساً في اللف والدوران.

يلقاني عابساً، ويسألني عما أريد؟!!

ويتألمني بعينه السليمة، أما عينه المصابة فتلتبس عليّ، ولا أعرف إن كانت معي أم تتجه لشيء بعيد. لم آخذ منه حقاً ولا باطلاً، فبعد أن يدخلني إلى غرفة الجلوس، مرة يقول: إن العم نانم وليس في البيت سوى الحريم، ومرة إن عنده (الحكيم)، أو يأتي بحجة لا تخطر لي على بال.

أعض على شفتي، وأقول: إنني أريده في أمر هام..

- ما قلت لك يا أستاذ إن عنده الحكيم، عايز تدخل عليه وهو

قالع وبيكشفوا عليه!!!

- طيب أغيب ساعة وأرجع؟

- هيكون نام.

- أفضل قاعد؟

- أنت وشوقك، بس حلني بقى لما يطلع الحكيم.

فألعن خاشه وخاش أبيه في سري وأظل منتظراً، وهو على الكنبة التي أمامي ينخر بقشة في ضرسه الخلفي المثقوب، وعندما يصل بي الملل ذروته وأسأله أن يتصرف، يقترح عليّ العودة من حيث أتيت قبل أن يحل الظلام..

وفي المرة الأخيرة تصادف أن لقيت ابن العم سلطان واقفاً
بالباب ويجهزون له (ركوبة) يمتطيها، فأسرعت إليه وباغته بكفي
الممدودة للسلام. حاول إخفاء ضجره غير أن عينيه فضحتاه، ولما
سألته عن العم قال:

- هو ولا مؤاخذة كده بيحلق، يدوبك الحلاق لسه داخل له
وبعدها هيستحمى وأنا كتّ رايح مشوار زي ما انت شايف، إيه
قولك يا ابن عمي تتفضل انت بالسلامة دلوقتي وتشرفنا يوم ثاني؟
فرددت بحنق:

- لا ثاني ولا ثالث ولا خامس، أنا خلاص تعبت.
- تعبت!

وسبقني داخلا، وأنا وراءه إلى حيث الكنبة التي كان يجلسني
عليها غلامهم الرنل الأحول.

بقينا زهاء ربع الساعة بلا كلام، سوى:

- إزيك؟

- الحمد لله.

- بيتك ومطرحك.

- بارك الله فيك.

ابن العم ظلّه ثقيل، والذباية إياها التي كانت معنا المرة
السابقة، تطن حائرة حول زجاج شباك مقفول. كنت أتابعها وهي
تفشل للمرة الألف في تخطي الزجاج، وعندما أقبلت الخادمة بأقداح
الشاي نهرها ابن العم على التأخير، وأنها أخرته عن ميعاده مع

الحاج لملوم تاجر الفول.

لم يَخْفَ عليّ بالطبع أن الرسالة موجهة لي، وأيضاً لأهل البيت ليتخذوا اللازم إذا لم أفهم وتعشمت في خروج الحلاق، لكن على من؟! طفتت جالساً (وودن من طين وودن من عجين). وأسقط في يده، فلا أنا في نيتي مبارحة الكنبه التي أقعد عليها، ولا هو قادر على التصريح بتبرمه من وجودي. والوقت يمضي بطيناً كأنما أصابه الكساح، والذبابه المسكينه يزداد يأسها ويخفت طنينها من الإجهاد.

ويبدو أن أهل البيت الذين كانوا معنا على الخط فهموا المطلوب، فلم يتوانوا عن تقديم العون لابن العم، وهم في هذه الأمور لا يعدمون الحيلة، إذ برهه وأدخلوا علينا ولداً يقول:

- سعداوي أبو كف عايزك بره يا عم سلطان.

فأجابه وعيناه عليّ:

- خليه يستنى أنا جاي له على طول.

برهه ثانية وأتى قائلاً:

- الأنفار خلصت عزيق وعايزة تروّح.

ولما اشتد ضجرهم من كلاحتي شددوا الهجوم، إذ اقتحم علينا الغرفة أحد الخدم وهو يصيح وعلى وجهه غضب الله:

- الطور بتاعنا نطح واحد ماشي على السكة القبليه والراجل

بيفر فر، يلا يلا ياسي سلطان قبل ما نخشوا في سين وجيم.

فهب ابن العم واقفاً وينظر إليّ، ففهمت أنه استنفد معي كافة

الوسائل السلمية وعليّ أن أحترم نفسي وأدع المكان.

* * *

وبدأ حنفي يزداد وأشعر كما لو أنها حرب أعصاب تمارس معي، حتى أكلّ وأستجير وعندما ألقى العم أكون قد استويت فيفرضوا عليّ شروطهم..

غير أنه غاب عنهم أن هذا الذي يفعلونه معي جاء على عكس ما يضمرون، فلم يفتّ في عضدي بل زادني إصراراً، والأهم أنه حسم التردد الذي كنت فيه، فبعد أن كان موقفي مذبذباً ولا أعرف ما الذي أبدأ به مع العم، هل أعرض عليه أرضي كي يشتريها ولو بأقل من ثمنها وأرتاح، أم أطالبه بها ثم أتصرف فيها على النحو الذي أراه..

بعد أن فعلوا الذي فعلوه خليت من رأسي تماماً مسألة بيع الأرض للعم، وأصررت على أن أخذها من يده وبعدها لكل حادث حديث. وأحبيت أن أستشير أبا السعد أفندي، فهاتفته ليقول لي:

- هو ذا الصح، لأن طول ما الأرض في عبّ هياخذها بتراب الفلوس، خش عليه وثبّت في الأرض ولم عليه الناس.

- بس يمكن الحكاية دي تطول!

- تطول تطول انت وراك إيه.

- ومشروعي مع الليثي؟

- كله بأوانه يا جلال.

وسألني: إن كنت قد زرت قبر أبي؟

فسکت۔

* * *

(٢٠)

بدا الطريق إلى المقابر، غير الطريق القديم..

كانت شواهد القبور آنذاك لا ترى بالعين، إلا بعد أن نكون قد تركنا البيوت وأوغلنا في السير لمسافة، والزرع حولنا يتراعى حتى نهاية البصر، والطريق ذاته لئب تحت أقدامنا ونتهادى عليه. أنا في ذيل أمي وجدتي، وجدي أمامنا يركب دابته، والفلاحون يحيطون بنا على أكتافهم الفؤوس، وفي أيديهم أو معلقة على رقاب الدواب مخالٍ صغيرة تحوي السكر والشاي والدخان.

تبدل حال الطريق..

صار كنيباً غريباً ليس بكرأ أو ابناً للطبيعة، بعد أن جاس فيه بالرصف والتعبيد مقاولو وأنفار هذه الأيام. امتلأ بشروخ وفجوات لا ترحم، حتى اضطررنا أنا وأختي إلى المشي على حواف الغيطان التي بني عليها بعض الموسرين بيوتاً تخلو من الذوق، فلا

هي من الطوب النبيئ كبيوت الأجداد، ولا هي بيوت كالتى تشيد في
البنادر والمدن. شئ مختلف. لا طعم له. أخذ من هذه وتلك أكلح
وأرذل ما فيهما.

تركنا الطريق للجرارات، والدراجات الهوائية التي تحمل على
جوانبها أقساط اللبن، وعربات ذات صناديق خلفية محملة
بالخضار، ولأولاد يرتدون الهجين من الثياب، الچينز من أسفل
كأولاد العم سام ومن أعلى طواق وفانلات بأكامم، ويلهون بلا
احتشام أو يلقون بنكات بذينة ومقاطع من المسرحيات الهزلية التي
حفظوها من جهاز التلفاز.

ولا أعرف أين راحت أشجار الكافور العالية، التي كنت أتأمل
شواشيها وهي تدور وتلعب في السماء. ولا المصرف القديم حيث كان
صبية زمان يمدون أقدامهم في مياهه أو يسبحون، وقبل أن تنعس
الشمس وتولي وجهها للمغيب، يأتون بجلابيهم ويتحلقون حوله بأعواد
الغاب والصنانير.

جف المصرف وامتلاً قاعه بما ترميه فيه الريح عند هبوبها
من غبار وأشواك وأوراق شجر ميتة، فيما عدا بعض المواطن
التي تلقي فيها النسوة بمخلفات الغسيل وماء الحموم. فلا تزال
رطبة ويجرى حولها الماء في مسارات حتى تبتلعه الشقوق،
وبعضه راكد أسن له ريم يعج بفطر وطحالب خُصُر وذرات روث
منها ما تحلل أو تكلس، والمشهد كله لا يسر ويضربه العفن
والعطن. واتخذت الفئران والسحالي من المكان مساكن لها ترتع

فيها بلا رقيب. الفران خاصة كانت سيدة الموقف. كنت أراها وهي تعدو وراء بعضها البعض، أو تطل برؤوسها من الجحور وتصيء. ولا مانع من فأر خبير يغافل قطة تكمن له، ويمرق كالريح من وراء ذيلها المرفوع، ويروح يميناً ويساراً تأهباً للانقضاض.

* * *

تصادف أن كان اليوم الذي ذهبنا فيه يوم الجمعة، وهو ميعاد زيارة من قضاوا حديثاً.

أسراب من النسوة بجلابيب سود، تحف أذيالها بالأرض مثيرة الغبار. العجائز منهن ضمرت أبدانهن، وطمست التجاعيد ملامح وجوههن حتى تماثلت وبدونَ وكأنهن مستنسخات. سيقانهن العلية تجبرهن على المشي على مهل، ومن أصغر منهن سنّاً تبطئ مراعاة لهن وتسير على قدر خطواتهن.

العجائز وبحق كن عاقلات رزينات، لا يتكلمن إلا لضرورة، والأكثر مهابة على الطريق. أما الصبايا فنوات استدارات وأجسادهن عفية، ويحملن على رؤوسهن سلالا مغطاة بخرق قديمة، أو بشاكير تحوي القرص والمِئين والبلح الجاف.

قلة منهن صامتات، والباقيات لا يعنيهن الأمر كثيراً. يتغامزن أو واحدة تقرص الأخرى في فخذها، وتصدر عنهن فجأة ضحكات يعقبها سكون. ولما ينتاهى ضجيجهن إلى الكبار وتلتفت إليهن إحداهن، كن يسرعن الخطى بعيداً عن بعضهن البعض حافظاتٍ

توازنهن بلمسات خفيفة على السلال، وكل واحدة تثبت عينيها على الأرض مدعية الأدب والاحترام، ولسان حالها يقول إنها ليست كالأخريات اللاتي يحدثن الضجيج. والعجائز المحنكات لا ينطلي عليهن الأمر، يلسعنهن بالشتائم والتوبيخ، أو يُشحن في وجوههن بأعواد زرع يلتقطنها من الطريق.

وصاحبت الكلاب مسيرتنا، بعضها مفتون بما تحويه السلال وعازم على اقتفاء أثرها ولو حتى كانت ذاهبة إلى بلاد (واق الواق). وبعضها يمل من طول المسافة أو يتحسب لاقترابه من مناطق نفوذ كلاب أخرى، فيزوم بامتعاض ويتركنا متمدداً على الأرض، وعيناه ترمقاننا ونحن نبتعد.

* * *

كانت أختي مشغولة بي..

تتأبط ذراعي على غير عادة أهل الريف، وتدبر وجهها إليّ وكلاماً في كلام وأنا في شأن آخر. أعيرها أذني، وقلبي شارداً في ذلك اليوم البعيد، حيث كان جدي عبد الحميد يجلس فوق مقعد من الجريد..

أدنو منه، فيحيط كتفي بيده ويشير لي بإصبعه على قبر أبي. أما أمي وجدتي فكانتا تركنان بيدنيهما إلى جدار المقبره، وكلما زاد دعمهما تواري جدتي وجهها في طرحتها السوداء، وأمي تكفكف دعمها بمنديل تقبض عليه بيدها. وأنا يزوفني جلال الموقف وأشعر بالرهبة وأن شيئاً كبيراً يلفنا، وأرمق وجه أمي لعلي أفهم ووجه

جدي وجدتي، إلى أن تشغلني حصة لعينة اندست بين باطن قدمي
والحذاء، فأقعبت على التراب أخرجها وهم يستحثونني كي أسرع
فقد حان أوان الرجوع.

تلحظ النسوة حال أختي، وأنا الآخر الشخص النشاز الذي
يمضي بينهم بلباسه الإفرنجي. ينظرن إلينا بشغف أو تميل واحدة
على رفيقتها وتثقل في أذنها عنا بكلام، واللائي خلفنا كن يسرعن
الخطى ليتجاوزننا بالتفاتة سريعة غير أنها محنكة، ويجاهدن كي
يبدين أمامنا وكأنهن لا يقصدن تقصّي خبرنا وإنما هي مجرد نظرة
عين.

وأول ما أشرفنا على المقابر ازدادت المهمة، وسرت روح
جديدة في الجميع. ابتعدت العجائز عن بعضهن البعض، كل واحدة
تتلفت وراءها على بناتها، ومنهن من سبقها دمعها فتفتش في عبا
عن خرقة أو منديل، أو تمسح عينيها بذيل الطرحة التي على
رأسها.

ويبدأ النداء على الصبايا اللاتي بالخلف، منشغلات بالعبث
والثرثرة.

يلعو النداء أكثر وأكثر وعندما لا تحدث استجابة، تصاحبه
إشارات حانقة بالأيدي فتنتبه واحدة وتسرع إلى اليد التي تشير،
فالثانية والثالثة. يهرولن كلهن للحاق بالكبار، ولكن بحساب كي
تظل السلال على رؤوسهن ثابتة، ورغم ذلك تسقط منها أشياء،
فطيرة، قرصة، أو عدة بلحات. تتردد صاحبته بين أن تمضي في

السير، أو تميل لتلتقط ما سقط. يحسم أحد الكلاب المشكلة، يسرع بالتقاط ما وقع ويعدو به إلى قاع المصرف وفي ذيله رهط من الكلاب، ليبدأ بينها العراك.

نسمع صوت الصراخ والنواح فجأة..

تفعلها واحدة ووراءها الأخريات، واللاني يزداد انفعالهن يشحن بأيديهن إلى أعلى وأسفل، أو تعري إحداهن رأسها فتبدو على هيئة غريبة، شعرها المخفي يبين منكوشاً ويخطه بياض مخلوط بالحناء، ووجهها مصفر وكئيب.

الصبايا حناجرهن أكثر صحة، وتشعر بأن صراخهن أقرب إلى الجلجلة ويشق الهواء. أما الكبار فكن أكثر حنكة، فقدرتهن على التلوين والترجيع والبُحّة التي تسري في أصواتهن، تجعل نواحين أدق تعبيراً.

يختلط هذا بذاك ونحن نجوس بين القبور، ويبدو كلهن وكأنهن يبكين ميناً واحداً لا أمواتاً متفرقين.

* * *

أشعر بأختي وهي تجذب يدي، عيناى تتبعان أصابعها التي تشير إلى المقبرة التي يسكن بها أبى..

نسوة حولنا يهمسن بما يحفظنه من آيات وأدعية، ورضع في حجور أمهاتهم، منهم من تغفل عنه أمه فيحبو بعيداً، تنبهها رفيقه لها فتقوم إليه ضجرة وتقبض عليه من ساقيه وهو يعاند مستمراً في الحبو على يديه. وعجوز من عمر أم الكوز تقعى أمام المقبرة التي

بحدائنا، تحق فيّ مستغربة وجودي بين النسوة، أصمد لنظراتها
محدقا فيها أنا الآخر، فتستحي وتهبط بعينيها منشغلة عني.
ومقرئون على عجلة من أمرهم، يجلسون أمام كل مقبرة يتلون
(رُبعاً) بالكاد وأحياناً لا يكملون، وأعينهم على أي يد تشير.
وهلاقيت ممن اعتادوا الحضور في هذه الأيام يتابعون حركة
السلال، يمدون أيديهم أول ما يُرفع عنها الغطاء، وأنا أتوسد قالباً
من الطوب أمام قبر أبي وقبالتني مقرأ أنت به أختي.

كان ضئيلاً، عمامته أكبر ما فيه وعيناه بين الحين والحين
ترمقاني، وإذا التقت نظراتنا ينزل برأسه متشاغلاً بالتلاوة. كان
يتلو سورة (الرحمن)، يتلوها على عجل فلم أستطع متابعته، ولا
هو توقف عن التسلل بعينه تجاهي، وقبل أن يفرغ من تلاوة
السورة كاملة غافلنا قائلًا: "صدق الله العظيم".

قلبت كفي طالباً منه أن يكمل وزجرته أختي، غير أنه هب
واقفاً وهو يقسم لنا بالله العظيم إنه قرأها كاملة كما أنزلت، نحن
اللذان كنا غافلين!

فناولته ليلي ورقة مالية، إلا أنه ردها رافضاً وعيناه تدعوانني
أن أتدخل. أخرجت من حافظتي عدة ورقات فخطفها من يدي،
وكاد أن ينكفي على وجهه وهو يسرع نحو مقبرة يتلفت أهلوها
على أحد المقرئين.

وتأملت الشاهد الرخامي الذي يعلو المقبرة، عيناى ساهمتان
وقلبي صامت لا يفصح عما به من انفعال، شريط حياتي هو الذي

كان يدور. يدور بحلوه ومره ومشاهد منه تتقل عليّ وتمضي
بالبطيء، وأسأل نفسي: تترى لو لم يرحل قبل الأوان هذا الراقد
خلف الجدار، أكان حالي هو نفس الحال؟!

أم كنت أكملت دراستي وصرت طبيياً، وتزوجت من نادية
ولعلي كان لي منها الآن أبناء، ولم أرحل وراء أمي أو هي
تزوجت باليهودي يعقوب..

وتطوف أمامي أيام الصغر.. والأولاد وهم يسيرون صحبة
آبائهم، وجدي زكي وليس أبي الذي يوقع على الأوراق التي
تخصني. ومن يحنو عليّ فأحسبه مشفقاً، وراحة يد آه لو كان
صاحبها على ظهر الدنيا ومسح بها على جبيني، أو لفها حول
معصمي..

لا يعرف اليتيم إلا من جربه..

إحساس بالخواء، كأنك قطرة ماء تسربت فتشربتها الرمال.
نبته أخذتها الريح وألقت بها حيثما كان، لتطأها قدم أو يلعبها كلب
أو يتبول عليها عابر سبيل.

وتهفو نفسي إلى أمي التي هناك، بيني وبينها هي الأخرى بحر
كبير، وبلاد وراء بلاد، وحراس يقفون على الحدود..

* * *

أسأل أختي عن قبر جدي؟

تقول: إنه مسجى مع أبي.

وعن جدتي؟

تشير إلى نفس المقبرة، وتقول: إنه يفصل بينها وبين ولدها
وزوجها من الداخل جدار.

ونقوم راجعين مع نسوة ممن أتين معنا، ونسوة أخريات لا
يزلن جالسات على الأرض يتكلمن، أو من توبخ ابنها الصغير
الذي فعلها هكذا بلا حياء أمام القبور. والتي تفصل المقرئ في
(المعلوم) وهو ضجر، نثار ريقه يخرج من فمه، ويلوح بيده ويقسم
بالمصحف الشريف: بأنه يعرفها هي وأمثالها اللائي يستحلن عرق
الغلبان، ويعيد القسم مؤكداً على أنه لن يتزحزح من موضعه، إلا
بعد أن تملأ كيسه بالقرص وتمنحه جنبيهين.

ولا ألحظ على النسوة حزناً أو آثار بكاء، تفتت الدفقة والحامسة
التي صاحبت قدمهن، ويبدأن في لملمة أشيائهن للرحيل.

نصل إلى أول الطريق فأرى عربات كارو تصطف وراء
بعضها البعض، وأصحابها الذين كانوا يتمددون في ظلها هبوا
واقفين. تقبل نسوة ويمتطين أسطح العربات، ونسوة تستحي وتؤثر
السير على الأقدام، وأخريات يتجهن نحو دواب تقف خصيصاً
لهن، وألحظ الصبايا وقد سبقنا بمسافة ويتغنين بأغنية جماعية
خلف واحدة منهن صوتها عذب وله إيقاع.

وتخف الحركة بالتدريج، فهما ساعتان فقط وينتهي كل شيء
ولا يقترب أحد بعدها من هذا المكان.

* * *

(٢١)

على غير توقع، طبَّ على بيت أختي مرسال يدعوني للقاء
العم..

كنت مستلقياً، وفوجئت بليلي تلج الباب مسرعة وتنبئني
بالخبر. وأسرعت إلى الدولاب تخرج لي ملابسي، ولسانها لا يكف
عن إساءة النصيح، وأن أقول للعم كذا إذا قال كذا، أما إن حاور
وداور فالرد هو كذا وكذا. وتتأملني ثم خطوة إلى الورااء محدقة في
هيئتي وهيكلتي، كأنما أنا موظف في الدرك الأسفل من السلم
الإداري، وافته الفرصة للقاء أحد مسئوليه الكبار يرجوه في شيء
أو يتوسل له كي يدفع عنه أذى..

وخرجت، وهي تتبعني بعينيها من النافذة..

* * *

الوقت ليس نهاراً، والليل لم يأت بعد..

رحل النهار تاركاً بقاياها تتسكع عند المفارق وفوق البيوت،
والليل لا يزال في الأفق غير أن الطريق أمامه سهل وفرقة كعب
ويصل، فقد كنا في آخر الشهر العربي ولا بادرة تنبئ بطلوع
القمر.

أذان المغرب رُفع قبل قليل، والشوارع تخلو من الدواب
والبشر، اللهم إلا إوزة تخلفت وتتحسس الطريق، ورجل عجول
على باب زاوية يخطو مسرعاً بعد أن فرغ من الصلاة قبل الجميع،
وسحلية في حجم الإصبع تهبط فوق جدار وفي لمح البصر تتوارى
في كومة حطب، وهمس وحركة رهيفة تأتي من وراء النوافذ
والأبواب المواربة..

الدنيا أكثر طيبة ووداعة الآن، وابن عم آخر اسمه فريد يقف
بالباب، وأنا أحمد الله على أنني لم ألق هذه المرة أخاه سلطان، ولا
الملعون صاحب العين الحولاء.

التفاني مرحباً وصعد بي إلى الدور الثالث الذي يسكن فيه،
حيث العم عنده الآن بغرفة الجلوس.

الغرفة ليس بها شيء يجذب النظر سوى العم، ولوحة من
ورق الحائط تغطي مساحة لا بأس بها على أحد الجدران. بدت
كأرض خضراء منبسطة حتى الأفق وجمع من الخراف ناصع
البياض يقات، وفي الصدارة اثنان من الفلاحين الخواجات بالچينز
والقبعات، أحدهما ساقه مثنية والآخر بيده سوط ويشير إلى شيء
بعيد.

شدتني اللوحة غير أنني خليت بصري عنها، أول ما شعرت
بعيني العم تلاحقان ما أفعل. كان في مواجهتي ضئيلاً أهلكه
المرض، وبانت علاماته على جسده الذي كان مستوراً باللحاف
يوم أن زرته. بدا خالياً من الدهن والعضل، ولا يشغل حيزاً يذكر
على الأريكة التي يجلس عليها.

قال بصوت خافت، أول ما رmq كل منا الآخر:

- عجاك؟

وأشار إلى فريد:

- أصله بيحب الصور والتعليق، والمغنى والمزيكا وكل

الهجص اللي داير في مصر!

وبنبرة هازنة:

- دا غير الكمنجة اللي عنده جوه، وبيقعد يلعب عليها طول

الليل!

احتويت فريد بعيني فبادلني النظر ممتناً، وسألته إن كان قد

أكمل دراسته، فقال: إنه خريج الكونسرفتوار.

وقال العم:

- ولما خلص وخذ الشهادة قلنا الحمد لله ارتحنا من الكمنجة

والعود، يقوم بسلامته يشتغل لي منشد وكل يوم ورا مغنواتي

شكل!

يبدو أن فريد كان معتاداً على طباع أبيه في الكلام فلم يبد عليه

أي حرج، وأفهمني وهو بيتسم بأنه عضو في كورال فرقة

الموسيقى العربية، وأخرج العم قدمه اليسرى من المداس وأراحها على السجادة.

الأصابع عليها آثار دهان بلون أسود، ويبدو أنها كانت تأكله إذ حكها بضجر ولعدة مرات في نسيج السجادة، ثم كلمة من الشرق وأخرى من الغرب حتى دخل في الموضوع:

- طلباتك يا ابني؟

لم أحضر إلا لهذا الغرض، ورغم ذلك ارتبكت وبدوت أمامه بل وأمام نفسي وكأني فوجئت بالسؤال. لم يسعفني ارتباكي بكلمة أمهد بها للحديث، دخلت مباشرة في صلب الموضوع:

- الأرض اللي ليّه؟

- أيوه أنا عارف انك جاي علشان الأرض، إنما إيه اللي انت

عايزه من الأرض؟

فسكت..

- بص يا ابني إحنا لو مسكنا الورق هنلاقي إن لك في ذمتنا

حسبة ست وللا سبع فدادين، الشرع بيقول كده وإحنا وراه بنقول

أمين..

وأسند ذقنه على قبضة يده:

- لكن هتعمل إيه بالأرض؟!!

فحرت ثانية في الإجابة، وتمتمت: هعمل بيها إيه!

ونظرت إلى فريد، والعم يرمقني ثم يقول:

- أيوه هتعمل بيها إيه؟! يعني بالعربي كده إيه اللي جواك من

ناحيته؟

وشرع فريد في الكلام، غير أنه أشاح له قائلاً:
- خليك انت في حالك، وبالمرة كده قوم شوف لنا الشاي اتأخر
كده ليه.

* * *

واختلى بي العم معاوداً طرح السؤال، فقلت:
- شيء يخصني وعائزه! أمانة وجاي أخذها!
فهبط برأسه مدعياً الانشغال بإعادة قدمه إلى جوف المداس،
وهو يكلم نفسه بصوت كالتمتمة:

- أمانة! أمانة إيه إن شاء الله!

ثم رمقني وهو يحك شحمة أذنه بظفره:

- والأمانة دي إيه اللي في خاطرك من ناحيتها، عايز تبيعها،

وللا تزرعها وللا تأجرها؟!!

وعاد ابن العم يحمل صينية الشاي ووراءه رضيع يجبو على
أربع، حبا عدة حبوات وتوقف. أفلتت فردة (اللكلوك) من قدمه
فألقى على مؤخرته يحاول ارتدائها غير أنه فشل، فضربها بكف
يده وتركها ماضياً في إثر ابن العم، الذي مال علينا ممسكاً بيراد
الشاي يصب منه في الأقداح.

أقبض على القدح وعيناى تنالان من العم، يقبض على قدحه
هو الآخر ويميل برأسه تجاهي فتلتقي أعيناى، فيسارع كل منا
بالذهاب في اتجاه. أكبح عينيّ ولا فائدة. تروح إليه. ألحظ عينيّه

وهما تناوران لاصطيادي. تمران بطيناً على ما يدور أمامهما
وتأتيان إليّ. أكون في الانتظار فتوليان بعيداً. والرضيع لا يهدأ،
يشد جلباب أبيه مرة بعد مرة فينهره، يمتثل ويعاود الحبو بطول
الغرفة جيئةً وذهاباً، وضحكات عالية تصدر عنه بغير سبب.

أشار العم إلى فريد بأن يحمله بعيداً، فأحس الرضيع وحاول
الإفلات غير أن أباه تمكن منه، وهو يصيح فوق كتفه ويشير إلى
فردة (اللكلوك) المنقاة على الأرض.

وبعد أن خرجا، أمسك بي العم:

- متأخذنيش يا ابني في السؤلات بتاعتي، أصل مش معقول
واحد غريب يطب علينا كده على غفلة ويقول إدوني أرضي،
ومقعدش أسأل وأستفهم وأتقصى.

أثارتني كلمة (غريب) وأبديت له دهشتي منها، غير أنه لم
يحفل وقاطعني قائلاً:

- خلينا في المهم واسمع مني المفيد، إن كنت يا ابن الحلال
ناوي تزرع وتقلع معنا أهلاً وسهلاً بيك، ومن الصبح أجيب لك
القياس وتعرف إيه اللي ليك وأفرز هوك على جنب.
وبإصبع السبابة:

- بس يا بطل علشان أعمل كده لازم في الأول تنفض الهدوم
دي اللي عليك، وتعيش عيشتنا أكل شارب نايم زيك زينا.
ويروح عني بعينيه مكلماً نفسه:

- معلوم تقعد معنا، أمال هتخلي بالك من حاجتك إزاي!

ويعود إليّ:

- وتشتري لك بهيمة ولا اتنين وحتة بيت كده على قدك، يعني

بالمختصر المفيد تفلح في الأرض، إيه قولك؟

ويتأمل وجهي ثم يردف:

- والسبت بتاعتك مش معقول هتسيبك لوحك، أهو تيجي تانس

وتنور، تعجن وتخبز وتقعّد قدام الكوانين زيها زي حريمانا.

تمالكت نفسي وقلت:

- وإن كان مش عاجبني ولا حرف واحد من الكلام اللي

حضرتك بتقوله يا عمي!

- عداك العيب، يبقى عايز تببيع؟ أصل مش معقول عايز

تأجر! إيجار بإيجار إحنا أولى من الغريب، وللا يكون في خاطرك

تبورّ الأرض؟! وده ميرضيش ربنا، أرض عفية تنساب كده

ومحدش يستنفع بيها!

* * *

ورجع فريد..

حاول أن يعرف ما دار في غيابه، غير أن العم أشار له بأن

يغلق فمه، وقال لي بنبرة لينة:

- متقولي على اللي في ضميرك وأنا أريحك.

لم أبال بكلام العم، درت بوجهي نحو فريد أعيد عليه الكلام

الذي جرى، فساساً بفمه ثم قال:

- إيه الكلام ده يابا!

فانتفض العم بنصفه العلوي خارجاً من الأريكة ويشير بيده نحو فريد، وبصوت مستهزئ ورنه خنفاء أعاد عليه الذي قاله: "إيه الكلام ده يابا!!"، وأنا أهدق في تقاطيع وجهه. جبينه الذي تعرج، عيناه اللتان أغمضتا إلا قليلاً، وأنفه الذي تدلى مُخرجاً كل هذه الخنافة. وتوتر الجو، وبدا الغضب على وجه فريد:

- فيه إيه يابا! هو اللي يقول الحق يبقى دا جزاته! أرضه يابا أرضه! يزرعها يبورها يولع فيها، يعمل اللي يعمله!

- بتقول إيه يا مزيكاتي يا بتاع آه يا ليل يا عين! انت تشوف لك طبله تطبل عليها، زمارة تزممر بيها، آدي اللي انت فالح فيه إنما لحد الكلام الثقيل...

وفعلها قبل أن يكمل عبارته..

أصابه شيء أسكته مرة واحدة، فأسرعنا إليه..

أنفاسه تخرج متقطعة، ورعشة بأصابع يده التي تشير لفريد بأن يسرع إليه بالحبة التي توضع أسفل اللسان، فأسرع خارجاً وشرعت أنا في الاقتراب منه فأشار لي براحة كفه بأن ألزم مكاني!

ثوان ورجع فريد ووراءه امرأة كما الفيل، أظنها زوجة عمي. ناولته حبة الدواء وأنا في حيرة من أمري، هل هو مريض بالفعل، أم (يتصلب) مثلما تقول ليلى!؟

صاحت فينا زوجة عمي:

- بالراحة! بالراحة يا أستاذ جلال على عمك! وانت يا فريد

إخص عليك انت عايز تفرفر أبوك؟!!

وتكومت على الأرض، تدلك ساق العم من كاجل الرجل حتى مفصل الركبة.

الساق عجفاء، لا طراوة تجري فيها ولا دماء ولا أي شيء يريح النظر. جلد على عظم على آثار خراج ببطن الساق، وهي تقرأ الصمدية والمعوذتين وتستعيذ بالله من إبليس اللعين، ومن الظلمة المجرمين وكل من يتجرأ على عمه ويؤذيه!

وهكذا على مدار ربع الساعة إلى أن فتح العم عينيه وتأملنا بدهشة، كأنما كان نائماً واستيقظ ليُفاجأ بنا إلى جواره. وبعد أن اعتدل في جلسته، أشار إلى امرأته أن تذهب الآن وتدعنا معه، فترددت لحظة ثم أذعنت خارجة وهي تعاود الصياح:

- على مهلكم يا ناس! على مهلكم الراجل مش حمل كده! انتو

عايزين تودروه!

ومضت برهة والعم يسبل عينيه تارة ويفتحهما تارة أخرى، وفريد قلق ويشعر كما لو أنه تسبب فيما حدث لأبيه فلزم الصمت.

* * *

(٢٢)

وبدأت الجولة الأخيرة..

رمقني العم بكآبة وقال:

- اسلك معايا الله يخليك، وقبل ما ناخذو وندو في الكلام
عايزك تفتن لحاجة مهمة، هي إن اللي يفرط في أرضه ميتعدش
من الرجالة، ويتعاير بكده زيه زي اللي يفرط في عرضه وشرفه.
فقلت، وأنا أصطنع بسمة توازر كلامي:

- وإيه دخل العرض والشرف في كلامنا يا عمي؟!!

- لك حق تقول كده، ما هو انت أفندي لا عارف طبعنا ولا إيه

اللي يفرحنا، أو ينكد علينا ويخلي رقبتنا قد السمسة.

ثم يرقق من نبرته:

- إسمع يا ابني، أرضنا كلها، ومن أولها لآخرها، سوا اللي

معايا ولا اللي انت بتقول عليها بتاعتي، هي أرض المنشاوي

الكبير.

ويتلاعب بنبرة صوته:

- من زمن وهي في حضننا، عندنا أجرة بتزرع وتقلع
ومحرات وانتين بيمرحوا فيها، وكل موسم تتبدر تجار رايعين
جايين على المحصول، وبناكل ونشرب منها ونفرد قلعنا على
الخلق ونلبس الوبر والكشمير، يعني بالمختصر المفيد هي شرفنا
وعزوتنا قدام الناس، ولما انت تشد منها حة وغيرك يشد حة
الأرض هتروح من أيدينا، وشوية شوية هنبقى أجرة زينا زي
باقي المخاليق.

ويدنو مني برأسه قائلاً:

- ترضالنا بكده!

ويسكت وعينه تفتشان في وجهي عن ردة فعل لما يقول،
فيجدي ساكناً محققاً، ولعله ظن أنه على الطريق الصحيح وأني
أكاد ألين، فيرخي قسمات وجهه مكماً:

- وأنا مش هظلمك، هريحك على الآخر، زيك زي أختك، انت
يرضيك إني كت أسلم الأرض للبت الخاوية دي، علشان جوزها
المايح ده أبو بنطلون وحزام بيرك على أرض المنشاوية عيني
عينك وقدامي!!

وبيمناه التي تشوح في وجهي:

- والله ما تحصل أبداً! دي كانت تروح فيها رقاب.

- يا عمي دا شرع ربنا!

- لا إله إلا الله! وهو حد قال كلمة في شرع ربنا، هو أنا لا
سمح الله نكرت حقها، وللا قلت محدش له عندي حاجة.

وبكف يده يمنعني من المقاطعة:

- هتزرع بإيدك وعرقك خد أرضك، هتأجر إحنا أولى، وأدي

كل اللي ليك عندنا.

- يعني مقدرشي أتصرف فيها؟! مقدرش أتصرف في حقي؟!!

- حقك!! ويا بتاع المدارس ياللي بتقول حقي، الأرض هي

كمان لها حق عليك.

لم أعلق، تركته يفرغ كل ما عنده.

- أيوه لها حق عليك، انك متبدهاش! متفرطش فيها لفلان

وللا علان علشان يكابدونا بيها، وينزل فيها فاس وللا محرات

غريب، عايز تفرط فرط لأقرب واحد لك.

فسأسأت بفي..

- بتسأسأ ليه! وهو انت جبتها من عرق جبينك يا سي جلال،

علشان تسأسأ كده وللا تتصرف فيها زي ما انت عايز؟! دي في

الأول وللا الآخر أرض المنشاوية!

- والمنشاوية دول مين! مش أبويا وجدي! مش أنا راخر

منشاوي زيي زيكم!

- منشاوي! دا انت يدوبك منشاوي بالاسم، لا حالك حالنا ولا

عوايدك عوايدنا، لا شاركتنا في فرح ولا دفنت معانا ميت ولا

وقفنا معانا في انتخابات أو حتى قعدت معانا في دَوَّار، وبعدين

جاي مشمر هدومك وعايز تاخذ الأرض وتجري! يا صلاة النبي!
واشتدت حميته:

- تعالى هنا قولي انت جيت البلد هنا كام مرة؟! ومين اللي
يعرفك فيها؟! وجيت لوحك كده على بيت عمك وللا حد ذلك
عليه؟! دا ابني سلطان الله يكرمه قالي: انكم مكتوش عارفين
بعض! وبلاش سلطان، أختك ليلي انت عمرك سألت عليها وللا
بعث لها مرة جواب من بلاد بره؟! ولا إحنا كنا نعرفوك سكة
علشان ناخدو رأيك في جوازها؟!!

ويعود بمنكبيه إلى ظهر الأريكة:

- طب وياللي بنقول أنا منشاوي زيي زيكم! تعرف إن لك
قريب اسمه مرزوق، لقيوه مضروب عيارين على السكة من بيحي
شهرين واخواته عايزين ياخدوا بتاره، وأنا عمّال أهدي فيهم
وأشوف هنطلعوا من المغرز ده إزاي؟! وللا ياسين! أهو قريبك
هو راخر، تعرف جنابك إنه غرق وقعدنا تلت تيام على حرف
الترعة لما قَبَّ على وش المية!

وبحدة تستنفر:

- انت تعرف إيه عننا، وللا عن الأرض دي اللي انت بتتكلم
عليها؟! هي فين؟ في أي حوض؟ ومزروعة إيه؟ وجاي لنا
حضرتك بالبدلة والنضارة وحاطط لي ريحة، وبنقول سلمولي
أرضي أتصرف فيها كيف ما بدالي؟! يا أخي دا إيه ده!

ويتأمل وجهي مسدداً آخر أسهمه:

- الأرض دي يا ابن أخويا مش أردب قمح وللا قنطار قطن
تبيع وتشتري فيه، دي زي النفس الواحد يفضل متبّت فيه لحد ما
روحه تطلع. اتولدنا وكبرنا عليها وعلى خيرها، وأنا لما بروح
الغيط وأنا في السن دي مبيرحش من خيالي لما كتّ عيل صغير
ماشى في ديل أبويا، وهو بيشاور هنا وهناك على اللي بيديروا
التقاوي وللا اللي نازلين عزيق وللا اللي شايلين المحصول
وخارجين بيه على ظهر الحمير، وتلاقيه هو كمان كان بيفتكر
نفسه لما كان بيمشي في ضل أبوه وجده وهما رايعين جابين
عليها. إصحى إصحى يا جلال، وإن مكنتش يا ابني قادر تصون
أرض المنشاوية، سيبها لأقرب الناس لك وهما يصونوها.

* * *

كنا ندور في حلقة مفرغة، وعم (رجله والقبر) يمك بتلابيبي
بيد من حديد..

هيكله كهيكل العظم وقد يضيع في لحظة انفعال، ومع ذلك
الأرض الأرض حتى آخر نفس. الأمر كما أفهمه مجرد مال
ومصلحة أحققها من وراء بيع الأرض، أما بالنسبة له فهي الحياة
والشرف والعرض. صحيح أنه طماع ويريد (التكويش) على كل
ما تركه الجد عبد الحميد، لكن هل كل المبررات التي يسوقها لي
الآن تنبع من جذوة طمعه هذه، أم فيها شيء من الحقيقة؟

ليس الحقيقة في جوهرها، وإنما الحقيقة التي تخصه هو..

هل يزود بالفعل عما يظنه صحيحاً، أم أن المسألة طمع في

طمع؟!!

سؤال لا إجابة عنه إلا إذا سبرت أغوار نفسه، تدليت إليها وعلى عيني نظارة مكبرة وببيدي منكاش وباليد الأخرى مصباح مما يُستخدم في أعماق الماء المظلم البهيم. وحتى لو فعلت ذلك، من هذا الذي يقدر على البحث في صدر هذا العم الواعر الكهين، الذي يذهب بك إلى حافة الماء ويعود بك ظمآن..

عم في السبعين ولا يفهم إلا الذي يقوله، ولا يبتعد قيد أنملة عن ابتلاع أرضي، وأنا أمامه كالكسيح سواءً بسواء. دنيا غريبة عليّ، ولا سند لي إلا أخت ليس في مقدورها إلا الكلام، وزوج أخت هو والعدم سواء.

هل كنت أثور عليه؟

كان سوف يتهمني بقلة الحياء، ويطرمني من البيت. أتماشى معه وأقبل بالفتات مثلما فعلت ليلي وعماتي؟ وهل أقبل أن تنكسر إرادتي، ويؤخذ مني حقي غصباً. ضاقت بي السبل وأصابني الإعياء من هذا الجدل الممض، فقلت بيأس:

- هات من الآخر يا عمي؟

- عليك نور من الآخر، زراعة مش هتزرع؟ صح؟

- صح.

- إيجار، هتأجر لنا مش للغريب؟ صح؟

- وماجرش للغريب ليه؟

- علشان مش هتقدر، لأن مفيش حد يستجري يهوّب من الأرض إلا برضايا، وإلا تنكسر رجله ويندفن هو وفاسه ومحراته على راس الغيط.

- والحل؟

- يبقى عايز تتبيع؟

- افرض.

- تتبيع لنا؟

- وبرضه للغريب لأه.

- ولا بني آدم فيكي يا منصورية يقدر يقرب ويقول أشترى.

- ولو حبيت أبيعها تشتريها بكام؟

- الفدان بعشر تلاف، وأنا مقدرتي أشترى في السنة فدان

واحد، يعني السبع فدادين على سبع سنين.

- بس يا عمي أنا سمعت إن سعر الفدان ثلاثين ألف.

- اللي بقولك عليه ده هو سعر البيع والشراء، وكلام ليلى

وجوزها أبو بنطلون محزّق ميدخلش في ذمتي بمليم.

- وإن موافقتش على الكلام ده؟

- توافق متوافقش، إعمل اللي يريحك.

- وإن مرضنتش أبيع من أصله وعايز أرضى؟

- يبقى تاخذ الواجب بتاعك وطريق السلامة مطرح ما انت

رايح، وكل سنة يجيلك إيجارك.

- دا آخر كلام يا عمي؟

- عن إنذك أنا داخل أنام.

* * *

وعندما رجعت إلى ليلى، وضعت يدها على خدها.
قلت:

- مفيش غير المحكمة.

فرفعت رأسها إليّ، وقال زوجها:

- وحتى لو خدت حكم مش هتعرف تنفذه، وإن قدرت تنفذ لا

هتعرف تببيع ولا تأجر لغيرهم.

فكَبَّبت ليلى في وجهه قائلة:

- اسكت! اسكت! حط لسانك جوه بقك وملكش دعوة، وانت يا

أخويا على المحكمة دغري.

* * *

(٢٣)

في مكالمة سريعة أبلغني أبو السعد أفندي بأن الأستاذ فؤاد
زوج نادية في حال خطر، وأنهم نقلوه إلى المستشفى العسكري
بكوبري القبة.

فقلت بصوت خافت:

- الأستاذ فؤاد..

- وف غيبوبة، ربنا يستر..

لبثت ساهماً بعدها، والأستاذ فؤاد يلوح أمامي عندما التقينا
بدكان عم زغلول البقال. السماحة تغمر وجهه، والوداعة تبدو في
نظرات عينيه. واعتراني الأسى. أشفقت عليه. فهو لا يستحق الألم
أو لبدنه طاقة على مكابدة المرض، ورغم ذلك خيلني خاطر يحجب
لي ما وقع وأنه ربما يلحق بي الخير من جرائه، فقد يذهب الأستاذ
فؤاد ويخلو أمامي الطريق..

خاطر أَلح عليّ، وأنا أقصيه..

أقصيه والخزي يملؤني، وأسأل نفسي من أين جاء!

خاطر خُلِق بمعزل عني، نفتته مضغة في القلب..

مضغة صحيح أنها مني، وصحيح أنها باحت بما ظنته

يرضيني، غير أنني لم أشاركها أو أسايرها، بل وحتى لم أستشر..

فلها ذات تخصصها، لا سلطان لي عليها، أو أملك لها زمماً

يحول بينها وبين البوح..

خاطر جاء وراح مخلفاً كآبة على الكآبة التي كنت بها، فقد

كنت قادماً للتوّ من عند العم إبراهيم ويغمرني إحساس بأنني لست

ابناً بين أهل، أو حتى صاحب حق بين كرام وأصحاب فضل، وما

أنا إلا امرؤ له خبيئة بأيدي لئام (وأولاد حنت). وأردت الرجوع

ثانية إلى القاهرة، إلا أنني أثرت التريث ليوم أو يومين للقاء العم

إمام خادم جدي عبد الحميد وتابعه الأمين.

ذكرياتي في الصغر تحمل له الكثير، فهو أول من علمني

مفردات الريف..

هذه حبة قمح وهذا عود برسيم، والتي غسلها الآن ويحملها لي

بحفنة يده ثمار توت أو حبة جَميز. ولم ينقطع عن زيارتنا بشقة

الظاهر، إما لتسليمتنا (الشهرية) التي التزم بها العم تنفيذاً لوصية

الجد، أو يكون بالقاهرة لغرض آخر فيمر علينا للسلام.

كان خفيف الروح لا تهدأ حركته، لم أسأله مرة شيئاً إلا قال:

حاضر ياسي جلال، على عيني وراسي يا ابن الناس الطيبين. أما

هو وجدي فتلازما صباح مساء، وكان يفعل له الشيء حتى قبل أن يفكر فيه، وإذا تصادف مرة ورأيت الجد يجلس وحده، تثور دهشتي وأقول: فأين إذا العم إمام!

* * *

أخذني زوج أختي من حارة إلى مصرف إلى زقاق، حتى وصلنا إليه.

حال البيت أشبه بحال رجل مسكين..

الجدران بطوب نبيئ باش بعضه بفعل المطر، وبقر القيظ وندى الفجر بعضه الآخر، مخلفاً فجوات عميقة يمكن لدجاجة أن تلبد فيها، وفي حضانها ثلاثة كتناكيت.

والسقف بأفلاق نخيل وسيقان شجر غير متساوية، فمنها ما يبرز بروزاً ملحوظاً عن حافة البناء ومنها ما يصل إلى الحافة بالكاد. وأكوام حطب ناشف وأقراص (جلة) جافة رُصَّت بعناية، ومساحة لما لم يجف منها ولا يزال بلون وطراوة الروث. وثمة نخلة بانسة تقوست ساقها على نحو ملفت، وتدلت من سَعفها المتهدل ثمار بلح جفت قبل أن تنضج.

المكان في هذه البقعة القصية التي يقطنها العم إمام وساكنو الدور التي حوله، تؤكد بأن الزمن لم يمض من هنا. كأني أشاهد منظراً خلا من ألف عام، فلولا سيارة ألمحها من موضعي تجري على الطريق البعيد وإيريال للتليفزيون يلوح هناك، لما قلت إننا على مشارف القرن الحادي والعشرين، وأننا وأهل هذه الدُّور أبناء

نفس الزمن.

يطرق زوج أختي على البوابة، فنشعر بيد ترفع (السقاطة) من الداخل، ورجل على رأسه عمامة يطل علينا من فتحتها المواربة. يلقانا ببشر وتصافحنا يده.

يقول لي زوج أختي: إنه الشيخ مسعود ابن العم إمام، اكتفي بإعدادية الأزهر ونصّب نفسه شيخاً لأحد الكتاتيب.

ويشير بإصبعه إلى بناية بالطين على مرمى حجر، فأفهم أنه الكتاب الذي يتكلم عنه، ثم يشير إليّ معرفاً إياه من أكون فتزداد بشاشة الشيخ مسعود ويخلي يده عن البوابة، لتعود إلى الورااء مصحوبة بصريير ويبدو البيت من الداخل مكشوفاً.

يلتفت مسعود إلى الخلف قبل أن يدعونا إلى الدخول ويسعل عدة سعلات تحذيرية، فيطفو شعاع عيني إلى حيث تتجه رأسه، فألمح نسوة تتحلقن بطست غسل. يفهمن الإشارة وينفضن أيديهن على عجل من الماء ورغوة الصابون، ويهرولن بأقدامهن الحافية متواريات عن الأنظار.

العتبة متهالكة، والمدخل تليه وسعاية تتوسطها ظلمبة ماء، أمامها حوض بجواره مواعين بعضها مقلوب على حافته. وفرن على قبته عدة مقاطف تعلق بعضها البعض، وفأس وبعض الكراكيب. وجاموسة ترقد بأحد الأركان، رمقتنا بعينيها الواسعتين ثم هبطت برأسها تلوك أعواداً ملقاة أمامها. وجمع من الإوز والدجاج يرفع أعناقه صوبنا. لا يطيل. يعود إلى ما كان فيه. الكلب

هو من لم يرتح لقدمنا. ملأ نباحه الآفاق، بل حاول التهجم عليّ أنا بالذات فشخط فيه مسعود. لم يرتدع إلا بعد أن ركله ركلة أخرسته، وأقعته بعيداً يرمق سيده بحنق منكرأ بطشه به هكذا مجاملة للغرباء، ولعله أيضاً يعيد حساباته في مسألة حراسته للبيت.

* * *

في نهاية الوسعاية (مندرة) على اليمين دلفنا من بابها، ومسعود يسبقنا بصوت أقرب للتهليل:

- دستور.. دستور يابا دستور.. معايا ضيوف جايين يشقوا عليك.

كان ممدداً على فرشاة بأخر (المندره)، وكنبتان كل واحدة منهما لها مسند يرتكن إلى الحائط، وعليها حاشية يعلوها حرام. ولا شيء بعد ذلك، سوى الحصيرة التي نطوها بأقدامنا.

وعلى الجدار آية قرآنية محفوظة في برواز، بذائها نتيجة ورقية من النوع الرخيص، لا تزال تشير إلى يوم سبق قدومنا بشهرين. وبمنتصف الجدار المقابل صورة لعبد الناصر بالملابس العسكرية، وعلى كتفه رتبة البكباشي. الصورة إياها التي انتشرت أول الثورة وملأت دواوين الحكومة، وحتى المقاهي ومحلات عصير القصب والفول. وقد نزعت على ما يبدو من إحدى المجلات القديمة، وثبتت من أطرافها بالعجين. وعندما فتح مسعود شيش النافذة حتى آخره، اقتحمتنا أشعة الشمس مضيئة المكان، وبدا العم إمام كآدمي آتٍ من زمن قديم.

سنده مسعود حتى أجلسه على إحدى الكنبتين، وهو لا يزال جاهلاً من نكون..

وأشار لنا أن نجلس على الكنبه الأخرى وعاد هو إلى أبيه، أراح ظهره إلى المسند وساعده في تدلية ساقيه. كانتا عاريتين حتى السمانه، شديدتي النحول، وفردة شبشب مكفيه على وجهها، والفردة الثانية معلقة بطرف إصبعه. لحظة وهوت هي الأخرى إلى جوار أختها، كما لم أتبين عينيه جيداً إلا بعد أن دققت النظر في وجهه، كانتا وبحسب تقديري لا تريان أبعد من كف يده.

يقول له مسعود، وهو يشير إلى زوج أختي:

- محمود أفندي بتاع الجمعية الزراعية.

فيومئى له العم إمام بأنه يعرفه، ولما جاء الدور عليّ رفع مسعود صوته قليلاً:

- جلال أفندي ابن المرحوم محمود.

يتأمل العم إمام وجهي ثم يميل برأسه نحو مسعود، فيفهم أنه لم يسمع بعد ويعاود بصوت أقرب للصياح:

- جلال أفندي بتاع مصر، جلال أفندي! جلال أفندي!

لم يسفر صياحه عن أية نتيجة فاضطر للإعادة، دون أن ينتبه إلى أن أباه ليس معه وإنما معي، يميل برأسه نحوي محققاً والصمت يستغرقه. بدا كمن يفتش عني في قاع سحيق من مخزون ذكرياته، ومسعود لا يزال مشغولاً بتكرار النداء، ولما ضجر اعتذر لي قائلاً:

- لا مؤاخذه يا جلال أفندي، أصل الوالد ودنه شوية كده.
والعم إمام يبدو أنه عرفني، هس مسعود بكف يده وصوت
خافت يخرج من بين شفتيه:

- جلال؟!

- أيوه يابا جلال.

وعاود التحديق في وجهي:

- بتاع الضاهر؟!

- لا إله إلا الله، أيوه يابا بتاع الضاهر!

- ابن الست...

ولم يكمل.

ومسعود الذي فرغ صبره:

- أيوه يابا هو! وهو إحنا من الصبح بنقرا في سورة (عَبَسَ)،

أيوه جلال!

فهب واقفاً - لا أعرف كيف - وأنا معه، طوقني بذراعيه
ضاغطاً على صدري مرة، ومُرَبَّتاً على كتفي مرة أخرى. ومسعود
ومعه زوج أختي يرمقانه بدهشة، متعجبين من جذوة النشاط هذه
التي حلت به، وتركنا مسعود ثم عاد ووراءه بنت صغيرة تحمل
أقداح الشاي.

* * *

ليس من منضدة نضع عليها الأقداح، فأمسك كل منا بقدهه..

بخار طيب يتصاعد من الفوهات، والعم إمام يرفع إحدى قدميه ويريحها على حافة الكنبة، وكف على عظمة الركبة والأخرى منشغلة بقذح الشاي.

مع حركته التي لا تهدأ، ينحسر الجلباب كاشفاً عن سرواله الداخلي، فيسرع إليه مسعود ضامماً له إياه، إلا أن الجلباب يبدأ ثانية في الانحسار، فيعاود مسعود الكرة ووجهه يعلوه الضجر. والعم إمام، شعاع جذل يطل من عينيه، كلما مال على القذح نافخاً عنه البخار. يكرر الأمر عدة مرات على نحو طفولي، ومسعود لا يروقه ما يفعل ويحثه بعينيه كي يتوقف.

أشعر بسخونة قذح الشاي في يدي، وألحظه يتململ منها هو الآخر، ويتمهل بالقذح قرب شفثيه كي لا ينسكب شيء من حوافه، غير أنه لا ينجح ويتساقط الشاي على صدر الجلباب. تختلس حفيدته النظر إليه وهي تكتم ضحكاتهما بكف يدها، فيتورد وجهه ويرمقها غاضباً. تتطلع إليه عاجزة عن السيطرة على ضحكاتهما فينهرها لقلّة أدبها، ويطلب من أبيها تأديبها بالعصا.

ويبدأ في الحديث معي:

- الله يرحمك ياسي عبد الحميد، رحت وراح الخير معاك..

أنتقل إلى جواره.

- وإزي الست كاميليا والدتك؟

أرفع صوتي كي يسمع:

- الحمد لله..

وكلمة في كلمة، حتى عرف ما دار بيني وبين العم إبراهيم.

- وسكت له؟! -

فتدخل مسعود:

- خلينا في حالنا يابا، دُول أهل مع بعض.

لم يبال به، طفق يقول:

- عمك إبراهيم دا راجل ضلالي لا يعرف ملة ولا دين،

ومتغركش التلت حجّات ولا شباك الرسول اللي حط إيداه عليه زي

ما بيقول!

ومشيحاً بيده:

- عندك المركز عندك المحكمة، روح اشتكيه.

ومسعود متبرماً:

- يابا! يابا!

- جاك بَوّ، دخلك انت إيه؟! ضيفي وبتحدث معاه!

- يابا انت هتشعلها نار ليه؟! انت نسيت اللي اتعمل فيك بعد

ما مات سيدي عبد الحميد!

والتفت إليّ:

- لا مؤاخذة يا سي جلال حكم أبويا ده!

فأوقفه العم إمام:

- حكم إيه يا دُون! ونار إيه اللي أنا هشعلها يا قليل الأدب!

وهو كَرَشَنِي ليه من النص فدان اللي كتّ بزرعه يا عديم التمييز!؟

مش علشان كلمة الحق، مش علشان قلت له: يا سي إبراهيم سيدي

عبد الحميد و صاك قبل ما يموت على اخواتك البنات وولاد أخوك،
وقال لك بعضمة لسانه: إوعى تظلمهم واديهم حقهم زي ما بيقول
الشرع والدين.

وعاد إليّ:

- وللا أنا غلطان يا سي جلال؟

ولم ينتظر مني إجابة:

- دا أنا كان قلبي بيتقطع على اللي عمله في أختك ليلي، ولو
بيدي وللا كتّ في صحتي كتّ شلت نَبُوتِي ووقفت له.

ومسعود:

- يابا! يابا! يادي النهار اللي مش فايت!

هشه العم إمام بيده مكمل:

- وهي علشان ما كان قلبها موديتها هنا وهناك، يقوم بيهدلها
بالشكل ده وياخذ أرضها بتراب الفلوس!
تنزلق منه الطاقية على حافة المسند الذي يتكى إليه، فيمد يده
إليها بضجر ويكبسها على رأسه وهو لا يزال يتكلم:

- لأ وإيه! يقول للناس أنا مَحْطُش إيدي في أيد ناس أغراب
وهفية زي دول، ومَجَوِّزْش بنت أخويا لواحد عويل ملوش أصل
ولا فصل!

ومسعود محرج من زوج أختي، ويضغط بأسنانه على شفته
محذراً أباه وهو لا يعبأ. مضى العم إمام في الكلام عن سوءات العم
إبراهيم وسيرته (البطالة) زهاء الساعة، وتطرق ثانية لإرث ليلي

وزواجها من محمود، قائلاً: بأن العم بما فعل كأنما أكل ناراً في بطنه، فإلا حق الله وما شرعه في كتابه الكريم عن المواريث، ثم ما دخله هو إن تزوجت هلفوتاً أو جربوعاً أو حتى كلباً من كلاب السكك! فهي التي اختارت وهي في النهاية التي سوف تشرب الصديد!!

والمسكين مسعود (في نص هدومه)، وينظر إلى أبيه محبطاً. وزوج أختي إلى جواره، وجهه بلون رماد الفرن ولا يعرف ما الذي يقوله أو يفعله. والعم إمام انفتح في الكلام، ولا يعطي فرصة لأحد.

لم يتوقف إلا عندما لمح تهكماً على وجه مسعود. ضرب الدم رأسه وهبط باحثاً عن فردة شبيهه يقذفه بها، لولا أن أسرعت وأمسكت به وأعدته إلى موضعه. ومسعود يتقلقل حذراً، وعيناه تحتاطان وتقيسان المسافة بين يد أبيه وفردة الشبشب الملقاة أمام الكنبة، كي لا يؤخذ على غرة.

شاع خبر المشاجرة في البيت بالطبع..

ولاحت خيالات نسوة وووربت أبواب، ورأيت من موضعي أولاداً يتوقفون عن اللعب في وسعاية البيت، ويأتون إلى أسفل الشباك يتسمعون. واحد منهم كان ملفتاً، وضع عدة قوالب طوب فوق بعضها البعض وصعد عليها ليرى بنفسه ما يدور، ثم ينطلق كما الريح لإبلاغ الحريم ليعود بعد ثوانٍ للاستماع من جديد، وهكذا ذهاب وإياب بلا انقطاع.

وبعد برهة صمت وتوتر هدا العم إمام، وبدأ ثانية في الحديث:
- بص بقى يا ابن الناس الطيبين، قطعة الأرض اللي جدّا
المصرف هي دي حقك، والحة اللي...

لم يكمل، أخذه مني مسعود عندما قلب كفه قائلاً:

- لا حول الله يا رب! يابا خلىنا ساكتين واللي بيته من قزاز
ميحدفش الناس بالطوب.

- طوب! طوب إيه يا فقي، ياللي بتطلع على التراب كل يوم
جمعة تقرا الربع من دُول علشان يحدفوا في حرك قرصتين.
ومسعود الذي بدا الغضب على وجهه:

- كده يابا كده! الله يسامحك، بس وعلى عينك يا تاجر أهه حُقّ
نفسك الأول قبل ما تحق غيرك!
وانفتح في الكلام:

- مش جدي عبد العظيم كان سايب لك البيت وأربع قراريط
ولك أختين، خدوا إيه هما كمان؟! مش ساقوا عليك أمة لا إله الا
الله علشان ياخدوا حقهم، وانت وذن من طين وودن من عجين!
فنظر العم إمام إليّ ثم نحو مسعود، وصاح فيه:

- بتقول خدوا إيه! ما هم يا أعمى العين داخلين طالعين على
البيت، ولما الواحدة بتزعل مع جوزها بتيجي هي وولادها وترقد
عندي بالشهر والشهرين، وبعدين إيه اللي حشرك بيني وبين
اخواتي البنات، هما داريين بحالي وراضيين ومسامحين.

وأفلق هذه المرة في التقاط فردة الشبشب وقذفه بها، فتركنا

مسعود ثائراً. واقتحمت علينا الغرفة زوجة العم إمام تخب في
جلبابها، وتصيح في وجهه:

- الله ينكد عليك يا إمام ويفضحك زي ما فضحتنا قدام
الضيوف، كل يوم عامل لنا غاغة وهُليلة! إمبراح تعض البيت سنوية
من ودنها، وأول إمبراح تتسحب ساعة الفجرية وتحلب الجاموسة
وتشرب لبنها كله وتفضل العيال على لحم بطنها وتكاكي طول
النهار من الجوع! روح يا شيخ ربنا ياخذك وما يطلع عليك صبح
وتفطس زي ما بتفطس الفراخ.

وتكهرب الجو، فخرجنا أنا وزوج أختي مسرعين.

* * *

(٢٤)

عندما رجعت من عند العم إمام وجدت العميتين في انتظاري..
قامتا من فوق الأريكة أول ما دخلت، لبثنا برهة وأنا أقف
ساكناً على عتبة الباب وهما قبالتي، وليس من شيء نفعله سوى
التحديق في بعضنا البعض..

العمة هانم رشيقة فارعة الطول، وردة فعلها بلقائي أسرع
وأدفاً. أما العمة أم الخير فمكثت في موضعها مستندة على قائم
الأريكة براحة يدها، والاثنتان (بالمس) الأسود والطرح المعصوية
على الرأس وكردان حول الرقبة.

لا علاقة بتقاطيع أي منهما بالأخرى، ولا تقل أبداً إنهما
أختان، العمة هانم تقاطيع وجهها كحبات السمسم وبياضها مشوب
بحمرة، والنضارة والبريق الآتي من العينين يقولان إنها أكثر شباباً
حتى من أختي ليلي رغم أنها تكبرها بعشرين سنة. العمة أم الخير

شيء مختلف، أنفها مفلطح وجبهتها عريضة، وكل شيء فيها تقريباً منفوخ كدببة الباندا التي تعيش في الصين، بل وحتى تحاكيها في بطء الحركة والعينين اللتين تخلوان من التعبير.

تيسمت العمّة هانم قائلة، وهي تقبل عليّ:

- صلاة النبي! قرب يا أخويا قرب، انت مستغرب كده ليه يا

حبيبي!

وأخذتني بين ذراعيها ووراءها العمّة أم الخير، وجلستا تسألانني عن أحوال الدنيا معي؟ وما أحمل من شهادات؟ وهل تزوجت أم لا زلت أبحث عن بنت الحلال؟

وطال بيننا الحديث، دون أن تشيرا بحرف واحد إلى أمي! أو تعرفان إن كانت قد ماتت أو لا تزال على قيد الحياة! وليلى صامته وتتنقل بعينيها بيننا. وبدت لي العمّة هانم وكأنها تستأثر بالجلسة، تقوم وتقعّد وتشير وتضحك، أما العمّة أم الخير فيداها معقودتان في حجرها، والكلام يخرج من فمها بالحساب. وعندما جاء ذكر أبي في الحديث، سألتها السؤال الذي طالما شغلني وأنا صغير، ما الصورة التي كان عليها؟

فقالّت العمّة أم الخير:

- أبوك الله يرحمه هو وهانم فولة وانقسمت نصين! الطول هو

الطول، والوش هو الوش، وبالخصوص الشفة وتدويرة العين.

وتنهدت:

- هو هو يا حبة عيني هانم أختي!

فرنوت صوب العمه هانم وهي تحتويني بنظرة حانية، وقامت من جوار أختها لتجلس بجانبني وتخصني بالحديث عن أبي. شجرة الكافور التي وراء البيت القديم، حيث لم يكن يحلو له الجلوس أو القراءة في كتاب إلا عند جذعها. ويوم أن أجبره الجد عبد الحميد على إلقاء خطبة الجمعة في مسجد المنشاوية عندما غاب الإمام، ولم يفتح الله عليه ساعتها بكلمة سوى: يا عباد الله اتقوا الله، إن من يعمل منكم مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره.. وأقم الصلاة!! ويوم ويوم، إلى اليوم الذي شاهدته فيه لآخر مرة عندما سافر هو وصحبه للحرب في بورسعيد.

تقول العمه هانم: إنه كان مهموماً قبل السفر ويشعر بأنه لن يعود، وقد حسبته مشغولاً بأمل ليلى إلا أنه قال: زوجتي عنديكم في أمان، قلبي لا يأكلني إلا على المسكينة التي في مصر، فهي الآن في شهرها السابع وليس لها مُعين، إن لم أرجع إسألني عنها أنت يا هانم، وإن أنجبت ولداً سموه (جلالا) وإن كانت بنتاً أسموها (إحساناً).

وجففت دمعاً انسال على وجنتيها، ثم قالت: غير أنني لم أفعل! خفت! فقد كان زواج أخي محمود بأمل جلال، أمراً متكتماً عليه ولا يرد على ألسنتنا أبداً. كان سراً بينه وبين والديه وأخيه إبراهيم، ونحن البنات لا نعرف عنه إلا القليل، وإذا خضنا فيه نخوض همساً، فلا أنا ولا أختي أم الخير كنا نجروء على الكلام فيه علناً أو نسأل عنه الكبار.

طافت أُمي لحظتها في خيالي وهي بجلبابها البيتي أيام أن كنا بالظاهر، تراجع لي مسائل الحساب، أو تميل بجذعها محرّكة أحد المقاعد لتلتقط المبراة أو القلم الذي سقط من يدي، أو وهي واقفة في المطبخ وأنا ألاحقها بصوتي الرفيع مستعجلا الطعام..

وظفقت أنظر في السجادة التي أمامي وعينا غاربتان، والحنين لأُمي يجتاحني وأعاتب نفسي لغلظتي معها في الكلام يوم أجرينا آخر اتصال، ولو أقدر لطرت لها الآن أقبلَ يديها ووجنتيها وكل ما تصل إليه شفتاي.

يبدو أن العمة هانم لاحظت شرودي، فعضت على شفتها ثم قالت:

- يوه يا لسانني! ربنا يسامحني بقى، أنا اللي فكرتك يا حبيبي باللي فات.

فرفعت رأسي إليها، والعمة الثانية ترمقنا من أول الحديث، ولا تشارك إلا بهزة رأس أو نظرة أسي أو بما يقتضيه الحال. وبدت ليلى وكأنها لا تحفل بما يقال، كما لو أنه كلام في الوقت الضائع. الكلام المفيد، هو الذي قالته قاطعة علينا الحديث:

- دا جلال راح لعمة إبراهيم مرة وانتين وتلاتة لغاية لما قابله، ولما فتح معاه موضوع الأرض...

فأوقفته العمة أم الخير، قائلة:

- عارفين يا بنتي عارفين.

وأردفت موجهة إليّ الحديث:

- إحنا كنا محاسبين يا ابني، ومرضيناش نيجي نسلم عليك
لا أنا ولا هانم إلا بعد ما تقابل عمك.

وأكملت وعيناها على ليلي:

- خفنا ليقول إننا والعياذ بالله بنسلطك عليه، وللا لنا مصلحة
في اللي داير بينك وبينه.

وتلتها العمه هانم:

- قلبي معاك يا حبيبي واعمل اللي يريحك، عايز تتبع له
أرضك بيع، عايز تاخدها دا برضه حقك واعمل اللي نفسك فيه.
بس حاسب من إبراهيم، دا أخويا وأنا عارفاه، شَرَّاني وياكل مال
النبي!

فأسكتتها العمه أم الخير بنظرة محذرة، ثم مالت على مداسها
تستأذن في الانصراف، ووراءها العمه هانم، رغم ما بدا على
وجهها من أنها لم تشبع بعد من الجلسة وتود البقاء.

* * *

كنت قد عزمت على العودة صباح اليوم التالي، فاستأذنت من
ليلى في النوم مبكراً، غير أن النوم جافاني ومكثت أتقلب في
الفراش حتى منتصف الليل، فقمتم وأخذت في يدي مقعداً إلى
الحوش. لا أعرف لماذا الحوش بالذات؟! رغم أنني لم أفعلها من
قبل بالنهار، ربما لأنه المكان الوحيد غير المسقوف وودت أن أرى
السماء في هذه الليلة القمراء..

الحوش خامد، لا حس ولا نَفْس ولا أحد يتحرك فيه. عدة

دجاجات تضع مناقيرها في ريشها وتلبد في أحد الأركان، وخروف يغط في النوم، وطملمة لا أعرف إن كانت معطلة أم تأتي بالماء، وطست صغير وحلتان بمقاس واحد تفوح من إحداهما رائحة طبيخ حامض. هذا كل ما عندهم، فعيشتهم أقرب لعيشة أهل البندر، وليس عندهم فرن ولا كانون ولا جاموسة أو حتى كلب يحرس البيت.

القمر في عز بهائه، والنجوم تجذب القلب إلى ملكوت آخر غير الذي نجوس فيه بالأقدام. والسكون لا تخدشه إلا عدة سعلات أطلقتها زوج أختي محمود، وجلال الصغير يعلو صراخه فجأة ويسكت أيضاً فجأة، ربما كان جائعاً وألجمته ليلي ثديها.

وطائر يحط على رأس الطلمبة، ويغمس منقاره في فوهتها. أظنه هدهداً. مكث برهة يغمس منقاره فيها بلا طائل فهبط إلى الأرض باحثاً عن نقطة ماء، ولبثت أنا ساكناً لا أتففس كي لا يجزع ويتحصل على ما يريد.

مشيته مشية الطيور التي لا ترتاح فيها، وتشعر بأنها تقلل من توازنها وكأنها تتعثر وليست تمشي، وتكون أعينها وقتها حذرة وتتلفت هنا وهناك. تابعته إلى أن فاجأني برفيف وطار كما الريح، لم أتبين إلا بعدها أنه التقط بعينه عرسة تطل برأسها من ركن في جدار. حام حومتين أعلى البيت وولى بعيداً، وذهبت أنا إلى العم إبراهيم، ونزهة جديدة في عالم السؤال مع هذا الذي لا ينكر حقي كما يقول، بيد أنه لا يريد تسليمه لي!

حقي واضح كهذا البدر الذي ينير السماء، كالنجمة أم ذيل التي
خطفت بصري قبل قليل. لكن إن أردته يا خفيف يا ظريف يا من
تلبس القميص والبنطال، فخذ منقوصاً!

إما على هيئة نقود قليلة وتدفع لك على أقساط، أو يبقى على
اسمك في الورق والأضابير، وكل حَوْل تقبض في كفك الإيجار
حفنة جنيهاً!

أما إن تطلعت إلى السبخ والطين وأن تمرح في أرضك مثل
سائر خلق الله، فلا وألف لا.. إلا بشروط، أولها أن تمسك بالفأس يا
أستاذ! وأن ترتدي الصديري والسروال! وتمسك بعنق الجاموسة
وتركب الحمار!

وهكذا مُنعت من أرضي، يا أيها العم الباغي الجَهُول!

وأروح بخيالي إلى ابن العم فريد..

تلقيتني عند الباب بقبول حسن وليس متجهماً كسائر أهل
البيت، وساندتني في الكلام منكرأ على أبيك ما يقول..

لكنك يا ابن العم رضيت بالقسمة الحرام التي قسمها أبوك،
ودخل في زمامك من أرضي عدة فدادين!

فماذا تقول لو سألتك إياها؟

هل ستخشى الحق، أم أنك سوف تساير أباك يا خريج الكونسرتوار؟

* * *

(٢٥)

ظفرت بالقدر الأكبر من هدايا أم حسن..

ساعة يد من منتجات الصين لها عقارب تضيء في الظلام،
وقلم جاف بأربعة سنون. ولم تقف عند هذا الحد، أتحتفتي أيضاً
بجوربين وزجاجة عطر تحمل علامة (بيير كاردان)، وطبعاً
(مضروبة) والرائحة التي تفوح منها أشبه ما تكون بالرائحة التي
يسمونها (كناسة العطار).

تقلب الهدايا في يدها مزهوة بها:

- أنا قلت هي الحاجات دي اللي تليق لك..

ثم تطرق بأصابعها على ركبتني لأزداد انتباهاً:

- واطلع من المطار يا جلال ألاقي أمة لا إله إلا الله كلها

مستناني، واتلفت على حسن، مفيش حسن! شوف الناقص اللي

مفِيهشّ خير!

وتبلى بريقها طرف كمها، ماسحة به ميناء الساعة قبل أن
تقدمها لي:

- والعمارة وأنا داخله تضرب تقلب زغاريت، وبسلامتها
مراته جاية آخر الناس، وقال إيه! حمد الله على السلامة يا خالتي،
نورتي المطرح والعمارة من غيرك ما تنشاف. شوف كهن
النسوان! نهايته، هي المحبة هتنشحت ولا هيشتروها بفلوس.
أسألها عن الأستاذ فؤاد؟

- وهو أنا قعدت على حيلي، على طول رحى له، وألاقي نادية
يا حبة عيني الوش قد اللمونة وخست يا كبدي، بقت كلها كده على
بعضها تنطبق وتنصرّ في منديل.

أقول لها: أليس من الواجب أن أزور الأستاذ فؤاد أنا الآخر؟
- لا واجب ولا بتاع، خليك انت بعيد.

* * *

وأقبلت الست نظيرة زوجة أبي السعد أفندي ومعها ابنتها
هديل، فأحبتت أن أدع لهما المكان لولا أم حسن التي تمسكت
بوجودي:

- وهو انت غريب! اقعد اقعد، وانتي يا هديل اقعدتي يا حبيبتني
هنا على الكرسي ده اللي في ريح جلال.

تبدو كفتاة عصرية بالجينز والحذاء الرياضي، والوجه تجذبك
ملامحه غير أن عينيها بهما حوّل خفيف، حوّل محبب لذيد وليس
كحوّل الولد المجرم حفيد العم إبراهيم. والست نظيرة كما الديدبان،

عين علينا وعين على أم حسن، التي أخذت الجلسة تقريباً لحسابها. فلم تتوقف عن الكلام عن خفقة القلب والخشوع أول ما رأت الكعبة الشريفة وجهاً لوجه، ويوم أن أخذوها لزيارة جبل (أحد) حيث دُفن سيدنا الحمزة عم الرسول. وبعد أن فكت إحرامها وتوجهت إلى المدينة المنورة حسبت أن الأمر قد انتهى، لكن سرعان ما تبدل جسدها من لحم ودم إلى أثير يرف بها، ساعة أن وقفت قبالة المثوى الذي وسدوا فيه نبينا الكريم.

تعود بنا ثانية إلى (مكة)، لتحكي لنا عن الرَّجُل اليمني الذي له محلٌّ للقماش في أول السوق ولا يغلبه أحد في الفصال، والأفريقي الذي عض واحداً في كتفه أثناء مشاجرة وقعت بينهما بسبب الزحام..

وتلحظ الست نظيرة الدبلة الذهبية التي أضعها بإصبعي، فتسألني إن كنت متزوجاً؟
أوضح لها الأمر وأن الدبلة دبلة جدي زكي، أحتفظ بها على سبيل المودة والذكرى.

وتقول أم حسن:

- جلال وحداني يا عيني، من ساعة الله يرحمها مراته ما ماتت.

ونقرأ كلنا الفاتحة لزوجتي، وكل من مات..

تسألني الست نظيرة ثانية:

- ومفيش أولاد؟

فتسبقني أم حسن:

- ولاد! ولاد إيه يا أم هديل! هو لحق! دا كل اللي قعده معاها

كام أسبوع!

تبدو الراحة على الست نظيرة، أما هديل فقد غافلتني أثناء انشغالي عنها وتفحصتني من الألف للياء. أنتبه لها فتبتعد بعينيها إلا أنني أشعر بأن فكرها مشغول بي، ولعلها تسأل نفسها عنم أكون؟ وما قدرتي في سوق الرجال؟! فهل أنا بالفعل مثلما يظن أبوها، أم أي واحد والسلام؟

وتلاحظ أم حسن أنني وهديل لا نتبادل الحديث على النحو الذي ترجوه، فتقول لي:

- مش تفهم هديل عن الأرض اللي انت ناوي تشتريها، دي اسم الله عليها مهندسة زراعية.

ولا نتركنا وتعود إلى الست نظيرة، إلا بعد أن أبدأ في الكلام..
أتكلم وهديل تنصت، ثم تجاري ما أقول، وتناقش وتخوض في أمور فنية متعلقة بالتربة والماء، وما يصلح لهذه الأرض عن تلك من زراعات. وتعرض عليّ تدبير موعد ألتقي فيه بمهندس زراعي زميل لها، همّ باستصلاح عشرين فداناً بأطراف محافظة البحيرة غير أنه تعثر، فعسى أن أتفاهم معه وأبتاع منه هذه الأرض.

وشيناً فشيناً يخفت صوت أم حسن والست نظيرة وتولياننا اهتمامهما، وتقول هديل:

- بس لاحظ يا أستاذ جلال..

فتقاطعها أم حسن:

- أستاذ إيه وبتاع إيه يا هديل! قولي له يا جلال كده حاف..
فتهبط هديل بعينيهما خجلى وأرمق أنا أم حسن لائماً، وتقول
الست نظيرة:

- دا أبو السعد معندوش أغلى من جلال، وشوية شوية هو
وهديل هياخدو على بعض وتنفك عقدة اللسان.
وتقوم مستأذنة في الانصراف ومعها أم حسن حتى الباب،
وتمد هديل كفها إليّ بالسلام فتطول قليلا في يدي.

* * *

ويمر شهر وراء شهر..

عشرة أشهر منذ أن جنّت إلى مصر وأنا أشبه بالعاطل، إما في
مشاوير أفضيها لأم حسن، أو تسوقني قدامي إلى ما كان يوماً من
دنياي القديمة وأصبح ظللاً من الأطلال..
العم (محمد)..

أمضي أمامه فلا أجده لا هو ولا قدرتي الفول وزحام المبتاعين،
وإنما محل للخردوات عيناى ترمقان الرجل الأخنف الواقف فيه
الآن، ثم تغربان نحو عم محمد ببطنه الكبيرة ومريسته المليئة ببيع
الزيت.

أنادي عليه فيرفع عينيه من فوق الفلافل التي تطش أمامه في
طاسة زيتها يفور، ويبدو وجهه غريباً وهو بيتسم لي، فهو دائم
التقطيب من صهد الموقد الذي أمامه. يستمهنني دقيقة ثم يملأ لي

الطبق الذي بيدي من قدرة فول مهيبة إلى جواره، وعيناه بحكم العادة تمرقان خطفاً على العملة المعدنية التي وضعتها على اللوح الرخامي، لتتأكد أنها قرش بقدر ما ملأ لي طبق الفول، وليس خمسة مليمات مثلما يفعل الأولاد الملاحين الذين يغافلونه ولا يدفعون بقدر ما يأخذون.

والعم (رأفت)، صاحب محل الساعات..

أتأمل الساعة التي اخترتها، وأمي تسأله أن يخفض في الأسعار.

يذعن لها، فتدخل معه في مناورة ثانية لتتوَجَل الدفع على أقساط، غير أنه يرفض ويأخذ الساعة من يدي وأنا وهي نتبادل نظرات محبطة.

وتستغرقتي الذكريات، حتى أبدو أمام نفسي وكأنني أعيش الماضي وليس الحاضر. صحيح أن الخيال يجلب المتعة وفي الذكرى شجن لذيذ، لكن ما الجدوى! أصبح حالي حال من يشتمُّ الزهور فتطربه رائحتها، دون أن تملأ له جوفاً أو تدفعه خطوة إلى الأمام. فعشرة أشهر بلا عمل أو إنجاز شيء ممضّ على من تعلم في الغربة أن للوقت حساباً، وأن الدقيقة لها قدرها وإهدارها سمة من سمات الجهّال.

وضجرت..

وكان بقائني بمصر لم يعد له معنى، فقد جئت وليس من أمل

سوى الوصال..

فما قيمة المشروع الذي عزمت عليه، فلا أنا همي الأول أن
أحصل من ورائه على ربح أو مغنم، ولا هو يضيف إلى بلدي شيئاً
يذكر، ومن أوله لآخره ما هو إلا صفر محترم في أقصى الشمال
بالنسبة لها..

النية ولا شيء آخر كانت في الوصال..

الوصال هو القصد والهدف الأول والأخير، لكن ومثلما يقال
في الأمثال، دائماً ما نجد (في كل خرابة عفريت)، فقد خرج عليّ
هنا العم إبراهيم بالنبوت، وهناك أبو الشوارب (حرنان) ويهددني
بفض الشركة التي بيننا إذا فكرت يوماً في سحب فرنك واحد من
رصيدها. ويكتمل الهم بأم حسن التي تركت كل شيء وتشاغلني
ليل نهار بهديل، حتى فاجأتها هذا الصباح وأنا ألملم أشيائي وبيدي
تذكرة سفر إلى باريس.

* * *

(٢٦)

الطائرة على ارتفاع آلاف الأقدام، والفضاء يتراعى أمامي
مسافات ومسافات..

فضاء خرافي الاتساع والحدود، يشدني إليه لأجد نفسي تائهاً
في عالم السؤال..

الأسئلة القديمة؟ نعم الأسئلة القديمة! فالهم يجر بعضه
بعضاً..

طفقت أسأل نفسي للمرة الألف، من أنا؟! ولمن أنتمي؟! ولماذا
أنا من دون الناس خرجت من رحم يهودية وظهر شهيد؟! وإلى
متى كلما اقتربت من أمي خايلني شيء لا أقدر على حل شفرته؟!
شيء يبعدني عنها، وعندما أبتعد أعاتب نفسي ويشقيني الندم..

أسئلة تضنيني منذ الصغر، ومن طول ما ألفتها صارت
كالقدر، قبلته ارتحت، جادلته أعيتني الأسئلة! ولا أنا قبلت، ولا

أنا اهتديت إلى إجابة واحدة..

السؤال الجديد الذي يلح عليّ الآن، عن ذلك البلد الذي أركب إليه الطائرة هرباً من القاهرة..

أعطاني هذا البلد المأوى والصحة والمال الوفير، تلقاني عاجزاً عن الكلام بلسان أهله ولا أحمل ما يذكر من الشهادات. وها أنا بعد عقد واحد من الزمان، يشدد ساعدي وأقيم شركة مع أبي الشوارب تقوم بملايين الفرنكات..

فهل كنت عاقلاً عندما لم أستجب لإلحاح أمي، وأسعى للحصول على هوية بلد النور الذي أعيش فيه وأكل من خيره! وأدع مصر ومَنْ في مصر، وملعونة الفدادين التي بيد العم، بل والعم ذاته قبلها، ولا تقل لي مشروع أو يحزنون، المشاريع هناك والأمان هناك وكل شيء هناك، والسلام عليكم الآن يا أم حسن فأنا مجرد ضيف جئت للزيارة وحالي ومالي وبلدي ليس هنا!

لماذا شمخت بأنفي؟!

لماذا لم أتمسح بهذا البلد مثلما يفعل أمثالي من المهاجرين؟! هل أبيت لأن هذا ما ألحت عليه أمي ونصح به زوجها، وكأنني أعاند لمجرد المعاندة!

وما الذي أفعله الآن؟

هل هو ذهاب بلا إياب، أم لأدبر المال وأعود.. كنت مأزوماً مشوشاً تجيء بي كلمة إلى هنا وتروح بي دفقة إلى هناك، إلى أن نادوا علينا من سماعات الطائرة بأن أربطوا

أحزمة الأمان فنحن على وشك الهبوط..

* * *

إيه يا باريس!!

بناياتك العتيقة والجداريات المنحوتة والأعمدة والتمائيل، تملأ العين والطائرة في طريقها للهبوط..

أروقة المطار تزدان بلفيف من الإعلانات لحقائب السيمسونايت وسجائر الديمورييه والمارلبورو والجلواز، وبشر على كل لون، بالسفاري والچينز ومعاطف وقبعات.

ومن تتألق بثيابها الأفريقية المزركشة، أو من المغرب العربي ويحبكون أجسادهم بالعباءات والبرانيس. حركة وصخب وضحكات، وفتيات حسان يمرقن بجانبني، وبوسترات تملأ المكان لعطر (لا بوازو) الذي أنتجه مؤخراً صانع الجمال كريستيان ديور. وأنسلُّ أنا خارجاً من بوابة المطار، فتلفحني نسمة هواء باردة وتلوذ بمعطفي حبات رذاذ..

جسدي يبدو خفيفاً، ودفقة مرح تجتاحني وصوت يهمس بأن أخيراً رجعنا إلى بلد النور، لمقاهي مونمارتر والشانزليزيه وشوارع سان لازار وفطيرة الكريب والكرواسو.. وشيء آخر ينتبه ويدير وجهي إلى هناك، يحثني على أن أدبر المال المطلوب بأي طريق، وأعود ثانية إلى الظاهر وأبي السعد أفندي وأم حسن، ونادية التي شغفني حبها ولم يزل..

ألا أسمع وسوسة الشيطان وأرجع إلى بلدي بجماله وقبحه،

بقنوطه وضحكاته، وأحرص على أن يكون لي وطن له نبض وعروق، وليس شيئاً مطموراً في دهااليز القلب وعتامات الغربية والشتات..

* * *

الوقت لا يزال مبكراً وأبواب الشركة حتماً مفتوحة، فاتجهت إليها من فوري، وأمام بناية من بنايات (سان ميشيل) وقفت أتطلع ببصري إلى الياطرة المعلقة على واجهة الدور الثاني، حاملة اسمي واسم أبي الشوارب. أتأملها راضياً كما لو أنها أخ أو حبيب عدت إليه، عزوة أو ملاذ أسكنه ويسكنني.

ويلقاني أبو الشوارب بشوشاً، ويحتوي كل منا الآخر بذراعيه:
- أهلين أهلين يا زلمة، نورت باريس وضلمت القاهرة مثل ما
بيقول المصريين.

وطفق يكلمني عن أحوال الشركة وأرباحها التي بلغت رقماً لم أتوقعه، وأنه أضاف إلى رأس المال نصيبي من الأرباح ومعه نصيبه، بعد أن اقتطع لنا المبلغ المعتاد للنفقات الشخصية والمصاريف. ولما سألته عن الرقم الذي أودعه بحسابي الخاص، نقر بإصبعه جذلاً على حافة المنضدة التي بيننا:

- قلت خلينا نعطي حالنا زودة (علاوة) من شان الغلا وها
الأسعار يللي كل ماله (كل مادا) عم بتزيد، وبدل يا خي جلال
عشر تلاف في الشهر خليهم اتناشر ألف.

يلوح على وجهي عدم القناعة، فيقول دَهشاً:

- هلا اتناشر ألف ما بيكفوك في الشهر! خير إن شاء الله! ليه
ها المصروف الكبير وما عندك مَرّة ولا ولاد!
فقلت:

- أنا كنت محتاج لمليون فرنك؟

- لا إله إلا الله! كمان يا جلال كمان! وطبعاً من شان
مشروعك ياللي بمصر؟! شوف يا ابن الحلال إحنا بيناتنا اتفاق إننا
ما نسحب فرنك واحد من رصيد الشركة إلا لصالحها، والكلام ده
إننت تعرفه منيح (كويس).

وأردف وعيناه تجريان على الورق الذي أمامه:

- دا أنا إجتني فرصة منيحة من خمس تيام.

ثم أكمل مشيحاً بأصابع كفه اليمنى الخمسة:

- آه والله من خمس تيام، ومنتظر جيتك من شان أبسطك
وأقولك، وانت جاي هلا تقول لي كاني وماني! دا نحنا محتاجين
لكل فرنك في حساب الشركة، دا غير إني بفكر في أخذ قرض على
السريع، علشان ياللي بدي أقولك عليه ده عمره ما ينترك ولا
هيتكرر مرة ثانية.

ويبدو أنه استطاب الشغف الذي لاح على وجهي، فلمعت عيناه
وبدأ في الكلام:

- تجار من الهند يا جلال! تجار غشم والهيلنة مرسومة على
وجوههم، والظاهر إنهم جداد في المصلحة (الكار)، وإيه يا
محترم؟! كلهم قصار.. لا. لا. أقزام! وكل واحد منهم له ذقن،

وشارب كيف القط!

أبتسم، فببتسم لتبسمي..

ويدنو مني برأسه مكملًا:

- عرفني فيهم چاك السمسار، وقعدت معهم على مقهى (الفوكيت) وهات طق حنك وْحَكِي، وبعدها شفت إن الكلام داير بيني وبين عمنا چاك، وهما بيتطلعوا فينا ويهزوا رؤوسهم كأنهم فاهمين، وكل واحد منهم بأيده بايب ونازلين ينفخوا.

وتبدو على وجهه الدهشة:

- ولما دأدست (تقصيت) لقيت واحد منهم أطرش وعلى أذنه سماعتين، والاتنين التانيين ما بيعرفوا غير إنجليزي! قلت: العمّا بقلبك يا چاك، يلا ترجم بيناتنا.

تبدو الدهشة على وجهي أنا الآخر، فيقول:

- ما معقول!! هلاً انتظر وعن قريب بتشوفهم وتعرف إن كلامي مطبوط، وتعرف يا جلال بدهم يشتروا بضاعة بأديش؟
ويعود بظهره إلى حافة المقعد:

- بخمس ملايين! إشي كراقتات على بدلات وبلوزات وتنانير وغيره وغيره، هادي لِسْتة طلباتهم..

وأمسك بإصبعي السبابة والإبهام ملفاً من ورقتين فوق المنضدة التي بيننا، وهزه أمام عيني ثم أردف بنبرة جادة:

- وانت عارف يا زلما إن شغلنا الكاش فيه أساسي ومطلوب، وبيوت الأزياء ما بتقبل تسلم لنا البضاعة إلا لما تاخذ حسابها

بالسنتيم^(٥)، قلت في حسابنا السائل بالبنك هلا مليونين، بنتداين
عليهم ثلاثة بضمان الشركة من بنك سوسيتيه جنرال ياللي حسابنا
معاه، وكلها كام شهر وبتخلص الشغلة وبنأخذ مصارينا (فلوسنا)،
وساعتها نرجع للبنك مصارياه وبنأخذ نحنا الأرباح.

وأردف، وهو يمسح بسبابته على حافة شاربه معجباً بنفسه:
- دا نحنا خلال شهر وللا اتنين بيطلع لنا شي مليون وللا اتنين
من الهبل دول!

- والناس دي مضمونة؟

- مضمونين ونص، انت عارفني منيح أنا أبو الشوارب ملك
الفهم والشطارة، ولسه يا دنيا ما حُلق فيكي ياللي يقدر يضحك
عليه.

فسال لعابي وانسقت معه في الكلام، والغريب أنه لم يطرأ
على بالي لحظتها استخدام هذه الأرباح في مشروع مصر.
ويجذني شارداً، فيقول:

- شو رأيك بقى يا جلال، هتكمل معنا هُون ولا لسه فكرك
مشغول بمصر ومشروعك ياللي هونيك؟
فلم أجب..

وأقبل الموظفون يسلمون عليّ، على رأسهم المصري (فؤاد)
الذي يمسك لنا الحسابات، والسائق اللبناني (حرفوش)، والعم (بو)

(٥) عملة فرنسية توازي القرش عندنا.

لحية) التونسي العجوز فرأش المكتب، والذي وشوش في أذني على السريع بالأغيب هكذا بالشهور، فأبي الشوارب رجل مفترى ومعاملته لا تطاق، وأبو الشوارب يشعر بأن الكلام عليه ويرمقه متشككاً. وهلت علينا مودموازيل (جانيت) سكرتيرة الشركة، وقبله هنا وقبله هناك كعادة أهل باريس، وقالت لي ضاحكة: ألم تحضر لنا معك جَمَلاً نتفرج عليه؟

أعرف أنها دُعاية، ومعروف عن هذه الفتاة خفة الدم والمزاح، إلا أنني شعرت بالغضب وصعدت الدماء إلى وجهي، ولاحظ أبو الشوارب، فقال لها بصوت لائم: الجمل مخلوق طيب وله قدر كبير عندنا نحن العرب وبخاصة المسلمين، ولا نحب أن يأتي الكلام عنه على سبيل السخرية..

غير أنها استمرت قائلة:

- ولماذا تأكلونه إذا؟!!

لم يفتن أبو الشوارب لسبب غضبي، وقال لها ما قال ترضية لي. لم يفهم أو حتى أنا فهمت لماذا أخذت الأمر بحساسية هكذا وحسبته تعريضاً بيلدي، إلا أنني لم أشأ إظهار ذلك وآثرت الانسحاق مع مزاحها، فقلت ولكن بضجر: مثلما تأكلون أنتم الضفادع ولحم الخيل!!

وهشها أبو الشوارب بيده كي تدعنا.

وفي الليل رجعت إلى شقة جدي زكي بحي بارباس..

كانت على الحال الذي تركتها عليه قبل أن أسافر..

الجورب الذي هممت بارتدائه ثم عدلت، فردة ملقاة أمام

السريـر والأخرى لا أعرف أين؟!!

وكوب الشاي الذي لم أفرغ منه يوماً لا يزال في موضعه

على الكومدينو، السائل المتبقي فيه قميء وشيء كالهاموش سقط

فيه وتحللت أجزاءه..

وزجاج النافذة الذي لم أحكم إغلاقه، يبدو أن كتلة هواء دفعته

مرة واحدة، فأطاح بمزهرية كانت في طريقه وقصمها نصفين..

والشقة ساكنة إلا من ريح جدي ووقع خطواتي، وجرس الباب

الذي دق فجأة فإذا المسييه (تیبو) الذي يقطن قبالتنا.

كان في عمر جدي تقريباً، ويكنُّ لنا الموؤدة. لم يكتف بسلام

اليد، أخذني بالأحضان وقبّل كل منا الآخر على وجنتيه، فقد عاش

الرجل طويلاً بالجزائر ويعرف عاداتنا. ولما سألته عن أي أحد

طرق على بابنا، أمي أو خالتي بيلا أو خالي شمعون، فقد كان

يعرفهم.

قال: لا.. لم أر أحداً منهم حتى إني حسبت أنهم تركوا باريس،

فهزرت رأسي وانصرف هو وأنا ضجر، أو كأني عثرت على

سبب يُضجرني منهم. وأكاد أصدق نفسي بأن جدي زكي يخصني

وحدي، وأنهم عندما تقاعسوا ولم يزوروا شقته المغلقة، فإنهم

بذلك قد أسأوا لي!!

وبتُّ ليلتي مثلما بت أول ليلة بشقة الظاهر، جدي يؤنسني وهو

وحده الذي يستحوذ على قلبي، وعيناي وسواءً بإيعاز مني أو من تلقاء نفسيهما، تذهبان إلى صورته المعلقة على جدار الصلاة كلما مررت بها. فهو صاحب الشقتين، وهو أمي وأبي، عشت بكنفه في الشقة الأولى زماني الأول، ومكثت معه في الثانية راضياً به وراضياً بي حتى قضى..

وفي الصباح طرق عليّ الباب الشيخ منجي العياري والد زوجتي خديجة المتوفاة، أحدث ضجة كالمعتاد وملاً عليّ الشقة الساعة التي أمضاها معي.

وتركني وهو يقول: ما دمت قد جنّت من سفر طويل، فشأنك شأن الضيوف، وطعامك وشرابك عندي ثلاثة أيام مثلما كان يفعل أجدادنا القدامى.

* * *

(٢٧)

- ولسه جاي ترفعلي السماعه دلوقتي! بعد أسبوع؟ أسبوع يا

جلال!

وتعاود بنبرة لائمة:

- ياه! ياه يا جلال! اتعلمت القسوة دي فين؟!

أشعر بالخجل من أمي، وأدع ما بيدي ذاهباً إلى شقتها بشارع

(جي موكيه)، فتلتقيني بإيشارب يغطي الرأس ورائحة تبغ تنبعث

من ثيابها، ويبدو أنها فتحت في الأكل فزاد وزنها (حبتين). ألين في

يدها، وتأخذني هي في أحضانها قائلة:

- تعالى تعالى يا حبيبي دا أنا مليش غيرك في الدنيا، لا أخ ولا

أخت ولا حتى البيه اللي أنا عايشة معاه ليل نهار!

وبصوت خافت وعيناها تتفادانني:

- الله يسامحه بقي..

أحتويها بذراعيّ بأكثر مما تفعل، ويسترعي انتباهي صورة
على جدار الأنتريه، لوجه امرأة تعتمر قبعة مدببة من الأمام وما
تبقي من شعرها مُصفف في شكل ثنيات. والعنق مسحوب سحبة
ربانية تأسر العين، ويتدلى من أذنها قرط بحجم وهيئة حبة الرمان.
والصورة بالأبيض والأسود، وفي الأسفل وبخط منمنم صغير اسم
المصور وعنوانه (أنطوان: محطة الرمل).

تقول وعيناها تروحان معي إلى الصورة:

- ما هو ذا أول الهم..

أتقدم خطوة مدققاً في الصورة، وتشير هي إليها:

- دي صورة مراته القديمة ليليان، كنت برة في مشوار

ورجعت لقبته معلقها!

أعود بخاطري إلى اليوم الذي أتيت فيه إلى هنا مع جدي
زكي، للتعرف على العم يعقوب. لم يكن قد تزوج من أمي، ولما
فاتحني جدي في هذا الأمر كرهت الرجل على الفور، وأتذكر
الصورة، لفتت نظري يومها غير أنها كانت معلقة بالداخل وليس
على هذا الجدار.

أقول لأمي: إنني رأيت الصورة من قبل، فتجيبني بامتعاض:

- أنا ولا عيني شافتها إلا لما حضرته فاجتني بيها..

وتتقدمني إلى الداخل بروبها القصير، وشيء كالقميص أسفل
منه. عروق رفيعة بالساق تنفر متعرجة، وأشعر بأن خطواتها
كسُول ولم تعد يقظة كما الأول. تسبقني إلى مقعد وثير بالصالة

وتشير لي بأن أجلس قبالتها، فتلوح الصورة من حيث نجلس وتبدو صاحبته لأمي وكأنها ترمقها من علٍ وتشاركها المكان.

برهة وتبدأ أُمي في الدخان، واستكمال قرح من الشاي كان موضوعاً من قبل على منضدة بيننا. وألحظ ذرات جافة من مسحوق (النس كافيه) عالقة بشفتيها، ربما أخذت منه ملعقة على الريق كعادتها، والدخان هالات هالات وكلما هشتته بيدي رجع لي مرة ثانية.

تتناوب مزيحة الإيشارب إلى الوراء فتنفرج عقدته ويسقط في حجرها، ويبدو لي شعرها - أحلى ما فيها - مريضاً باهتاً منقصف الأطراف. فقد المسكين رونقه، وبقعة بحجم عُقلة الإصبع لا ينبت بها الشعر اللهم إلا عدة شعرات نافهات لا قوام لها.

أتابعها وهي تتكلم، ولفافة التبغ ترتعش مع ارتعاشة أصابعها:
- ولما رجعت يا ابني من بره ولقيت الصورة، لا علقت ولا فتحت بقي بكلمة.

عيناى تجريان على شعرها، فتلحظ وتنبخ لي رأسها مشيرة بإصبعها على مؤخرة رأسها:

- حنة كمان أهيه راح منها الشعر، دا كده مرة واحدة!
أبدي أسفاً كاذباً، وتكمل هي على نحو تبدو فيه وكأنها لا تكلمني وإنما تكلم نفسها:

- بس أنا صغيرة على اللي بيجرالي ده!

لا أعلق..

وأحتر في أمر نفسي، فعندما كنت بمصر كان إحساس بالذنب يطوقني كلما وردت أمي على خاطري، بل وضجرت من عمي وعماتي عندما لم يسألوني عنها. والآن الجلوس معها لا يروقني وأفكر في سبب للانصراف، ابن اللعينة الفضول هو وحده الذي يُيقيني لأعرف حكايتها مع العم يعقوب، وعندما أسألها عنه تنطق اسمه محبطة:

- يعقوب..

وتطرق محكمة طرفي الروب على ركبتيها:

- وعلاج وليزر وإبر في العرق والعضل وبرضه مفيش فائدة! ومرة يجيني نغز في صدري ويقولوا لازم رسم قلب، ومرة يقولوا حاسبي شوية في الأكل الكبد كسلان.

أتذكر زماننا الأول بمصر عندما كانت تشكو من المرض، فتضع يدها على كتفي وإلى مستشفى (سيد جلال) بباب الشعيرية حيث العلاج بالمجان. يعطونها حفنة برشام أو شراب في زجاجة يقولون إنه يقتل الدود، ولا تتعظ أو ترحم بطنها، تعرّج بي في طريق العودة إلى أقرب محل للفاصل، أو يلهف كل منا (سميطة) أو اثنتين، وتعود قانعة وصحتها كما الحصان.

وتعاود الكلام:

- بس أنا عارفة يعقوب علق الصورة ليه.

أشعر بالضجر من الصورة وصاحبة الصورة والكلام عن الصورة، وأسلم أمري إلى الله وأستمع.

- بيجامل سيمون!

أقول من طرف أنفي: ومن سيمون هذا؟

- سيمون! سيمون ابنه اللي عايش في الأرجنتين، ما هو البيه

مشرف عندنا في الشقة بقاله أسبوع.

ومن طرف أنفي مرة ثانية؟

- زيارة؟

لا ترد..

وتتركني ثم تعود دافعة بيدها عربة فوقها إبريق شاي، وطبق مملوء حتى حافته بقطع الجاتوه. أكتفي بكوب الشاي، وتنزل هي على الجاتوه كما لو أنه آخر وجبة لها في الحياة الدنيا، ونمضي ربع ساعة تقريباً بلا كلام.

أنظر في الساعة، فترمقني خطفاً ثم تعود إلى الجاتوه. أحثها بتعبيرات وجهي على أن تقول ما عندها ونفص. لا تفعل. فأظل أتابعها حتى تأتي على طبق الجاتوه، إلا فتفتوة بحجم عقلة الإصبع. أندesh لإحجامها عنها، وأسألها أن تجهز عليها هي الأخرى. تشيح بيدها بأنها اكتفت، وتبدأ في الكلام عن زوجها يعقوب الذي شرع في كتابة حصته بكازينو شرم الشيخ مناصفة بين ابنته سارة التي تعيش بايالات، وابنه سيمون الذي حضر خصيصاً من الأرجنتين لهذا الغرض.

- وأهو بالمرة زي ما بيقول يعقوب، سيمون يقضي يومين

معاه وياخذ الورق اللي يخصه.

أما سارة فسوف يرسل لها أوراقها مع أحد أقاربه المسافرين إلى إسرائيل، على أن يحصل منها على توكيل بإدارة العمل مثلما فعل مع سيمون، وبعد وفاته يُنول لهما كل شيء.

أقول لها: إنها إسرائيلية ولا يحق لها التملك بمصر؟!!

- مفهوم مفهوم وكل حاجة معمول حسابها، البنيت معاها بسبور فرنساوي وساعة اللزوم هتقدمه، وإن منفعش ياما في الجراب يا حاوي.

وتروح بعينها إلى حيث موضع الصورة، وتسالني إن كان وجه المرأة جميلا!!!

أضطر للمجاملة:

- إيش جاب لجاب!

- بس اللي عمله يغيظ!

وبنبرة أشد حدة:

- دا أنا والرب لو كان عندي صورة للبابا بتاعك، لكنك علقته هي رخرة وحرقت قلبه.

أبدي تبرمي من الزج بأبي في خلاف بينهما، فتتحاساني بعينها مغيرة مجرى الحديث:

- وعلى كده أنا لا هطول منه أبيض ولا اسود!

أحدق فيها دون كلام، فتفهم أنني لا أصدق ما تقول.

- هي مفيش غيرها الشقة التملك اللي احنا قاعدين فيها،

فضلت أزن عليه لحد ما كتبها باسمي.

أحك أنفي بظفري وعيناى عليها.

- وبيقول إنه هيرفع حصتي في الكازينو من سبعة لعشرة في
الميه.

وتغمغم:

- بيقول!

- والفلوس اللي حطهالك في البنك؟

- يوه يا جلال! دول كلهم نص مليون وشايلاهم للزمن.

- ما كفاية!

- تفتكر!

وأقوم مستأذناً في الانصراف، فتمسك بيدي وتعيدني إلى
المقعد قائلة:

- يعني مسألتنيش عن يعقوب!

- أه! إزيه.

- حضرته يا سيدي يوم فيه ويوم مفيش يروح جمعية النبي

دانيال^(١)، وأهو هناك من الصبح هو وسيمون.

وبنبرة تخلو من الود:

- حضرته عايز بيقى رئيس الجمعية ويعمل كبير، ومرة يقابل

الوزير الفلاني ومرة يعمل حفلة على شرف فلان وللا اعلان،

(١) جمعية مقرها باريس، تضم يهود الإسكندرية الذين هاجروا إلى فرنسا واستوطنوا بها. وهي ذات طابع اجتماعي محض، يهدف إلى رعاية مصالح هؤلاء اليهود والتقرب بينهم، والتعبير عنهم لدى الحكومة وفي المنتديات المختلفة.

وتبقى له كلمة وسط اليهود.

- بس على حد علمي هو من يهود القاهرة.

- هقول إيه! بيتمخك يا سيدي في مراته اللي من جماعة

(نادلر) بتوع إسكندرية.

وعيناها إلى الصورة للمرة العاشرة، فالتفت مع التفاتتها فاعلا

الشيء ذاته.

وتسكت، وأسكت أنا الآخر.

* * *

(٢٨)

يطول الصمت بيني وبين أمي..

الكأبة على وجهها، وربما على وجهي أنا الآخر وأنا أطوف بعيني

على مفردات المكان..

ساعة حائط بندولها يروح ويجيء، هيكل صغير من النحاس

على هيئة شمعدان^(٧)، صورة في برواز لصَرُوف بك أبي السعد

والد الأستاذ يعقوب بشارب مرفوع إلى أعلى وحُلة من حلل زمان.

وعلى مسافة مني وفوق طاولة ذات سيقان عالية، تقف علبة من

الخشب الثمين منقوش على جدرانها رسومات فاضحة..

لا أعرف لماذا اقتناها العم يعقوب (المترابي المحترم ابن

^(٧) هذا الشمعدان نموذج للشمعدان الذي طالما ظهر في التراث اليهودي، على شكل

كأس تتفرع منه سبعة أعمدة.

ويقال إنه يرمز إلى أيام الخلق الستة مضافاً إليها يوم السبت (يوم راحة الخالق)، كما

قيل بأن شعلاته السبع هي أعين الإله الجائلة في الأرض، بل ويقال أيضاً إنه يرمز إلى

رجوع اليهود إلى وطنهم الحقيقي بعد هجرته وشتات طويلين!!

الأصول)، وألا تستحي أمي وهي صباح مساء تطالع هذين العاريين وهما يتأهبان..

لا أكمل الجولة..

أرمق أمي بجانب عيني، وهي تنهياً للقيام متجهة إلى غرفة نومها. أطلعها من وراء كما لو أنها ليست أمي بل شخص غريب أتعرف على ما به من تفاصيل، وعندما تلج باب الغرفة يروح قلبي إلى اليوم الذي تزوجت فيه من يعقوب.

كانا يجلسان ليلتها جلسة عروس وعريس..

هو في كامل هيئته، البذلة السوداء والبايون والشعر المصبوغ، وهي بفستان أبيض وطرحة وصدر مكشوف، وأناس كلهم من ملة (موسى) فيما عداي. تتلفت مبتسمة لهذا وضاحكة لذاك، كأنما الليلة أول فرحتها ولا تزال (بنت بنوت)، وأنا الكسوف يقتلني وأرمقها من مكان لا تراه.

ويدعوها للرقص..

يد تحيط بخصرها والأخرى نائمة على كتفها، وتأخذهما النشوة ودق العازفين فيضمها إليه وهي راضخة وشفاتها في شفتيه. وأنا قهراً فوق قهر وأموت بالبطيء، وأبي هناك تحت الثرى عظماً يطويها التراب.

وأنتبه..

أشعر بحركتها وهي مقبلة يسبقها عطر خفيف. تعود بشعرها وقد صفتته، ولا فائدة، فمهما فعلت منظره كئيب!

تقول، وهي تعود إلى المكان الذي كانت تجلس فيه:

- انت خلاص مش ناوي تدخل معنا في مشروع الكازينو؟

أهز إصبعي بحسم، بأن: لا.

- براحتك يا ابني وأنا من ناحيتي عملت اللي عليّهِ وعرضت

عليك بدال المرة عشرة، ولو وافقت كنت ناوية أدليك من حصتي.

لا أغير كلامها التفاتاً..

- وعلى فكرة إحنا خلاص وزعنا الأنصبه، حصه لأولاد

يعقوب زي ما قلت لك، وشوية لهارون وقدهم لخالك إيزاك دا غير

حصتي، وناويين ندي الإدارة لواحد شامي اسمه (نعواس) الحكاية

دي شغلته أباً عن جد.

لا أبالي بالأنصبه ولا بهذا النعواس..

- وراجل إيه يا جلال! مش واحد من منازلهم وجاي لنا كده

بطوله، لا. لا. دا عنده شركة كبيرة هنا، وشغلها كله في الحاجات

دي.

وتمد أصابعها ساحبة لفاقة تبغ، وعيناها تبحثان عن علبه

الثقاب:

- في الأول قال لنا: ما تخلوا مشروعكم فندق قمار^(٨) مش بس

(٨) لكون القمار جزءاً من الحضارة الإنسانية حسبما يقول دعائه ومروجوه، نشأت فكرة تدعو إلى إنشاء فنادق يقتصر روادها على لاعبيه فقط، ممن يقدرّون على الإنفاق ببذخ على هذه الآفة وما يرون فيها من متعة. وتضم هذه الفنادق فضلاً عن قاعات اللعب والتي هي بيت القصيد من إنشائها، غرفاً وأسرةً ودور لهو وراحة للاعبين بعد أن = يفرغوا

كازينو، ولما سألنا في مصر قالوا: ممنوع! الكازينوهات وبس هي

اللي بنصرح بيها!

فأقول:

- يستاهلوا السلامة ويُشكروا.

- واتفقنا خلاص مع شركة مقاولات وشفنا الرسومات.

أتأمل السجادة الفارسية، بما عليها من نقوش ورسوم لديكة

وطواويس..

- وطبعاً انت أول العارفين، إن الإسرائيليين مش مسموح لهم

يحطوا إيديهم على أي حاجة في سينما، ولا حتى في مصر كلها!!

وتكمل:

- لحد عندنا مفيش مشكلة كلنا معانا الجنسية الفرنساوي،

مفيش غير خالك إيزاك هو لوحده اللي معاه الجنسية الإسرائيلي.

يقوم عنما إيزاك يعمل إيه؟ يعمل إيه؟ بصينا لقيناه جاي يقول: إيه

رأيكم لو دخّلت أخويا شمعون مطرحي؟ واجهة يعني، قلنا له:

برضه فكرة وأهو زيتنا في دقيقتنا والأقربون أولى بالمعروف.

تشدني عبارتها الأخيرة وأتلقاها مبتسماً، تلحظ وتبتسم هي

الأخرى معلقة:

- أهو كلام اتعلمناه في مصر ومش عايز يفارق اللسان! المهم

إن خالك إيزاك قال لنا: تضمنوه ؟ قلنا له: شمعون غلبان وأبو

من اللعب أو بين دورته، وأشهرها قاطبة فندق (وايك وايد ويست) بلاس فيجاس وبعض فنادق مونت كارلو.

عيال، وانت من ناحيتك تدي له قرشين بعد ما تاخذ عليه الورق
اللازم، ولما كلمناه، يعقوب هو اللي كلمه، قام الخايب الغشيم ده
ومرة واحدة يتعصب على يعقوب وكان عايز ينطحه! ويقوله: انتو
فاكرني إيه! نمرة وللا خيال مآته! وفي إيه؟! في قمار ومسخرة!
أنا مليش في الكلام ده ولا عمري أغضب الرب!

وتقلب كفها دَهْشة من غباوة الخال شمعون:

- رب! ربنا ياخذك يا شمعون وفي يوم يكون التلج نازل فيه

قفف قفف من السما ومحدث يمشي وراك!

وتخشى مقاطعتي، فتشيع مردفة:

- دا ولسه شوف عمل إيه كمان، من غير حياً ولا ذوق يقول

ليعقوب: واتفضل خلص قهوتك ومع السلامة علشان معاد الشغل

بتاعي قرب! شغل! شغل! شغل إيه يا موكوس! دا كناس في البلدية!

يمكن وحشته المقشمة والجاروف وللا اشتاق لجردل المية!

يلوح أمامي خالي شمعون، وهو يعانقني مودعاً في مطار

(أورلي) قبل سنة تقريباً عندما كنت قادماً إلى مصر. هو الوحيد

من أهل أمي الذي أبلغته بميعاد السفر، حتى أمي لم تعرف إلا وأنا

في المطار وقبل أن تقلع الطائرة بقليل.

لا أنسى هيئته في هذا اليوم، جاء بالعفريته البرتقالي والكاسكيت

بعد أن استأذن من عمله ساعتين.. ما زلت أذكر دفقة الشوق التي

لاحت في عينيه، وهو يقول:

- كان نفسي آجي معاك!

وأنا أجيبه مستغرباً:

- فين؟! مصر!

- طبعاً مصر!

وألوم نفسي لأنني لم أسأل عنه حتى الآن، وأشتُّ بخيالي فيه
غير منتبه لأمي التي تقول عنه متهمكة:

- فقري! وهيفضل طول عمره فقري! وياريت على كده وبس

دا حمار بيرفص!

وتفاجئني قائلة:

- وزرت تربة البابا؟

أقول: نعم، وعيناى تقولان: وما شأنك أنتِ بهذا الأمر؟!!

- طيب متقدرش تدبر لي زيارة أنا رخرة ساعة لما نيجي

مصر؟

أقول: أعرف أن للعم يعقوب الكلمة الأولى والأخيرة، فهل

سيأذن لك؟

- أستأذن دا إيه؟ دا هيبص ميلافنيش، ولما أرجع أنكد عليه

وأقول له: ياه يا يعقوب! دا أبو جلال كان هافف عليَّ بشكل،

ولقيت رجليَّ واخداني عليه..

أهم بالانصراف، وهي معي إلى الباب.

- نفسي أشوف مصر ثاني، وأزور أم حسن والجيران

والشارع اللي اتربيت فيه..

كلامها يمضي على أذني مرور الكرام، وأنشغل عنها بالتفكير

في الذهاب إلى الشركة أو زيارة خالي شمعون. وقبل أن يهبط بي
المصعد ويحول بيننا أرمقها من داخله، يبدو لي أنفها وكأنه تقوس
عدة ملليمترات عما رأيتَه آخر مرة.

وبعد أن خطوت عدة خطوات في الشارع توقفت..

فكرت في الرجوع إلى أمي مرة ثانية..

ليس من سبب حَالٍ أو حتى واضح يدعوني لذلك، مجرد رغبة
أو ربما وخزة ضمير أو شيء لا أفهمه تحديداً، لكن يبدو أنه لم يكن
بالصدق أو بالقوة التي تدفعني للاستجابة إليه، إذ استوقفني وحَسَب
ثم أكملت سيرتي.

* * *

(٢٩)

لا أذهب لخالي شمعون أو لأبي الشوارب، أعود إلي البيت
مطرقاً..

فهكذا حالي مع أمي، في البعد تنازعني نفسي كلما جُرْتُ
عليها، وإذا التقينا يلوك القلب فيما لا يقال..

الشوارع التي أخوض فيها الآن، تحوطها بنايات أكثرها عريق
ودسم. شُرَف تقف بأركانها أعمدة من الرخام على رؤوسها كؤوس
وتيجان، أو تماثيل صغيرة منها ما يأخذ شكل الحيوان أو البشر، ناهيك
عن الرسومات التي تزين أبوابها الكبيرة الخشب.

وصفوف صفوف من أشجار المارون والكستناء، هاماتها
الخضراء لا عليها ذرة غبار أو تشكو من فاقة، فلطف السماء وزخات
المطر عنها لا تتقطع.

وبريق ووسع ومقاهٍ ومحلات وكلاب تتجول برفقة أصحابها، وفي

الأعلى سحابات تقال سرعان ما يتفرق جمعها، أو يخطئ الظن وينهال
المطر..

الدنيا لها قلب وروح وشفاه تبتسم، فلماذا أنا لست فرحاناً وأبدو
كالمكتئب..

هل لأن تلكم الشوارع ليست شوارع عي؟
لا حبوت عليها يوماً، ولا كان لي فيها صيباً..
وما بال شوارع مصر وأخنانها، فكأنها الأخرى لم تعد
شوارع عي..

الأولى لا تعرفني، والثانية لم تعد..
بالفعل أنا مكتئب..
لكن لماذا الآن، فقد كنت بالأمس وأول أمس لا أشعر بما أشعر
به الآن؟!

أهي أمي، وعندما أراها أتقلب من حال إلى حال.
أم هي بانسة، وأنا ظالم جحود.
أم هو شتات قلوب لم نصنعه، وإن كان يشقيني فهو بذات القدر
يشقها..

* * *

يلمحني الشيخ منجي، وأنا أعبر باب البيت داخلاً. كان يقف
بنافذة غرفة نومه التي تطل على الشارع، ونادى عليّ مشيراً بيده
أن أصعد إليه، وأسرع فاتحاً الباب وأنا أقبل عليه كائياً:

- يا جلال يا ولدي، إيش بيك؟!

وأخذني من يدي إلى غرفة الجلوس..

لم أدخل هذه الغرفة كثيراً، فقد كنت من أهل البيت وأجلس معهم دائماً بالشرفة أو الصالة، وشد بصري صورة لزوجتي خديجة المتوفاه معلقة على الجدار بحذاء صورة لجدها والد الشيخ منجي.

الوجه ساكن ويتأمل من يتأمله، وقلادة على الصدر اشتريناها معاً، وهذه الابتسامة أعرفها وتعرفني..

أخذنا هذه الصورة في (نيس) عندما ذهبنا إلى هناك بعد أسابيع من زواجنا، قلنا: يومين أو ثلاثة على الأكثر ونعود. أنا الذي عدت جالساً على مقعد مع ركاب الطائرة، وهي مُسجّاة على ظهرها في تابوت من الخشب.

فبعد أن التقط لنا المصور بضع صور معاً، أردنا أن يأخذ لكل واحد منا صورة بمفرده. أنا دائم الابتسام ولم يستغرق معي الأمر أكثر من ثانية، أما هي فبدا وجهها حزيناً وعندها لم يجد المصور بُدأً من أن أداعبها من طرف خفي، ففعلت وجاءت هذه الابتسامة..

ويدخل عليّ الشيخ منجي ويلحظ، فيقول لي: إقرأ لها الفاتحة وكفى، لا تدع نفسك يا ولدي للأفكار وتهاويم قد تسوقك إلى ما يغضب الله.

وجلس يسألني عن حالي والذي يشغلني ويكدرني هكذا، وأنا أفضفض له إلى أن قال:

- يا سبحان الله! ليش يا ولدي ليش! قيل (اطرد) الأفكار

السوداء هاذي من راسك، أمك هي أمك مهما فعلت ونصيبك هو نصيبك، مش باهي (صح) يا جلال إنك تجادل في اللي قسمه لك ربي وربك!

وظفق يشجعني على المشروع الذي عزمت عليه، وأني لو فعلت سوف تتبدد حيرتي وأزداد ارتباطاً ببلدي، وفي ذلك العوض عما ينقصني. وانتهاز الفرصة لإطلاق لسانه في أبي الشوارب، فقد كان يظنه أخرق ويخاف عليّ من شطحاته، ولما تطرق بنا الحديث إلى أهل أمي لزم الصمت، اكتفى بقوله:

- الله لا يربحهم! أنا مسلم ونخاف ربي، وما أبغي الخوض فيهم باللي يستحقوه.

أقول له:

- حتى جدي زكي؟!!

- حاشا لله! جدك هاذا مسلم ويعرف ربي.

لم يكن جدي مسلماً، فهو يهودي أباً عن جد، غير أن الشيخ منجي كانت له مقاييسه الخاصة، فمن يفرق بين الحق والباطل ويحمل في جوفه قلباً خيراً يصنفه مسلماً.

- وخالي شمعون؟

- شمعون..

ويومئ برأسه راضياً..

وأهم بالانصراف، إلا أنه يصر على أن أبقى:

- عندنا اليوم غداء قمقوم (لذيذ)، كسكسي بالعلوش وسلطة

* * *

بعد الغداء، تركته وصعدت..

لم أكن قد تخلصت بعد من غفوة القيلولة التي واطبت عليها
عندما كنت بمصر، فألقيت بنفسي على الفراش لأحلم بناادية..
كنت أهيم في خديجة قبل قليل، لكن نادية هي التي أقبلت..
جاءت ليس كما كنت أعرفها وأراها دائماً.. بحسنا وطهرها
وثياب المدرسة، وإنما كما شهدتها لدى ذهابي لمصر، امرأة وجسد
ومشاعر لم تعد..

أقف بتياب النوم بشرفة شقتنا القديمة بالظاهر، وهي في
الأسفل تعبر الشارع. أعرف أنها قادمة الآن فواربت لها باب
الشقة، وهي الأخرى تعرف أنني بانتظارها وتتحسب ببصرها كي
لا تلتقي أعيننا، ومن يلحظ أو يخمن بما سوف يجري بيننا..
كنت راغباً فيها فطفقت واقفاً بلا حركة حتى لا أفسد اللحظة،
وتجتاز هي الباب بسلام ودون شيء يلفت النظر.

عينها تشعان رغبة وتتأهب لإلقاء نفسها بين ذراعيّ، وأنا
أشد رغبة وتأهباً..

لم أرها على هذا النحو أبداً في حلم من الأحلام التي حلمتها،
أو راودتها مطلقاً في خيال تخيلته..

استحييت من نفسي عندما استيقظت..

كنت شرهاً، وأجوس فيها وكأنني لا أعرف عن هذا الشيء إلا

بدائیتہ..

* * *

(٣٠)

استفتحت يومي بالاتصال بأمر حسن..

من أول الصباح وهي تخايلني، فعرجت على أول هاتف عمومي في الطريق وهاتفتها. ويبدو أنها اشتاقت إليّ هي الأخرى، فأكثر من مرة وهي تقاطعني، أو تقطع كلامها سائلة عن ميعاد عودتي؟

وموجز سريع عن أحوال العمارة، أم نبيل التي تعثرت على بسطة السلم ولولا ستر الله لراحت فيها، وأبو السعد أفندي الذي أدهشه سفري على غفلة هكذا! وأن ابنها حسن مرّمغ سمعة الدكان في الوحل، فقد طبّت عليه كبسة من التموين وأخرجوا قففاً قففاً من البضاعة المنتهية الصلاحية!

وتسأل: هل عندنا هنا في باريس صوف العسكري؟! فإن كان متوافراً، تريد ثلاثة أمتار لزوج الست فاطمة التي تستأجر

السطوح. وتلح عليّ لشراء بالطو ماركة (الخفير) لبشندي البواب، فأقول لها: سوف أسأل! وإن لم أجد هل من الضروري أن يكون هذا الموديل بالذات؟!

فتقول:

- أيوه! ويا ماركة الخفير يا بلاش، هو طلبه كده.

وتسأل عن الترابيع؟ فأقول لها: إنهم لا يعرفونها هنا، يفضلون القبعات، هل آتي لك بقبعة؟

فتجيب غاضبة:

- وهو أنا بتاعة البرانيط والمسخرة وقلّة الأدب، أنا واحدة محترمة! ومعملش العيبة! وبعدين الترابيع مش ليّه، دي للشغالة بتاعة أم عباس.

وكادت أن تضيع المكالمة في هذه الترهات، لولا أنها في اللحظة الأخيرة تذكرت أن رجلا بعمامة اسمه الشيخ مسعود جاء للسؤال عني.

- مسعود!!

- أيوه اسمه مسعود! ويقول إنه شيخ الكتاب بتاع بلدكم، وإنه ابن عمك إمام اللي كان بيشيلك على كتفه وانت صغير.

فأتذكر، وهي تلاحقني:

- كان جاي مرسال من أختك ليلي، بيقول إنها عايزاك في أمر

مهم.

وأضع السماعة على قولها:

- وانت ناوي بقى تقعد عندك لحد إمتي؟ يلا يلا أنا مستنيك..

أنعشتني المكالمة وأن في الدنيا من يشغله أمري، غير أنني بعد برهة سألت نفسي: لماذا غفلتُ عن سؤالها عن نادية! وهي الأخرى لماذا غاب عنها السؤال عن أمي مثلما كانت تفعل دائماً..

* * *

وانطلقت إلى (المنطقة العشرين)^(٩)، حيث يقطن خالي شمعون. ولده لبيب يا ستار يا رب ثقيل الظل، واسمه يذكرني بأول رجل جاء لخطبة أمي بعد موت أبي. كان اسمه لبيباً هو الآخر، وناعماً بارداً قميئاً. كرهت اسمه ومنظره، ومن يومها وإلى الآن وأنا أتحفظ مع كل من يحمل هذا الاسم، أو أية سحنة تقرب من سحنة هذا اللبيب.

شاؤول هو الأصغر، أما الأوسط (إسحاق) فكان من نفس سني تقريباً، وطالما ارتاح كل منا للآخر وخرجنا معاً في نزهة أو جلسنا على مقهى. أنا أشكو من ثقل الغربية وهو من العوز وضيق اليد الذي يعاني منهما أبوه، حتى إنه توقف عن الدراسة وعمل ساقياً بإحدى حانات (بيجال) ليساعده على المعاش.

الخال في حال لا يسرُّ..

(٩) حي من الأحياء الفقيرة بباريس.

كان مريضاً يلازم الفراش، وينادي بصوت خافت على زوجته سارة التي تصطحبني سائلاً: عمن بالباب؟
وفور أن دخلت عليه أخذته المفاجأة، تعطل التعبير على وجهه لحظة ثم شدني إليه فانحنيت ليضمني إلى صدره، وبراحة يده ضغط على كتفي لأبقى بجانبه على حافة السرير. والخالة سارة تفوح منها رائحة الطبخ، وتقول:

- آدي جلال أهه، ارتحت بقى يا شمعون!

* * *

الشقة بحجم علبة الكليوباترا..

فلا أنتريه أو حتى طريقة ندخل منها، الصالة مباشرة وبمساحة لا تزيد على ثلاثة أمتار في مترين وربع، وكنبة إفرنجي يحيط بها مقعدان بالعدد نخرهما السوس، وحُفَر وخطوط وشخبطة بقلم (فلوماستر) على الجدران.

لا شيء آخر يلفت النظر سوى برواز يضم صورة لغراب يلحق بيضه تشرخت قشرتها، وقط عجوز يرمقني من أول ما دخلت. ثم غرفة بابها موصد، والثانية التي ولجت بابها الآن تخص خالي وزوجه. غرفة كالحق لا شيء فيها يستحق الاحترام، ولا حل لها في تقديري سوى صفيحة جاز وعود كبريت..

أعرف أن الخال هو البائس بين إخوته، غير أنني لم أحسب أن حاله قد تدهور إلى هذا الحد، وتطوف ببالي شقته القديمة بالسكاكيني. كانت أربع مطارح وصالة وشرفة تطل على مفرق

طرق أشبه بالميدان، ويجيء ويروح إلى عمله كل يوم مزهُواً
بسيارته التي اشتراها أيام عبد الناصر بالتقسيط.
أتأمل غرفة الخال..

السريّر الذي أجلس على حافته لا يكف عن التزييق،
وعارضته عليها خربوشان، أظنهما بفعل القط الذي رأيته قبل قليل.
وبأعلى الحائط الذي أمامي صورة للجد زكي، بحدائها صورة
لعجوز بجلباب بسفرة جيبه العلوي يبرز منه قلم (كوبيا)،
وطربوش قصير تلفه عصابة بيضاء.

وجهه والعياذ بالله كئيب، وله منخار يلفت النظر، كما أن
تفاحة آدم حجمها كبير ولا تتناسب البتة مع عنقه النحيل. أعرفه.
المعلم زكريّ والد الخالة سارة وصهر خالي شمعون.

وعلى حائط آخر صورة ولكن أكبر بكثير لمشهد الأهرام عند
الغروب، وفي الأسفل من الصورة خواجات وأناس بملابس
إفرنجية وجلابيب عليها چاكتات، وجمل يقبع على الأرض بلا
حركة رغم أن صبيّاً حافي القدمين يصيح فيه من الورااء مهدداً
بعصاه.

لا أعرف مشكلة هذا الجمل، فربما يكون أطرشاً أو أنه يعرف
قدر نفسه ولا يعطي اهتماماً لهذا التافه الذي يمسك له العصا.
وجمل آخر على ظهره خواجية بقبعة وبنطال وينخُ استعداداً
للهبوط، والمسكينة الخوف بادٍ على وجهها وتمسك به بكلتا يديها
كأنما تهبط بطائرة (ميراج). والصورة بمجملها يعلوها القَدَم،

فيبدو أنها من الصور التي كانت تطبع للدعاية لمصر أيام مليكنا السابق فاروق.

وأول ما بدأنا نتكلم دخل علينا القط، وفي لمح البصر قفز إلى جوار خالي ودخل أسفل اللحاف. يدفعه الخال مرة بعد مرة كي يحترم نفسه ويرحل وهو غير مكترث، فتميل عليه زوجة خالي وتمسك به لاعنة خاشه وخاش أمه وأبيه.

* * *

يسأل الخال عن مصر ومن كان يعرفهم بمصر، وأنا أجيب عن شيء أعلمه مرة، ومرات من وحي الخاطر وبنات الأفكار. وإجاباتي وإن تعددت يمكن إيجازها في كلمتين: الكل (عال العال) وبيعثون لك السلام، وقد اشتاقوا لك كثيراً ويسألون: ألن تأتي لهم في زيارة عما قريب؟ فيهب رأسه راضياً، ويراجعني أحياناً مصححاً لي بعض الأسماء.

وأسأله عن أحواله، فيقول: الحمد لله، تخرج منه بصوت باهت، والخالة سارة تتابعنا ووجهها يقول: إنهم ليسوا بخير، بل في أسوأ حال..

ونتطرق لأمور شتى ويكون الحديث في شأن آخر غير مصر، غير أنه يقاطعني:

- يا سبحان الله! بقى الحاج عبد الرسول العلاف لسه فاكرنى لحد دلوقتي وباعت لي السلام، والله فيه الخير.
ويعيد الوسادة التي أفلتت من وراء ظهره:

- وتلاقيه كبر في السن دلوقتي وصحته راحت؟
فأنتبه..

لقد قلت له فعلا إن الحاج عبد الرسول يبعث له السلام، وأتذكر
الآن.. الآن فقط! أن هذا الرجل لم يعد من أهل الدنيا! غاب عن بالي أن
أم حسن سبق أن أبلغتني بذلك في حديث جرى بيننا.
لكن لا يهم! حي يُرزق أو مات، الأمر سيَّان! فلا أظن أن
الخال سوف يتقصى هذا الخبر، وأنا الآن في مطب وليس أمامي
من حل إلا أن أقول:

- صحته عال والحمد لله، وطول النهار قاعد يتشمس قدام
المحل بتاعه.

يسألني ثانية:

- وإيه بقى أخبار الأزهر وسيدنا الحسين؟

أعرف أن هذا المكان أثير لدى الخال، فالتزمت الحذر حتى لا
أتورط معه في أخبار ملفقة، وأجبتة قائلا:

- لا والله للأسف مجتش فرصة علشان أروح هناك.

- فرصة إيه وأسف إيه! دا أنا لما كلمتك في مصر، قلت لي

انك رحتم مرة واتنين!

- أيوه أيوه افكرت!

فيقول:

- أصل أنا قريت في طبعة الأهرام اللي بتيجي لنا هنا، إنهم

عملوا توسعات قدام جامع سيدنا الحسين وخُضرة وممرات وخلوا

المنطقة جذابة للسياح.

كنت قد قرأت هذا الخبر أنا الآخر، فأجبتة مما قرأت وهو
يومي برأسه متابعاً وكأني أزوده بجديد. ولما كان الهجوم هو
أفضل وسائل الدفاع، فقلت أبدأ بالكر عليه وألاحقه بالأسئلة حتى
يكف عني:

- وإيه أخبار لبيب؟

- لبيب! لبيب في كندا دلوقتي.

- وشاؤول؟

بيتسم خالي:

- في المدرسة.

ووراءه زوجته:

- دا الألفا على الفصل.

أندش من كلمة (الألفا)، وأتحول بوجهي إليها.

- أمال أقول إيه! كان البابا بتاعي الله يرحمه بيقولها عمال

على بطل على أخويا ملاك.

وتلثفت محدقة في صورة المعلم زكري طالبة له الرحمة،

فتسري فينا العدوى أنا وخالي ونذهب إلى صورة جدي..

وأسأل عن إسحاق؟

- إسحاق..

صوت الخال به أسى وكأني طرقت موضوعاً لا يسر، ويروح

عني بعينيه إلى الصورة التي تقف بها الأهرام. تتحاشاني الخالة

سارة هي الأخرى، وتستأذن في القيام فيشير لها أن تبقى، ويبدأ الصمت في الكلام، وكان إسحاق قد قضى ودقيقة وأسمع الخبر.

وأعرف أنه سافر إلى إسرائيل بعد ذهابي إلى مصر بشهرين، وأنه سرعان ما حصل على جنسيتها وصار واحداً من أبنائها.

- ومش كده وبس! دول بيقولوا كمان: إنه اطوَّع في الجيش هناك، وأنا هنا نايم على وداني! وأطبطب على كتفه وهو مسافر وأقول له: على إيه الشحطة والبعاد، بكره ربنا يكرمك هنا بشغلانه أحسن من اللي انت فيها، وإن كان على الفرنكات اللي انت بتدهالي أول كل شهر، الله الغني بس خليك..

ويخفت صوته:

- وحلف عليَّ ما أروح معاه المطار، سارة هي اللي راحت وأتاريه رايح إسرائيل مش البرازيل زي ما قال!

ويأتي صوت الخالة:

- وأنا كمان عملها فيَّه! ويدوبك وصلته لحد باب المطار، لا عرفت ركب إني طيارة ولا سافر على فين!

لا أعرف على وجه التحديد لماذا يتكلمان هكذا، هل يتألمان بالفعل من (عملة) إسحاق، أم هو كلام يقولانه أمامي على سبيل المجاملة. وأنظر إلى الخال مواسياً ومشاعر في صدري تتكون حيال إسحاق، وترمقني الخالة ثم تولي مبتعدة أول ما تلمحني متجهاً ببصري إليها.

وتتفطر دمعة من عين الخال، وهو يقول:

- كان بيضحك عليّ! معرفتش إلا بعدها من إيزاك، وعمّال
أسأل نفسي من ساعتها وأقول: يا ترى هو اللي ورا الحكاية دي
وللا مين؟!

ويطالعني بكل وجهه:

- قلبي مش مرتاح لإيزاك وبيقول لي إنه هو..

ودمعة في عين الخالة سارة، وقلبي يقول لي إنها تمثيل في
تمثيل، وهي مع إسحاق منذ البداية وتعرف أنه أخذ طائرة (العال)،
والخال هو العبيط الوحيد في البيت!

* * *

وفي الطريق إلى البيت يلوح لي وجه إسحاق، وأسأل نفسي
هل هذا الذي فعله بسبب العوز أم المعتقد؟
وإن كان لهذا السبب أو حتى ذلك، فهذا فراق بيني وبينك يا
إسحاق..

ويلوح لي أيضاً أخوه لبيب، وكان شعوري القديم تجاهه تأفل
حدثه..

* * *

(٣١)

والتقيت التجار الهنود..

كانوا بانتظارنا على مقهى (الكاريدور) بالشانزليزيه، وقد عرفتهم على الفور، فأشكالهم لا تخطئها العين ومنظرهم لافت لكل من يلج باب المقهى، وهم يجلسون على إحدى الطاولات وبفم كل واحد منهم (البايب) الذي يخصه.

بَدَوْا صغاراً بالفعل، لكن ليسوا أقزَماً كما فهمت من كلام أبي الشوارب، فقاماتهم كانت تتراوح بين قامة القَزَم والإنسان المعتاد. الساعات التي بأيديهم هي وحدها التي كان حجمها كبيراً، وتكتظ بالعقارب والدوائر والاتجاهات. وماعدا ذلك، كان كل شيء فيهم دقيقاً، الأنف، الأذن، الساق، الأصابع والكف، والمعاطف التي يرتدونها على غرار المعاطف التي يذهب بها الصبية إلى المدرسة.

ويا سبحان الله مهما ارتدوا من ثياب أو نفخوا أنفسهم، لا يملأون المقاعد. وقد لاحظت أن اثنين منهم تصل أقدامهما بالكاد إلى الأرض، أما الثالث فقدماه معلقتان في الهواء، وإذا أراد هذا البائس أن يريحهما ويطل بهما أرضية المقهى، فعليه أن يساعد نفسه ويتزحزح بمؤخرته إلى الأمام.

هذا البائس هو كبيرهم، وسحنته وهيئته الخالق الناطق (شايب الكوتشينه) الذي نراه في أوراق اللعب، مع فارق واحد هو النظارة الطبية التي فوق عينيه. وقد أدار هذا المحترم دفعة الحديث من الألف للياء، وزميلاه الآخران يرمقانه بصمت ووسيلة اتصالهما به مقصورة على لغة العيون، والكل بلحية كثة وشارب ملوي إلى أعلى.

فكرة صائبة أن يحتفظوا بلحاهم وشواربهم على هذا النحو، فلو لا ذلك لبدوا ثلة من العيال. وعلى الطاولة التي أمامهم ثلاثة أقداح من الشراب فرغ محتواها والرهاوى لا تزال عالقة بحوافها، وكل واحد قبالته كيس (أنفورا) محشو بالتبغ، والمقهى كله مشغول بهم، من يحدق أو يشير نحوهم أو يتفل في أذن الآخر عنهم بكلام.

* * *

تقدمنا العم چاك السمسار بادناً بالسلام، واضطره طوله الفارع أن ينحني عليهم وهم في المقابل يشبون على أمشاطهم. ثم أبو الشوارب وأنا، والدهشة تغمرني من أصواتهم الضخمة التي لا تتناسب البتة مع هياكلهم الدقيقة وأفواههم التي كحبات الترمس.

وذاخَلني إحساس بأنهم أناس (لبَط) وكذبوا على أبي الشوارب عندما ادعوا بأنهم لا يعرفون اللغة الفرنسية، فعندما أقبل علينا النادل وأصررنا على أن يتناولوا معنا مشروباً آخر، كاد أن ينطق أحدهم بالفرنسية اسم المشروب الذي يرغبه، غير أنه لحق نفسه واستخدم الإنجليزية.

وجلسوا قبالتنا، كبيرهم يتحدث والعم چاك ينقل إلينا الكلام مترجماً بالفرنسية، والآخران يقلبان النظر فينا وأعينهما تروح وتجيء مع مسار الكلام، ويكاد يثبت في يقيني أنني حيال ثلاثة ألغاز وليس تجاراً غشماً كما أفهمني أبو الشوارب.

برهة وانتبهوا لوجودي، فسألوا: من أكون؟ وما سبب جلوسي

بينهم؟

فأشار نحوي العم چاك، قائلاً: بأنني مصري يقيم في فرنسا، وأنا وأبو الشوارب شركاء في هذه الصفقة، فبان الرضا على وجوههم، وفوجئت بهم يقفون كلهم ويمدون أيديهم لي بالسلام مرة ثانية. ولمحاولة استقطابي وبث الدفاء بيني وبينهم، دخل معي كبيرهم في حوار ودي عن العلاقات الحميمة التي طالما ربطت بين الرئيس الهندي جواهر لال نهرو والزعيم عبد الناصر، وأنها ظلت كذلك أثناء حكم الرئيس (شاستري) الذي تلا نهرو في سُدَّة الحكم، وكلمة عن مؤتمر باندونج وأخرى عن حرب ٧٣..

وأبو الشوارب يتململ من هذا (اللت والعجن) الفارغ ويريد الإنجاز والدخول في الكلام المفيد، فأخرج من جيبه قائمة الطلبات

التي سبق أن قدموها له. ومن خلال ترجمة العم چاك أخذ يشير بأصابعه على كل صنف وسعره في الجملة، وهم يتبادلون النظر ويهزون رؤوسهم كأنما الأسعار ترضيهم، ثم ينوب عنهم كبيرهم السيد/ كومار قائلاً بملء فيه: نعم موافقون، رغم مغالاة أبي الشوارب الشديدة في الأسعار. وأنا أشعر بالحيرة وأقول في نفسي: من هؤلاء الناس؟! هل هناك في الدنيا تجار بهذا العبط، أم أن المسألة بها ملعوب؟!!

وعندما بدأ الحديث عن موعد التسليم أصروا على ألا يتجاوز الأمر شهرين من الآن، فوافقنا ورجع أبو الشوارب بمنكبيه إلى الورا طالباً مانتّي ألف فرنك كمقدمة وعربون. والسيد/ كومار يتأمله وعيناه تتسردان لحظة ثم تعودان، حتى حسبت أنه يستكثر العربون، وأخيراً قال وهو يضغط على مخارج الحروف: مانتّي ماذا؟! مانتّي ألف؟!!

رمقني أبو الشوارب ثم رمق العم چاك وأخرج سيجارة وأشعلها ونفّس في الثاني في الثالث، وكل هذا بالبطيء ظناً منه أن هذا الذي يفعله (معلمه وشغل تجار)، ثم أشار بإصبع السبابة قائلاً: نعم مانتتا ألف لا ينقصون فرنكاً واحداً..

فتبسم له السيد/ كومار وأخرج دفترًا للشيكات من حافظته ووقع شيكاً بمليون فرنك، وهو يقول: ليس مانتتين فقط يا أيها الشهبندر! بل مليون.. واصرف الشيك أولاً وتأكد أن نقودنا جاهزة، ولا نريد منك إيصالاً أو أي شيء يفيد التسلم، فنحن قوم شعارنا حسن النية والاتكال على الله..

فحدقنا كلنا فيه، والهنديان الآخران صامتان ويتابعان، ولا تفهم أبداً ما إذا كانا راضيين عما يحدث أو غير مقتنعين، الذي كان بادياً لي فقط، أنهما كانا يحسبان انفعالاتنا ومدى تقديرنا لما فعله شيخهم كومار.

حاول أبو الشوارب أن يبادل الحسنة بالحسنة، ويبدو في أعين الجالسين كما لو أنه هو الآخر تاجر محترم شأنه شأن السيد/ كومار، فافتعل الطيبة في التعامل والذوق وقطب ما بين عينيه، قائلاً: بأن هذا كثير وكان يكفي مائتا ألف كعربون، وأشاح بوجهه عن الشيك. وعندها وضع السيد/ كومار راحته على الشيك مخفياً إياه، ورمقه بنظرة تساؤل عما إذا كان جاداً فيما يقول، غير أن أبا الشوارب سرعان ما عدل، وسحب كلامه لما زغده العم چاك في ركبته من أسفل الطاولة.

وتسلمنا الشيك..

أبو الشوارب الفرحة تقفز من عينيه ويضعه في مكان أمين بحافظته متمماً بشفتيه، أظنه كان يقرأ الفاتحة، أنا الآخر كنت أتلوها في سري. والهنود على غرارنا منهمكون في تعاويز تخصصهم يتمتعون بها وأيديهم مسجاة على الصدور، والعم چاك يقلب النظر فيما نفعل دهشاً كأنما نحن ثلة مهاويس!

* * *

كان الشيك محرراً على بنك (سوسيتيه چنرال)، وتحديداً على الفرع الذي نتعامل معه، فقلنا: هذا من حسن الطالع، ولم نكن نعلم

وقتها أن هذا كان تدبيراً محكماً من الهنود. ومن نجمة في صباح اليوم التالي كنا نلج باب البنك، حيث توجهنا إلى صالة كبار العملاء ووقفنا قبالة الموظف الفرنسي فرانسوا الذي يعرفنا ونعرفه، وفي دقائق أنهينا المهمة وتسلمنا النقود. وقبل أن نبرح الشباك، أشار لي أبو الشوارب بأن أحتاط لحقيبة النقود، وبدأ في التخابث على فرانسوا.

قال له بكلمات سريعة، ورأسه مائل ويضع يده في جيب سترته كمن يخرج شيئاً: لحظة، لحظة يامسييه فرانسوا؟
ثم سأله: عما إذا كان رصيد السيد/ كومار يسمح بصرف شيكٍ آخر بأربعة ملايين؟

فتأمل الرجل شاشة الحاسوب، قائلاً: أرني الشيك؟
وأبو الشوارب يشير له بأصابعه المضمومة بأن ينتظر، ولا يزال منهمكاً في البحث بجيوب السترة واحداً بعد الآخر ثم البنطال، ويقلب بعدها في دفتر بيده لعل الشيك بين الصفحات.
ثم نفخ بفيه في الهواء لاعتناً اللهوجة والنسيان! ولتأكيد موقفه زجرني ببضع كلمات متهماً إياي بأنني شغلته بالتفاهات عندما كنا بالشركة حتى نسي الشيك، وأنا معه على الخط وأعتذر، وفرانسوا قد انطلى عليه ما نفعل ويقول: لا بأس، لا بأس، ولا داعي للقلق، أسرعا بالشيك فالحساب إلى الآن يسمح..

فزفرنا براحة، إذ كان هذا أقصى ما نود سماعه، وخرجنا بالمليون وأبو الشوارب مزهو بنفسه ويقول:

- مش هيك مليح؟! ها نحنا استلبخنا صاحبك فرانسوا و اتأكدنا إن الجماعة مصاريهم جاهزة، المهم إننا ننشد الهمة ونسلمهم البضاعة وناخد نحنا مصرياتنا (فلوسنا) ونكبر الشركة كمان و كمان.

وأردف ونحن نغادر بوابة البنك:

- ما قلت لك قبل هيك إننا وقعنا على كنز وأماتنا داعيالنا.
وأنا تغلب عليّ شهوة المكاسب والأرباح، وهو يردد ما سبق أن قاله لي في لقائنا السابق:

- شو رأيك هلاً يا محترم، هتكمل معانا هون، وللا فكرك مشغول بمشروعك ياللي هونيك.

- مصر..

قلتها وأختي ليلي ترد على بالي، وأسخط من نفسي التي أنستني أنها كانت تريدني في أمر هام، وأنه كان من الواجب عليّ أن أتصل بها في الحال لا الآن بعدها بأسبوع!
وأعبر الشارع مسرعاً إلى الهاتف العمومي، وأبو الشوارب يصيح في ظهري:

- على وين يا زلمة؟! على وين؟!!

* * *

صوت ليلي حزين، وهي تبلغني بأن العم إبراهيم في رحاب الله الآن..

وتشرع في البكاء، ثم سرعان ما تعدل قائلة:

- قبلها بيومين بعث لي رسالة، قلت: أروح ما ارحش، أروح ما ارحش، وفضلت على كده لحد ما جت عمتي هانم لحد عندي، وقالت لي: دا في شدة يا بنتي ولازم تسألني عليه..

أعرف أن أختي ليلي أستاذة في الرعي، فحنثتها على الإيجاز:
- المفيد يا ليلي! المفيد!

- المفيد! خلاص أنا جاية أهه للمفيد، كان نايم في فرشته وكلهم حواليه، مد إيده واداني صُرَّة فلوس وقال لي: عديهم يا بنت أخويا، قعدت أعد أعد وكلهم زاغرين، وبعدها قلت له: دول عشرين ألف يابا إبراهيم، والصُرَّة زي ما هي قدامي، لا أنا عارفة اللي فيها بتاعي ولا بتاع مين! لحد هو ما قال: أنا عارف إنهم مش كفاية ولا يتعدوا عوض، إعتبريهم يا بنتي جبر خاطر وسامحيني .
ويضيع الخط، فأعود الاتصال..

- رححت هازَه راسي يا ابن والدي، وأنا بقول له في عبي: مسامحك، قام قال لي: أسمعها بوداني! عِدْتها مرة واتنين، وبعلو حسي قلت له: مسامحك، مسامحك، قال لي: من قلبك، قلت له: وحق الشدة اللي انت فيها مسامحك.

- وخذتي الفلوس؟

- خدتها! أمال هسيبها! وعلى طول جري على البيت.
وتضحك:

- وهما يومين واشتريت عجلين، قلت أربيهم عند عم إمام، وبيضت البيت وكام ألف كده لسه شايلاهم.

ويعود التأثر إلى صوتها:

- وسأل عليك يا جلال! قال لي: هاتيه من تحت الأرض، دا
برضه ابن اخويا وعمر الضفر ما يطلع من اللحم.
فقلت متسانلا:

- طب وأنا هطول حقي إزاي؟

- وهو أنا كتّ هنسالك، بعد العزا فتحت الكلام مع ابن عمك
فريد، قام قال لي: بس هو يرجع بالسلامة وساعتها يحطها ألف
حلال.

ووضعت السماعة، وأنا شأني شأن ليلي يختلط عليّ الحزن
بالفرحة..

* * *

(٣٢)

لم تمض أيام إلا ونفاجأ بإعلان في جريدة (اللوموند) بأن مؤسسة (كومار رامداس - إخوان) ومقرها كلكتا، ترغب في استيراد صفقة من البغال الفرنسية المخصصة للأعمال الشاقة وجر الأحمال، ورقم الهاتف المدون بالإعلان هو نفس الرقم الذي نتعامل عليه مع السيد/ كومار؛ فضلا عن أن الاسم هو الاسم (كومار رامداس).

فقلنا أنا وأبو الشوارب في نفس واحد: إنهم هم (ولاد الإيه!) فلنسرع، قبل أن يسبقنا أحد إلى هذه الصفقة.

والتقيناهم من جديد ومعنا العم چاك، والحال هو الحال، أكياس التبغ والبايبات والقامات التي تثير الانتباه.

لم يجيئوا هذه المرة بالمعاطف والبذلات، أتوا كلهم (إسبور)، بناطيل جينز وأحذية من الكاوتشوك، وعلى كل واحد منهم غطاء رأس أشبه بالبيرييه. بدؤا كفريق من الأقرام في رحلة سفاري،

والثلاثة على أعينهم نظارات ماركة (ريبان). وأنا الدهشة تأخذني،
وأسأل نفسي عن النظارة الطبية التي كان يضعها على عينيه السيد/
كومار؟ وبالله كيف يرى ويدقق في الأرقام المدونة بالورق الذي
بأيدينا، رغم أنها بخط صغير!؟

وأبو الشوارب انتهاز الفرصة ليؤكد لهم، على أنه قادر على أن
يجلب لهم ما يشاؤون!

ليس البغال فقط، فهذا أمر بسيط، وإنما أي فصيل ولو نادر من
القطط والكلاب والأسماك، وأجبان المعيز لو أحبوا أو حتى لبن
العصفور، والبراعي والمسامير وإطارات ميشلان وقطع غيار الرينو
والبيجو، وكل ما يُشترى ويُباع في بلاد الغال من الإبرة للصاروخ.
وأنا مشفق من هذه المبالغات، والعم چاك يقاطعه المرة تلو
الأخرى كي يكف ويدخل في الموضوع، والسيد/ كومار يومئ له
برأسه كل دقيقة دون أن نلحظ بالطبع ردة فعله، (فابن الذين هذا!)
كان يرانا جيداً من وراء عدسات الريبان، ونحن لا نرى ما تقوله
عيناه. ولما بلغ به السأم من أبي الشوارب، نقر بإصبعه على حافة
الطاولة التي بيننا قائلاً: بأنه ينظر إلى صفقة الثياب التي أبرمنا
اتفاقها ودفع لنا عربونها، على أنها بادرة تعامل لنا معهم واختبار،
وإذا أثبتنا جدارتنا وسلمناها في الميعاد وحسب المواصفات، فإنه
يعدنا بالأ تفلت من أيدينا صفقة البغال.

ويعم سكون تعقبه حكة بإصبعه على جبينه، ثم يميل على
رفيقه متحدثاً معهما بلغتهم المحلية. حديث قصير غير أن به شيئاً

من الشد والجذب، وانتهى على حسب ما فهمنا بتسليمهما بنصيحته.
ونفاجأ به يُخرج لنا دفتر شيكاته ويوقع لنا على شيك جديد بنصف
مليون، فيحسب أبو الشوارب وأنا معه بأن هذا الشيك دفعة جديدة
من صفقة الثياب، وملتزم الصمت لنسمع المزيد. غير أنه ينشغل
عنا ببعض التعاويذ التي يتمم بها، ويرمق رفيقيه ثم يرمقنا قائلاً:
أنتم أناس طيبون!! طيبون وحق الله!! وقد جننا من وراء البحار
وفي ظننا أنه قد يصادفنا سوء الحظ، ونقع فريسة في أيدي تجار لا
يرحمون، لكن الله استجاب لدعوات أمهاتنا، وللنسوة والعجائز
الذين سلمونا أموالهم لنتاجر بها لحسابهم..

ويتنهد مرتاحاً لنا ثم يكمل: وقد حاورت رفيقيّ كما سمعتم،
ووافقا على منحكما صفقة البغال، فلكما الصفقة يا محترمان، وهذا
الشيك يا سيد/ شوارب ليس من الحساب القديم وإنما للبغال!! خذاه
يا أفاضل بوصفه عربوناً أو ربط كلام، فقد انفتح قلبي لكما..
وينظر إلى رفيقيه، فيومان برأسيهما لي أنا وأبي الشوارب،
قائلين بصوت واحد: ونحن الأخران انفتح قلبانا لكما..

فببادل أنا وأبو الشوارب الإيماءة، بإيماءة أحسن منها..
ويكمل السيد/ كومار: ومن الآن فصاعداً لن أتعامل مع
غيركما، وبكل ثقة أقول أصبح لي إخوة كرام في هذا البلد.
وأبو الشوارب يقبض بأصابعه على الشيك غير مصدق ولا
أنا، والعم چاك يدق على آلتة الحاسبة ليعرف مقدار عمولته في
الصفقة الجديدة..

ويبدو أن السيد/ كومار شعر بأن أبا الشوارب هو من بيده الأمر، وأنا مجرد إمعة وليس لي أي دور، فانتحى به يتكلمان في أمور الحياة والعم چاك ينقل بينهما الحديث. ولما طال عليه الوقت انتابه الملل وبدأ في (الكرؤتة)، يترجم جملة ويبتلع اثنتين حتى فرغت الجلسة. وعندما ولوا بظهورهم حمدنا الله على هذا الشيك الذي جاءنا على الطبطاب، والعم چاك لا يزال واقفاً لم ينصرف ويسأل عن نصيبه في صفقة البغال، وأنا وأبو الشوارب نقول له بغم واحد: استح ِ يا أخي! فالأيام قادمة والصفقة لا تزال كلاماً في كلام!

* * *

لا أعرف ما العلاقة بين البغال الفرنسية، وفاكهة وخُضر
أخيها الليثي!!

فقد لاح الليثي في خاطري أثناء جلستنا مع الهنود، تذكرت يوم أن ولجت بوابة سوق روض الفرج باحثاً عنه، وعندما كان يدفع أنفاس الشيشة من أنفه وهو يقول: إنه على استعداد لأن يضع يده في يدي وأصبح شريكاً له في تجارة الخُضر والفاكهة، غير أنه لا يفهم ولا يعمل إلا في محاصيل زمان الخالية من الأدوية والهرمونات.

ويبدو أن رائحة المكاسب التي أتوقعها من هؤلاء الهنود شجعتني، فقلت في نفسي: ولماذا لا أبدأ الآن في جمع المعلومات عن حال السوق هنا كي تنفعني عندما أبدأ في المشروع. فتركت أبا

الشوارب والعم چاك، واتجهت مسرعاً إلى البيت لألحق بالشيخ منجي، فاليوم إجازته وقد سبق أن وعدني بالمساعدة في هذا الأمر. وكان الرجل عند حسن الظن، اتصل أمامي وفي الحال بتاجر مغربي الأصل اسمه الشيخ (بومكناس)..
وعلى الفور ذهبنا إليه بسوق الجملة..

* * *

كان والله رجلاً يملأ العين..
ومن شدة اعتناؤه بمظهره، البالطو الكشمير والحذاء الكلاركس والنظارة الكارتييه، بدا لي وكأنه يتاجر في الأحجار الكريمة وليس في الخُضر والفاكهة.

محله كبير. من طابق واحد تعلوه سَنَدْرَة. وكراتين مرصوصة فوق بعضها البعض، برتقال ويوسفي وكويو وكوسة وبازلأء وخيرات أخرى كثيرة. وهي على كل لون، المزروع زراعة حرة أو في (صُوب)، والمَهْجَن أو (بعبله) وعلى خلقته الأولى التي خلقها لنا الله. وأرضية المحل نظيفة من غير سوء، فلا ثمرة تالفة أو عود جرجير أو بصللة ورؤوس ثوم سقطت من زنبيل، ولا بصقة أو ورقة ملقاة أو حشرة تتنطع هنا وهناك، وجهاز للحاسوب يعلو طاولة من الخشب، أمامه رجل يدق على الأزرار حاسباً الداخل والخارج والنفقات والأرباح.

والسوق بمجمله روائح وصخب وهرولة ومشاحنات، وقلة أدب أحياناً وسباب، وممرات تجوبها مركبات تدخل ببضاعة

وتخرج بأخرى، وفاكهة وتمر ورمان وحب النارج وكراتين لا تدرکہا العين كأنما قوت الدنيا جُمعَ في هذا المكان.

التقانا الرجل مرحباً، وأجلسنا على مقعدين بحذاء جدار تعلوه صورة للملك الحسن الثاني بلباسه المغربي، وقدم لكل واحد منا قنداً من اللبن المخلوط بقطع التمر كعادة أهل المغرب في الترحيب، ولما أجهزنا عليهما لحقنا بالشاي الأخضر.

وقبل أن نبدأ في الحديث، أشار الشيخ منجي بسبابته إليّ مزكياً:

- إسمعني يا شيخ بومكناس، هاذا بحال ولدي وكان راجل بنتي خديجة الله يرحمها، الله يعطيك الستر تهله فيّه (تساعده من أجلي).

فيربت الرجل على الطاقية البيضاء التي تعلو رأسه:

- هو فوق راسي..

وأبيض أنا عما في مخيلتي ورغبتني في زراعة قطعة أرض ببليدي بالخضر والفاكهة، على أن أخصص هذا الإنتاج إلى فرنسا. وأني أتعشم أولاً أن يكون هو المستورد، وإذا وافق يُعرفني بالأنواع التي يحتاجها السوق هنا والمواصفات التي تقبل بها، ويعطيني من خبرته قبل أن أشرع في الزراعة والتصدير.

والشيخ منجي يؤازر:

- نصحه يا شيخ بومكناس، نصحه نصحه بارك الله فيك.

مكثت زهاء الساعة وأنا أشرح للرجل، حتى لاحظت أن شدة

حماستي أدخلتني في دوامة التكرار، وطفقت أعيده عليه ما سبق أن قلته وبنفس العبارات والكلمات. والرجل طويل البال ويستمتع، وبعد أن تأكد من أنه لم يعد لدي شيء أضيفه، قال:

- خلي عليك (سيبك من) شغل الخُصرة يا ولدي، دير بالك في شي آخر.

والتفت إلى الشيخ منجي مردفاً:

- وأنا من شان ها الشيخ هنجيب لك شغل فلوسه أكسب، إيش تاتقول؟! (إيه رأيك؟!).

كدت أقول له: إن أحوالي بخير والحمد لله ولا أبحث عن مورد رزق، إنما المسألة رغبة مني في الارتباط ببلدي بعمل مفيد، والزراعة هي حرفة أهل أبي فدعني أجربها وأصدّر لكم. كدت أقول هذا لولا الشيخ منجي الذي لكزني في ركبتني كي أتريث وأستمع إلى ما يُقال، واستطرد الشيخ بومكناس:

- فكر في الجرانات (الضفادع) يا ولدي، الجرانات هي جيبك فلوس كثيرة.

- الضفادع!! ضفادع إيه يا عمنا الشيخ؟!!

- إبيه الزفادع مثل ما بتقول! تجمعها من الواذ (الترع ومجاري المياه) وللا تربيتها في الأراض، وتصفتها لينا (وتصدرها لينا) في كراتين.

وأنا تأخذني الدهشة وأحرق فيه محبطاً، وهو مستمر في

الكلام:

- السوق الفرنسي يا ولدي محتاج جرانات، والجرانات
المصري كبار ولذاذ، وأنا تنعرف (أعرف) تاجر دزائري
(جزائري) غياخذ (هياخذ) منك السلعة كلها.
فأهز له سبابتي بضجر: بأن لا. لا. لا. إلا الضفادع! وهو يظن
أن فيها كل الخير، ويحببها لي:

- إسمعني مزيان (إسمعني كويس) سوق الجرانات في فرنسا
غتجيبك فلوس كثيرة، والفرنسيس هنا تبغيوها تياكلوها في أحسن
رستورانات.

ويلحظ الشيخ المنجي التأفف البادي على وجهي، فيتدخل قائلاً:
- إيش تاتقول يا شيخ بومكناس! إيش تاتقول!! مالنا نحنا واللي
ياكله الفرنسييس! الله يطичه في كروشهم وهاذا اللي ياكلوه
يمرضهم.

ويشبح بيده غاضباً:

- بَعْدَ عن ولدي جلال الزفاضع والحنوشة والسعادين وكل ما
يؤذي الكروش! وخلينا نحنا يا شيخ في موضوع الخُصرة أحسن
لينا.

فيسايرنا الشيخ بومكناس، ويقول لي:

- دير اللي بغيتيه يا ولدي (إعمل اللي انت عايزه يا ابني)،
لكن متنساش إن المصريين منجهوش في شغل الخصرة، وأنا
خايف عليك يا ولدي إنك تفشل بحالهم (زيهم).

وخلى موضوع الضفادع وبدأ في الحديث معي عن الفاكهة

والخضر، وإكراماً لخاطر الشيخ منجي، قال لي: إن محله سوف يكون أول المستقبليين لبضاعتي. ودنا مني يسدي لي النصائح عن حسن التغليف وأن يكون الثمر طازجاً وبأحجام متساوية قدر الإمكان، وإن أردت التميز فعلياً أن أحرص على أن يكون الزرع خالياً من أية إضافات سوى السماد، وحبذا لو كان هذا السماد طبيعياً من روث الدواب فقط. فثمر هذا الزرع له قدر كبير هنا، ومطلوب في المطاعم الراقية والفنادق فئة الخمس نجوم، وأعطاني ورقة مسجل بها بياناته وكيفية الاتصال به في حال التصدير.

* * *

(٣٣)

التقينا كلنا بمطار (أورلي)، عازمين السفر إلى أم الدنيا..
العم يعقوب بقميص أساوره مذهّبة وبذلة وربطة عنق، وأمي
بالجينز وفوق رأسها قبعة، وتخطو بانحناءة نحو الشمال كأنما القدم
التي هنا تشكو من عرج خفيف.
والمسكينة مهما تغندرت أو لوت لسانها، هي كاميليا بنت زكي
الأزرع الذي كان يكسب رزقه سحتوتاً بسحتوت. ولم يكن لها
مشاوير إلا عند البقال والجزار والعطار، وكل ليلة سبت إلى
(سينما مصر) بشارع الجيش، أو إلى مدام (رطل) التي كانت
تعلمها شغل الكروشييه. ودماغها هذا الذي أسفل القبعة، جزء غير
هين منه لا يزال محشواً بكلام أم حسن وأم نبيل، وما كانت تقوله
(صفية المهندس) كل صباح في برنامجها الإذاعي الموجّه لربات
البيوت.

وإلى جوارهما زوج خالتي بيلا (الزلنطحي هارون)،
بخيشومه الكبير وطقم الأسنان. كنت أمقته وأحسبه دائماً فالت
الزمام أو واحداً من رجال العصابات، ليس الكبار منهم وإنما
الحنالة التي تقوم بأحط الأفعال. تبدل حاله الآن، ويحاول النذل
تحسين صورته، لكن مهما فعل لا يزيد على كونه مجرماً متقاعداً.

* * *

أنا آخر من وصل، والمفاجأة أن خالي شمعون كان معي،
وبيده هو الآخر حقيبة السفر.

التقوه بدهشة، وقالت له أمي بشيء من الامتعاض:

- طيب جلال ومسافر معنا على حسب الاتفاق، وانت هنا

بتعمل إيه؟!

يتلاشاها مقترباً من العم يعقوب، وتقلب هي كفها قائلة:

- وبعدين انت مش واعى لنفسك وللا إيه يا شمعون! دا انت

اللي زيك تلزمه مستشفى وعلاج، مش سفر ووجع قلب وتنتطيط!

وهو بوادر غضب تلوح على وجهه، وعيناه غير غافلتين عن

هارون الذي يرمقه ساخراً. وتعلن سماعات المطار عن طائرة

مصر للطيران المتجهة إلى القاهرة وأنه تأخر ميعاد الإقلاع،

فترفع أنا والعم يعقوب أعيننا نحو مصدر الصوت، وهارون يشعل

الموقف متحكماً على الخال:

- أختك شفقانة عليك يا أبو لبيب، وقصدها تقولك انك عدمت

ومعدش فيك حيل، وبلاها حكاية السفر دي يا ابن الحلال؟!

فيلوّح له بسبابته محذراً:

- بَعْدَ عني يا هارون، انت بالذات تبعد عني.

وينتقل إلى العم يعقوب:

- إحضرنا يا أبو سيمون، واحد هفت عليه بلده، واحد لا طلب

منهم حق التذكرة ولا قال لحد اصرف عليّه هناك، ليهم دعوة بيه؟!!

فيومئ له العم يعقوب بما يفيد الإيجاب، وبأن معه كل الحق.

- يبقى خلاص يا سيدنا البيه! نبه بقى على الرجل اللي معاك -

ويشير إلى هارون - يلزم حدوده، وعلى الست بتاعتك تسييني في

حالي.

فترد أمي بصوت خافت ضجر:

- الست بتاعته!!

يُسكّتها العم يعقوب بإشارة من يده، ويدعونا كلنا لتناول

مشروباً لحين إقلاع الطائرة. يتردد خالي وهو ينظر إليّ، فأشير له

بأن: نعم، فيستجيب ويسير إلى جوارى وديعاً صامتاً، فالمسكين

لأنّي تكفلت بنفقات هذه الرحلة، أبدو له كما لو أنّي وليّ لأمره،

ويشاورني في الصغيرة قبل الكبيرة.

وأنتحي بأمي وأسألها الرفق به، وعمّا جرى لقدمها فتجيب

بصوت كالهمس:

- دا كان حتة يوم والحمد لله إنه عدّى على خير، أنا أول ما

سافر سيمون من هنا ويمكن كان لسه نازل على السلم بالشنط

ومعاه يعقوب، رحّت ساحبة كرسي وطالعة عليه علشان أشيل

صورة الست دي اللي اسمها ليليان، وأول ما مديت إيدي على الصورة رحت متطوحة من فوق، والبرواز هو راخر انكسر نصّين! ويعقوب لما رجع من المطار زعل وكانت خناقة لرب السما!

- والصورة؟

فتقول، وهي تتلفت بعينيها حذرة من زوجها يعقوب:

- صورة إيه! ما خربشتها وكعمشتها، وقلت له: عمرها لحد

كده، وللا انت زعلان عليها مش على رجلي اللي اتلوت!

* * *

وصعدنا إلى الطائرة..

هم إلى مقصورة الدرجة الأولى، وأنا وخالي إلى مقعدين بنيل الطائرة. لم آخذ معي كتاباً أو جريدة أو أي شيء أقرأ فيه، من غشمي ظننتها فرصة لأتكلم وأرغي مع الخال أثناء الطريق، غير أنه خذلني وقبل أن تترك الطائرة سماء باريس، كان هو قد تسلطن وفتح في النوم!

وعندما هبطنا، نظر كل منا إلى صاحبه وأخرج الخال علبة سجائره والقداحة. أشرت له على العلامة التي تحظر التدخين، فأوماً برأسه ثم أعاد القداحة دون أن ينتبه إلى أن علبة الدخان انزلقت وسقطت بجوار قدمه.

تغير وجهه..

تغير عما كنا في المطار، أو حتى قبل ساعة عندما استيقظ

وكلمني عن ابنه إسحاق..

تغير لا على نحو يوصف، بل يُحس..

فسكون غريب كان يطفو على وجهه. ليس مجرد سكون، بقدر ما هو تعطل عن التعبير. وليس هو أيضاً بالسكون الذي تبوح فيه الأسارير ونفهم منها، أو حتى سكون يتغشاها الالتباس والغموض. شيء مختلف. فيه من هذا وذاك. يعبر وكأنه لا يعبر. لا يبوح وكأنه يبوح..

عزوت ذلك إلى ما كان فيه، فقد كان مشتاقاً إلى هذه اللحظة ومستغرباً لها في آن، وربما كان قلقاً أو حتى متوجساً، والأهم والذي بدا لي بوضوح أن جهازه العصبي لم يكن يعرف كيف يتعامل مع أول دفقة من دقات الوصول. وأبادره بابتسامة فيفعل الشيء ذاته، ثم يتجهم ويدعني ناظراً من النافذة إلى تلة من العمال، تنصب سلم النزول على باب الطائرة. عيناى تجريان عليه..

وجهه من الجانب الذي أنظر إليه نحيل شاحب وثيابه لا تليق، حتى شعر ذقنه لم يجر عليه موسى الحلاقة باتقان، وهو كله هَش لا وزن له، ولا مجال لتصنيفه أو حشره إلا في زمرة الغلابة والمساكين.

ويعود إليّ..

يهم برفع حاجبيه، فأحسب أن هذا من باب التركيز وأنه سيقول لي شيئاً غير أنه لا يفعل. يخرج مشطاً من جيبه العلوي وأيضاً لا

يفعل به شيئاً، يُقلبه في يده وينظر إلى الساعة ثم بعد دقيقتين، يسألني: كم الساعة؟! وهل سنركب باص شركة مصر للطيران ونصل به إلى ميدان الأوبرا، وبعدها نتصرف في أي مواصلة إلى الظاهر؟

أقول: شركة مصر للطيران أوقفت هذه الخدمة منذ سنين، وسنستقل تاكسياً إن شاء الله.

يقول: ولماذا التاكسي؟! أود ركوب الأتوبيس، ويهب واقفاً وهو يقول: هيا بنا فالركاب يهبطون..

لم يهبط أحد بعد، وينادون علينا من السماعات بأن نلزم مقاعدنا إلى أن يُفتح باب الطائرة، ولا أحد من الركاب يعنيه هذا النداء والحركة على أشدها. والخال عندما يسحب حقيبته من أعلى يكتشف أن المشط لا يزال في يده ويعوق حركته، فيتأمله مستغرباً ويفكر لحظة في تمشيط شعره لكنه يعدل ويعيده إلى جيب سترته، ويتذكر علبة الدخان ويبدأ في البحث عنها، فأشير له عليها حيث كان يجلس فينحني ويلتقطها.

* * *

ممر الطائرة مزدحم بالحقائب والناس، وامرأة سميحة تزن قنطارين انحسرت عند المنتصف، والذين وراءها يضربون أحماساً في أسداس ويلعنون حظهم، غير أن خالي فعلها وتخطى الجميع وأنا لا أزال في موضعي. ودفعةً فالثانية وتصدّر ركاب الدرجة الثانية المحجوزين على أول سلم النزول، حتى يكتمل

هبوط سادة الدرجة الأولى الذين في الأمام.

وعند قاعدة السلم كانت جماعتنا قد هبطت وتنتظر، ويلمح هارون خالي فيشير له من أسفل بأن يرحم نفسه ويهدأ وإلا انكفأ على وجهه وتدحرج، وهو يشير له من أعلى بأن يغلق فمه! وأمي وإلى جوارها العم يعقوب شاردان، وعندما نزلت احتضنتني فجأة ولمحت دمعة تتكون على طرف جفنها. عانقت خالي شمعون هو الآخر وسألته ألا يأخذ في خاطره منها، وسلم العم يعقوب عليّ وعلى الخال بحرارة كأنما لم نكن معاً على نفس الطائرة، ثم سحب نفساً عميقاً من السيجار.

النهار على وشك الرحيل وأشياء بالنفس تولد لتوّها، وطائرة صوتها جبار تجري كما الريح وتتأهب للصعود، وأخرى تهبط برفق ومن نوافذها أناس ينظرون. استعجال وحركة ونسمة تهب ألطف وأحن من مكيف الطائرة، وأذان المغرب يصعد عالياً فيدفعني إحساس فطري إلى الالتفات حولي باحثاً عن أقرب مؤذنة، وألحظ أُمي كما لو أن أذنيها هما الأخریان تتلقيان الأذان. وفي اللحظة ذاتها تلوح بخاطري مؤذنة الجامع القريب من بيتنا، وهي تقول لي: إنها تضبطني على الأذان! فعندما يُؤذن للعصر تبدأ المذاكرة، وأول ما يرفعون أذان العشاء تغلق الكتاب حتى نأكل لقمة معاً ثم تعود ثانية إلى المذاكرة.. فهل يحوم في بالها الآن، هذا الذي يجوس في خاطري!

لم ننتبه إلى أنفسنا إلا لما دق سائق الباص النفير، ونبهنا

شرطي في الجوار إلى أنه لا تلكؤ هنا وعلينا الصعود. تفتنا على
هارون قلم نجده، كان قد سبقنا إلى الباص ويتشاجر هو
والمرأة السمينة ذات القنطارين عن أحق من الآخر بالجلوس!
وعلى باب المطار تفرقنا..

أمي وزوجها يعقوب ركبا الليموزين إلى فندق شبرد على
ضفاف النيل، فهذه البقعة أثيرة لديه وكم من مرة حكى أمامي عن
طفولته وصباه بها، وباص مدرسة الليسيه الذي كان يركبه عند
ناصية فندق سميراميس القديم. أما هارون فكان من سكان (بركة
الرطل) المتاخمة لحي الظاهر، سلم علينا مستأذناً فقد حجز لنفسه
في بنسيون بباب الحديد، وطرنا أنا والخال إلى أم حسن التي
أعلمناها من قبل بميعاد قدمنا.

* * *

(٣٤)

لم تجد أم حسن حرجاً في البقاء بالشقة، رغم وجود خالي
شمعون..

قالت راضية مُرحّبة:

- إن كان على شمعون، شمعون مش غريب وفي الأول
والآخر دا زي ابني وللا أخويا الصغير.
وتتهد:

- ياه! روح يا زمان وتعالى يا زمان!! فين لما كان بيروح
مدرسة الخديوي إسماعيل، وللا يوم ماخذ التوجيهية، ووالدته الله
يسامحها الست إيئون راسها وألف سيف لتجيب فرقة وتعمل قعدة
فوق السطوح، وللا عم زكي ألف رحمة عليه.

وخالي الجالس على الكنبه، لا تزال الحقيبة أمام قدميه ووجهه
مرتاح لما تقول. برهة وتذهب عيناه إلى غرفة جدي..

الغرفة بابها مُوارَب على خفيف. مجرد همسة. تفتحم عيناه هذا الجزء المفتوح. الغرفة مظلمة ولا شيء يبدو له من هنا. يعيد المحاولة ماداً عنقه قليلاً إلى الأمام، ومع حركته هذه تلتقي أعيننا فلا أشعره بأنني ألحظ ما يفعله.

لحسة عنبر على طرف عود كبريت تقلبها أم حسن في أفداح الشاي، وهو لا يملك زمام نفسه وعيناه مستعدتان لأن تدفعا من عمرهما وتعرفا ما الذي حل بغرفة أبيه، أو تلتقطا شيئاً من أسيانها..

نداء أحد الباعة يأتينا من النافذة، وامرأة في شرفة قريبة تستوقفه، والخال عيناه تحطان على ماكينة الخياطة.. لعله يرى الآن أمه (الست إيقون) تجلس أمامها بجلباب البيت، محنية تقضم فتلة بأسنانها أو تمرر حرف فستان أسفل السنون.. ويصعد إلى صورتها المعلقة على الجدار، وإلى جوارها خالتي بيلا بثياب المدرسة..

يتحسس ركبته قائلاً:

- أنا فاكِر الصورة دي كويس!

ويخفت صوته:

- وزى ما يكون النهارده!!

ويجول بعينه فينا، ونبرة صوته تتلون مع وقع الكلام:

- كان درويش المصوراتي ساعتها لسه فاتح جديد والماما

رايحة تتصور عنده، وعلى باب العمارة وهي نازلة شبتت فيها

أختي بيلا وهي جاية من المدرسة، وكنت أنا بالعب كورة في الشارع وقلت لهم: على فين؟ خدوني معاكم؟ راحت الماما قايلالي: تيجي معنا فين، وإننت مترب ومعفر كده زي الكناسين! روح روح كده شوط لك كورة، وللا الحق أحسن يدخلوا فيك جون.

وأم حسن تتذكر:

- مظبوط يا خويا مظبوط! وكانت الحكاية دي سنة خمسة وتلاتين بالملي، علشان إحنا وانتم جينا نسكن هنا في العمارة سنة تلاثة وتلاتين، ودرويش أفندي فتح المحل بتاعه بعدها بسنتين. وتردف بنبرة حانية:

- والنبي بيلا وحشتني، عاملة إيه مع بسلامته هارون؟

فقلنا: الحمد لله.

وسألت عن أمي، فأكدنا على أنها بخير هي الأخرى. لم نشأ إبلاغها بأنها هنا في القاهرة، خوفاً من أن تغضب لأن أمي لم تكلف خاطرها بالسؤال عنها. تركنا هذا الأمر للظروف، فنحن لا نعلم ما تخطط له أمي وهل سوف تجيء أم لن تجيء؟!

* * *

ومضت الأيام والمرأة على كِبَر سنها تجوس في الشقة أمامنا، وترعانا في الأكل والشرب والغسيل، غير أنها أجرت عدة إضافات على ثيابها. فالطرحة أو شال يغطي شعرها ليل نهار، رغم أنها لم تكن تدقق في هذه المسألة عندما كنا وحدنا، والجورب لا يفارق قدمها. ولا تشمير للذراع أثناء الطبخ أو التنظيف، وإنما

كَبَّاسِينَ الْأَكْمَامَ مَقْفَلَةً عَلَى الدَّوَامِ، وَسَعْلَةً تَنْبِيءُ بِقُدُومِهَا إِلَى الْمَكَانِ
الَّذِي نَحْنُ فِيهِ، وَلَا اسْتِحْمامَ أَوْ مَسْحَ لِلرَّأْسِ أَوْ وَضْعَ الرَّجْلِ عَلَى
الْحَوْضِ لِلوَضُوءِ إِلَّا بَعْدَ أَخْذِ أَلْفِ احْتِيَاظٍ.

وَبَقِيَتْ هِيَ فِي غُرْفَةِ أُمِّي الْقَدِيمَةِ، وَأَنَا وَخَالِي بِغُرْفَةِ جَدِي
وَنَنَامُ مَعاً عَلَى السَّرِيرِ. كُنْتُ أَحْسِبُ أَنَّ النُّومَ سَوْفَ يَجَافِيهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ
كَعَادَةِ مَنْ يَغْيِرُ مَكَانَ نَوْمِهِ إِلَى مَكَانٍ جَدِيدٍ، غَيْرَ أَنَّهُ كَذَبَ ظَنِّي
فَيَبْدُو أَنَّهُ كَانَ مَرْتاحاً لِهَذَا الْمَكَانِ الْجَدِيدِ، وَصَرَعَهُ النُّومُ فِي الْحَالِ.
وَكَانَ هَذَا وَبِالْأَعْلَى، فَمَا إِنْ أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ حَتَّى بَدَأَ فِي الرَّفْسِ
وَالشَّخِيرِ وَبَلَا أَيِّ أَدَبٍ أَوْ احْتِرَامٍ، وَمَرَّةً وَهُوَ فِي عِزِّ النُّومِ سَبَّ
الَّذِينَ لِهَارُونَ!

وَقَدْ تَرَكْنَا لَهُ تَحْدِيدَ قَائِمَةِ الطَّعَامِ..

فَفِي يَوْمٍ يَقُولُ مَلُوحِيَةً بِالذَّجَاجِ وَيَوْمَ لَحْمِ مَسْلُوقٍ وَفَتَةً بِالخَلِّ
وَالثُّومِ، نَاهِيكَ عَنِ لُقْمَةِ الْقَاضِي وَالْكَنَافَةِ وَالْبِقْلَاوَةِ وَغَيْرِهَا مِنْ
الْأَشْيَاءِ الثَّقِيلَةِ الَّتِي تُؤْذِي الْبَطْنَ وَتَخْلُجُ الْجَسَدَ السَّلِيمَ. وَأَمَّ حَسَنَ
(طَيْبٍ وَحَاضِرٍ وَعِنْيَهُ الْإِثْنَيْنِ)، وَبَعْدَ أَنْ يَكْنَسُ كُلَّ مَا عَلَى الْمَائِدَةِ
مِنْ أَطْبَاقٍ تَأْتِي لَهُ بِكَنْكَةٍ قَهْوَةٌ أَوْ سَطْلُ شَايٍ. وَأَنَا يَدِي عَلَى قَلْبِي
وَكَلَّ يَوْمٍ أَقُولُ: اللَّهُمَّ فَوِّتْ هَذِهِ الْأَكْلَةَ عَلَى خَيْرٍ، فَخَالِي كُلَّهُ
أَمْرَاضٍ، وَالْأَطْبَاءُ هُنَاكَ فَرَضُوا عَلَيْهِ الْبِقْسَمَاطَ وَالسُّوتِيَةَ وَأَرْبَعَ
مَلَاعِقَ أَرْزَ فَقَطَّ عَلَى الْغَدَاءِ، وَإِذَا اشْتَهَى اللَّحْمَ فَصَدَرَ كَتَكُوتِ كُلِّ
يَوْمِينَ..

وَكَنْتُ أَتْرَكُهُ أحياناً بِالنَّصْفِ يَوْمَ، وَأَعُودُ لِأَجْدِهِ هُوَ وَأَمَّ حَسَنَ

في الشرفة أو أنزلا حاشية الكنبه وجلسا أرضاً وهات يا كلام عن الجبن الرومي الذي كان يباع في بقالة الخواجة كافورس، ويوم أن جاء العساكر والضباط بالطرايش وحاصروا بيت السخاوي وأخرجوا من دولاب (البت عنايات) فردتين حشيش، ومستشفى (سيد جلال) التي بدأت بغرفتين والآن ما شاء الله بناية من خمسة أدوار!

أرمقه حيث يجلس بمنامته وأمامه علبه الكيلوباترا وأكياس اللب والفول، أو وهو خارج من الحمام وبيده مجلة آخر ساعة أو جريدة أخبار اليوم، وأقول في نفسي: أهذا الملتوت المعجون في حوارى الظاهر وسيدنا الحسين ليس في بيته وبين أهله الآن، أم هو مجرد رجل غريب حطت رحاله عندنا، ومن حيث أتى سوف يعود حسبما تقول الأوراق والأضابير!! بل وتؤكد أن بقاءه في أرض الكنانة محسوب بالأيام، وإن جرى منه شيء أو وقع له مكروه، فعلينا بكفيله المحترم قنصل بلاد الغال!!

فشتان بين ما تفهمه أم حسن، وما في دماغ مدير الجوازات!

* * *

(٣٥)

وبدأ أبو السعد في التردد علينا..

فهو وخالي كانا صاحبين، والذي عرفته بعد ذلك أنهما كانا يتراسلان على فترات. وأن أبا السعد طالما أرسل للخال طروداً تحوي سلسلة (إقرأ) وبعض سلاسل دار الهلال، ولم يرسل له خالي سوى طردتين، واحد به بعض أدوات المكياب لابنته هديل، والثاني كان مرجعاً في علوم الزراعة وأيضاً لهديل.

والآن هما معاً أغلب الوقت، ويغطسان فجأة ثم يقولان: إنهما كانا بحي الحسين ورزعا أكلة كوارع بمحل (العهد الجديد)، وبعدها إلى الغورية على الأقدام حتى بوابة المتولي ثم شارع الخليج، أو كانا يتمشيان في وسط البلد، ومرات كانا لا يصرحان بالمكان الذي كانا فيه..

وساعات كانا يجلسان بغرفة الصالون بشقة أبي السعد أفندي،

يستمعان للشرائط المسجلة بصوت عبد الوهاب.

الخال يعود في طرفة عين إلى أيام زمان، ويهيم مع عبد الوهاب وهو يشدو ويقول:

عندما يأتي المساء..

ونجوم الليل تنثر..

اسألوا الليل عني..

متى نجمي يظهر..

أو عندما يقول:

اجري .. اجري..

وديني قوام وصلني..

دا حبيب الروح مستني..

ويخالجني الشك في أن أبا السعد أفندي، والتي هذه الشرائط من اختياراته، كان يحور كل ما يسمعه على حكايته القديمة مع خالتي بيلا. ولو استطعت الدخول إلى رأسه في هذه اللحظة والتحليق مع ما يحلق فيه، لوجدتها تتدلل أمامه بفستانها الحمالات، أو لعله تعفرت وانفرد بها في شارع جانبي ويطبّع على شفيتها قبلة الآن.

تأكدت ظنوني، عندما قام من مقعده وأدار شريطاً جديداً يترنم فيه عبد الوهاب ويقول:

يا مسافر وحدك..

يا مسافر وحدك وفايتني..

ليه تبعد عني وتشغلني..

دا عنّيّه دموعها..

دموعها بتتكلم..

فيبدو أن المسكين أهاجته الذكرى، وكنت أشعر بخيبة أمله ونظراته
المحبطة لزوجته الست نظيرة، وهي تخرج وتدخل علينا بجسدها
المهول وبين يديها صواني الحلوى والشاي بالحليب..
ورأيت هديل..

دخلت تسلم على خالي شمعون، سلمت عليه ثم عليّ، ولا
أعرف من منا بالضبط الذي بدأ بالضغط على يد الآخر، أظنها هي
وأنا جاريتها. والست نظيرة في المطبخ أمام الحوض، ولا تدري
بالذي يجري من وراء ظهرها سواءً من ابنتها أو بعلمها.

* * *

وذهبت مرة برفقة الخال إلى حارة اليهود..

كان يود لقاء صديق يهودي قديم اسمه (حزان)، لا يزال له
محلّ هناك. فقلت: على بركة الله، ودخلنا إليها من الموسكي عند
تقاطعها بشارع الخليج.

لم تكن حارة مثلما حسبت، بل متاهة من المتاهات!
فعمودها الفقري مجرد حارة تافهة ضئيلة، تتصل بها وتتقاطع
معها حارات أخرى ودروب وأزقة، وكل هذه الأشياء في مجملها
وبصغيرها وكبيرها يسمونها هنا حارة اليهود.

فالاسم حارة، والفعل بيت من بيوت جحا!

إذ إن كل واحد من هذه الأشياء، وسواء هذا العمود الفقري أو ما يتفرع منه يبدو كالأفعى عندما تمد رأسها نحو ذيلها، وبدائياتها بالتالي هي نهاياتها، وإذا لم تكن منتبهاً لهذا الأمر وتعاملت هنا مثلما تتعامل مع الشوارع التي تألفها، فأنت واهم وتضع نفسك موضع الضحية! وفي اللحظة التي تحسب فيها إنك انتهيت ستجد أنه غرر بك ولا تزال في البداية، وتظل تدور حول نفسك وتنتهي أو حتى تبدأ من حيث كنت!

ومن حيث العرض والاتساع فحدث ولا حرج!

العريض من هذه الدروب والأزقة، لا يتحمل أكثر من ثلاثة أشخاص ويكونون متلاصقين، أو عربة نقل واحدة على أن تكون من الهوندا أو السوزوكي الصغير والأفضل (تريسل). أما الضيق منها فلا يسمح بتأناً بمرور شخصين في وقت واحد، والبيوت متلاصقة بحيث يمكن لساكنيها تجاذب أطراف الحديث وكلّ وراء شباكه أو حتى في مخدعه، وإذا مد واحد منهم يده من النافذة يمكنه مصافحة يد أخرى تمتد إليه من بيت مجاور.

ومحلات في محلات، الواسع منها بحجم الكف، والبضاعة فوق بعضها البعض كقطع الصابون عند البقال. ومن يبيع صواميل ومسامير، أو ملابس ولعب أطفال، أو بكر خيط وسننن وباقي مفردات الحياكة والتطريز، أو مستلزمات الاستحمام. وحركة والتحام وباعة على الأرض، وورش لمواسير النجف ومخازن وإكسسوارات، وثلاثة معالم قديمة لا تزال تحمل كتابات عبرية

وبأعلاها نجمه داود^(١٠).

سألت أحد السابّلة عما إذا كان هنا محل بيع المشغولات
الفضية والإكسسوارات، ولا أعرف لماذا كش الخال وتركني
راجعاً خطوة إلى الوراء!
أجاب الرجل، وهو يشير بيده:

- قصدك محل حزان! عندك هناك أهه على أول حارة
القرابين.

فنظرنا إلى بعضنا البعض ومكثنا دون حركة، والرجل يؤوّل
ترددنا ويظن بنا شيئاً، وخاصة الخال الذي من حذره وخوفه بدا
شكله مريباً.

والرجل يشجعنا:

- عم حزان راجل مهاود ومضمون، والزباين عليه بالكوم.
فمشينا، وهذا الحشري يلاحقنا قائلاً:
- مش من هنا يا بهوات، إحدوا يمين زي ما قلت لكم مش
شمال! وللا انتو رايمين فين بالظبط!؟

فالتفتنا إليه وأشرنا له بأن شكراً يا ابن الحلال، وحبذا لو
أكملت مروءتك وتركتنا في حالنا.

* * *

^(١٠) هي معبد الطبيب والفيلسوف (موسى بن ميمون)، الذي دفن فيه سنة ١٢٠٤م قبل
نقل جثمانه إلى طبرية بفلسطين، ومعبد (حايم كابوسي) الذي اعتاد اليهود زيارته في عيد
الغفران، ومدرسة لتعليم الشعائر اليهودية. وكافة هذه المعالم انقطع عنها اليهود الآن،
وصارت في حكم الأثر وذمة التاريخ.

(٣٦)

ما إن تفرّس خالي والعم حزان كل منهما في وجه الآخر، حتى دخلا في عناق مبلل بالدموع. واستلزم واجب الضيافة أن يلف بنا هذا العم عدة لفات حتى أوصلنا إلى (قعدة) في زقاق مسدود. مجرد (قعدة)، فلا هي مقهى أو حتى (غرزة)، شيء أحقر من ذلك بكثير.

عجوز على الأرض تعد المشاريب على موقد من الحديد متصل بأنبوبة غاز، إلى جوارها جردل ماء تغطس فيه الأكواب ثم تصعد بها، وهذا هو الغسيل! وثلاثة برطمانات زجاج في حجرها، أحدهم للسكر والآخران للبن والشاي. أما الملاعق المخصصة لتقليب السكر في الأكواب فملقاة هنا وهناك، لكن للإنصاف وكلمة الحق، كانت العجوز تمسحها بذيل جلبابها قبل أي استخدام!

كل هذا في فسحة صغيرة أمام عتبة بيت، تطل علينا من

شباكه امرأة أستغفر الله من سحتها، ولا تكف عن التحديق في
الجالسين. وعدة قوالب طوب أعدت للجلوس فضلا عن مقعدين من
الخشب ابتعدنا عنهما، فقد أهلكهما الزمن وإذا جلس عليهما إنسان
لا أظنه ناجياً، وحتماً سوف يطرحانه أَرْضاً.

لا أعرف السبب في احتفاظ العجوز بهما، ربما من قبيل
التباهي والديكور!

وعندما توسدنا قوالب الطوب، احتواني العم حزان بعينيه وهو
يقول للخال بنبرة حذرة:

- هو الأستاذ؟! -

وسكت..

ففهم خالي، وأجابه قائلاً:

- يعني مش بالظبط، هو مننا بس البذرة من هناك.

ثم ربت على ركبتي مضيفاً:

- دا جلال ابن أختي، بس البابا بتاعه مسلم وتعيش انت بقاله
سنين.

فأدهشني أن الخال وبعد كل هذا العمر، والصلاة والصوم
والزواج والطلاق على مذهب أبي حنيفة النعمان، لا يزال يحسبني
واحداً منهم.

وأثارني ذلك..

بل وعضضت على شفتي شارداً بعيني، غير أنني لم أسترسل
كثيراً مع نفسي، فهو الخال بل والخال الطيب، ولا أظنه يقصد شيئاً

وإنما هي كلمة في الهواء.

ومررتها له..

وأعزت لنفسي بأنها تحسست، مثلما تحسست من قبل مع مدموازيل چانیت عندما حسبت سخریتها من الجمل تعريضاً بي. ورغم ذلك رمقته بدهشة واستغراب، ولأنه لا يقصد لم يضع هذه الرمقة في محلها الصحيح، لعله ظن أنني متململ من هذه الجلسة التي نجلسها على قوالب الطوب، فقال:

- تعبتك معايا يا جلال.

فأشرت له بالألا يشغل باله بي، وقال العم حزان:

- بقى الأستاذ جلال ابن أختك، أيوه أيوه افكرت! يكونش هو

ابن بيلا اللي اتوفى البابا بتاعه في حرب ستة وخمسين؟

فأوما خالي:

- تمام. تمام. بس الحكاية دي كانت مع كاميليا مش بيلا.

- كاميليا!

وزام العم حزان زومة استندراك، ثم سأل بشغف عن خالتي بيلا وبما يوحي أن قلبه يحمل لها شيئاً، حتى إنه شرع في الدخول في المحذور غير أنه تلعثم ولحق بنفسه، والخال يجيبه باقتضاب: بأنها بخير والحمد لله، وأنا أتعجب من خالتي هذه التي تجري سيرتها على كل لسان!

وتلوح لي..

تلوح على النحو الذي رأيتها عليه آخر مرة، الشعر الأبيض

وتتوكأ على عكاز..

أسألها مداعباً: عما إذا كان لها ثمة علاقة بهذا الرجل التخين،
الذي يجلس معنا الآن بالبذلة السفاري والبيرييه؟!
فترمقه بحنق قائلة لي: أنا!!

ثم تشيح نحوه بالعكاز متململة: أنا! أنا لي علاقة بهذا الكبش
النطاح! إنه لا يعبأ حتى برماد السيجارة الذي يجلل بنطاله! وأذنه!
ألا تلاحظ أن اليمنى أصغر قليلا من التي على اليسار؟!
أصدق كلام الخيال وأبتسم مقارناً بين أذنيه، ثم أسألها عن أبي
السعد أفندي؟

فتقول بدلال: أبو السعد..

ويأخذني منها صوت العم حزان، وهو يقول للخال وعيناه
عليّ:

- ياه يا شمعون ياه! ياما بنات من عندنا اتجوزوا مسلمين،
واللي على دينها واللي أسلمت!
ويرمقني ثانية:

- وعيالهم ما شاء الله! عايشين في وسط الناس، اللي محامي
واللي مهندس وللا دكتور.

ويسألني:

- وبتشتغل إيه يا سي جلال؟

أتردد لحظة ثم أقول:

- عندي شركة.

- شركة!

ويهز رأسه معجباً، وأنا يدفعني النزق إلى التحديق في حجر
بنطاله! فهل صحيح تجلله ذرات الرماد، مثلما يقول لي طيف
خالتي بيلا!!

ويشد هو النفس الأخير من السجارة، ثم يخوض هو وخالي
فيمن تبقى الآن من اليهود.

- آهو شوية هنا وشوية في إسكندرية على كام واحد في
المنصورة، وكلهم على بعضهم يحصلوش تلتمية وخمسين،
وأكثريتهم يا عواجز يا عيانين!

وخالي يشده الفضول، لمعرفة الذي جرى لأبناء طائفته.
- والحكاية دي يا شمعون يا خويا عامللنا وش! وشوية الشباب
اللي عندنا مش لاقيين بنات يتجوزوهم! ابني خالد آهو نفذ بجلده
ولحق له واحده قريبتنا من إسكندرية، الداوية في الواد الثاني
أصغر واحدة قدامه عندها ستين سنة!
ويباغت خالي:

- ياريتكم ما مشيتو وقتونا يا شمعون، إيه بقى اللي انتو
خذتوه!؟

وينادي طالباً لنا ثلاثة أقداح أخرى من الشاي، فاعتذرت
بشدة، فبعد كوب الشاي الملعون الذي طفحته الآن، زهدت في
صنف الشاي كله.

ويستطرد العم حزان:

- أنا مبتكلمش عن الباشوات والبهوات الأشكيناز^(١١)، بتكلم عن القرايين^(١٢) الغلابة اللي زيي وزيك يا شمعون. أديكم مشيتوا من هنا وسمعنا بعدها حكايات تقطع القلب! وأولها عن عم زكي الله يرحمه، قالوا: دا تعب واتبهدل وفضل يكاكي في الغربية لحد ما مات، صحيح الكلام ده يا شمعون؟

يبدو الأسى على وجه الخال، وأشعر بأنه لا يود الخوض في هذا الحديث.

- وانت شوف حالك عامل إزاي يا شمعون، خربان وهلكان وأكبر من سنك ببيجي عشر سنين! بس لو تفهمني مشيتو ليه؟! فيطرق الخال مستقلاً كلام الرجل، وهو لا يكف عن ملاحظته:
- وللا تكونش فاكرا انك باللي عملته وبالبسبور الفرنساوي اللي معاك بقيت خواجه!؟

^(١١) الأشكيناز طائفة من اليهود أتت إلينا من أوروبا هرباً من الاضطهاد، وقد نظروا إلى مصر ليس كموطن للهجرة النهائية، بقدر ما هي محطة للوصول إلى فلسطين. ومن هنا لم يحاولوا تعلم اللغة العربية أو الاندماج في النسيج المصري، وكانت أكثرهم تتعاطف مع الحركة الصهيونية، على اعتبار أنها السبيل الذي يمهدهم للاستقرار بصفة نهائية بفلسطين.

^(١٢) القرائين ليسوا مجرد طائفة عرقية كالأشكيناز أو السفارديم، وإنما هم طائفة لها أحكامها الدينية الخاصة.

ويتميز أفرادها باندماجهم الكلي في طوائف الشعب المصري، وتكلمهم اللغة العربية وتشرب العادات المصرية والتسمي بأسماء أبنائها، فكانوا لا يختلفون عن إخوتهم المصريين لا في الشكل أو المظهر أو طريقة الحياة أو حتى اللكنة، وإنما فقط في الممارسات الدينية، ونتيجة لذلك كان الانطباع العام لديهم مناهضاً للصهيونية إلا من شذ.

- خواجة!

ويتمتم:

- خواجة إيه وهباب إيه!!

وأندخل أنا مخففاً:

- بالراحة يا عم حزان! دا خالي من بره وجوه مصري. اللغوة مصري والدم مصري، دا حتى وهو هناك بيفكر بالمصري ومن ورا كده ياما وقع في مطبات.

- ولما هو كده ساب مصر ليه! دا كان موظف محترم وتحت إيده مستخدمين وشقة وعربية ومدارس العيال ببلاش، دا غير الناس اللي هو عارفهم وهمّا عارفينه.

ويشير إلى رجل بسروال وفانلة ذات أكمام، يمضي أمامنا دافعاً عربة من الحديد محملة ببضاعة في كراتين.

- والراجل ده، وللا الست دي اللي ماشية هناك ووراها كوم عيال، وللا الأخ ده اللي واقف قدام المحل بتاعه وبيفتح علبة الكيلوباترا، نفرق إيه أنا وللا انت وللا هو عنهم؟ بنمشي كلنا في شارع واحد، وبنركب هو هو الأتوبيس، وولادنا بياخدوا هي هي الشهادة وينفروا هو هو الجرنال، والزعل واحد والفرح واحد! ورشفة من قدح الشاي:

- أهو علشان كده أنا ماسبتش مصر، هاروح فين؟ معرفش

غيرها..

ويخفت صوته، يبدو وكأنه يتحدث مع نفسه وليس معنا:

- استحملت الغلاسة إن كان من بتوع الثورة، وللا شوية اليهود اللي اتصهينوا وعجبتهم إسرائيل! الأولنيين عايزنا نسيب البلد ونمشي، بس تيجي مننا! والتانيين ألعن وأضل، يفضلوا يحبونا في إسرائيل ويقولوا: دي أرض المعاد والخير مستنيكوا هناك، ويللا ويللا اللي عنده حاجة يتصرف فيها ويحط اسمه في الكشف!

ويعود بظهره إلى الوراء، باسطاً كفه تجاهنا:

- وأنا والحمد لله وذن من طين وودن من عجين، لا دول ولا دول جابوا معايا نتيجة.

ويروح بعينه تجاه خالي:

- الدور والباقي على اللي حط ديله في سنانه وقال يا فكيك.

* * *

العم حزان مُر في كلامه، وأنا أحاول شغله بعيداً عن خالي فأسأله:

- يعني مفكرتش ولا مرة تسيبنا وتروح إسرائيل انت كمان؟

- أنا!!

ويتبسم ساخراً:

- أنا لو عايز أروح إسرائيل كنت عملتها في شبابي،

جاي تسألني السؤال ده دلوقتي يا ابن أختي!

ويحتقن وجهه قليلاً:

- وللا قصدك إيه بالظبط!؟

أقول: لست أقصد شيئاً، الحكاية كلها كلام في كلام..
فيقول: آه! طيب.

وينظر إلى الخال فيجده غافياً، كانت عيناه مغمضتين ويهبط
برأسه ببطء وعلى نحو متتابع حتى يسقط منه، وفجأة يرفعه
مخضوضاً وهو يحدق فينا ثم يعود إلى ما كان عليه.

بيدي العم حزان استغرابه من نوم الخال، فأقول له: إنه
مريض بالكبد، وكثرة النوم علامة من علامات مرضه. فيومي
برأسه متعاطفاً وينظر في ساعته، ثم يخرج ورقة من جيب سترته
متفحصاً الأرقام المدونة بها وهو يحسب شيئاً على أصابع يده.
ينشغل عني كما لو كنت غير موجود. وكان دخان سيجارته يصل
إلى أنف الخال، فيشعر به وهو نائم ويدفعه بكف يده على نحو آلي.
ألحظ ذبابة تحوم حول وجه الخال فأهشها بيدي، تذهب عيناى
بعدها إلى المرأة التي لا وراءها طبيخ ولا غسيل أو أي شغلة من
أشغال البيت وتطل علينا منذ ساعة، كانت (تقرقز) اللب والقشر
المتساقط منها يلحق بجلباب رجل وهو لا يشعر.

ويتأهب العم حزان بعد أن أعاد الورقة إلى جيبه، ثم يقول:

- والله ما فيه حد مالي دماغي ومكيفني غير عرب ٤٨، أهم لا
سابوا بيوتهم ولا أرضهم ولا عاد الصهاينة دلوقتي يقدروا يقولوا
لهم تلت التلاتة كام.

فأقول له: معك كل الحق، وأدخل معه في حوار عنهم، يمر

بعينيه في آخره على خالي قائلاً:

- الخيبة الثقيلة هي خيبتنا إحنا!

أحاول مقاطعته، غير أنه يصدني مكملًا:

- عارف عارف اللي انت عايز تقوله! مش إحنا وبس، الغلابية

كمان بتوع فلسطين اللي هجُّوا من بلادهم، يمكن لو كل واحد فينا

وللا فيهم فضل ماسك في أرضه وبيته، كانت الدينا بقت غير الدنيا

اللي إحنا شايفنها دلوقتي.

ويفتح الخال عينيه، لا تزال بقايا الشاي في القدح الذي أمامه،

يرشفها ويتجهز للدخول في دورة جديدة من دورات النوم، فأرابت

على كتفه خفيفاً منبهاً إلى أن الجلسة قد فرغت وحن الذهاب.

ويأتي ولد ببنتال وشرز متهتك يجمع الأقداح الفارغة التي أمامنا،

والمرأة - إياها - تنفض كفها من بقايا اللب العالقة بها وتعلق النافذة.

ونستأذن أنا وخالي، تاركين العم حزان يحاسب على

المشاريب.

* * *

(٣٧)

استيقظ الخال من النوم، فوجدني بملابس الخروج..
أخبرته بأني في طريقي للبلدة للعزاء في عمي وإنهاء مسألة
الميراث، وأن من الجائز أن أبيت هناك ليلة أو اثنتين. وكانت أم
حسن قد أعدت الإفطار وتنادي علينا، ومذياح جدي القديم لا يزال
يعمل وتتلى منه أخبار التاسعة، أعقبها حديث مطول عن الرئيس،
وما قدمه للوطن من إنجازات طوال مدة ولايته الأولى التي قاربت
على الانتهاء.

تحرَّج الخال من البقاء وحده مع أم حسن، فهب مسرعاً يرتب
حقيبته ليبيت في أي فندق ريثما أعود، غير أنها أصرت على أن
تدع له الشقة وتذهب عند ابنها حسن أو جارة من الجارات. ولما
حاولت إثناؤها عاتبته، وكلمة في كلمة إلي أن رمت عليَّ
(الحرمانية) بالألتراني أو تعرفني بعد اليوم، إن هي فرطت في

واجب الضيافة وتركت الخال يغادر الشقة.

وقالت وهي تسبقني إلى الباب:

- وفي معاد كل طقة يا سي شمعون هتلاقي الجرس بيضرب
وصنية الأكل على الباب، وإن كان عندك هدمة عايزة تتغسل يبقي
صرّ عليها في كيس وأديها للغيل اللي شايل الصنية وبيخبط عليك.
أوعى تنكسف، إحنا عشرة وبيننا عيش وملح.

فرمقتها ممتناً ثم سافرت حيث التقتني أختي ليلي بملابس
الحداد، ومن أمام الباب قالت: نذهب في الحال، فأكيد ذاع خبر
قدومك وكل دقيقة تتأخرها سوف تحسب عليك.

ومشينا وهي ورائي بخطوتين..

أقول لها: تقدمي هنا بجانبني!

فنقول:

- خرينا زي ما احنا، سلو بلدنا كده وإلا الناس تعييني وتعيبك.

أقول لها: ولماذا لم تفعلي ذلك عندما كنا ذاهبين إلى المقابر؟

تقول:

- ساعتها كنا في الخلا والأكترية ستات، إنما دلوقتي إحنا في

وسط البيوت وحوالينا ألف عين.

فأدعها إلى جدي لأبي الذي بدأ يخيلني..

يلوح وهو يضعني خلفه على ظهر دابته، عندما كنا عاندين

من زيارة قبر أبي.

يقول: لف ذراعيك حولي جيداً كي لا تقع.

ذراعاي صغيرتان ولا تصلان لمجمل خاصرته، غير أنني
أفعل بقدر ما أستطيع..

يقول: ليس هكذا، إضغظ.. إضغظ..

ويحذرنى: إضغظ بقوة وإلا البغلة ستتهزأ بك، وتلقيك من فوق
ظهرها.

لم يكن الأمر كما صورته لي، فالدابة كانت طيبة القلب وتعرف
أنني صغير ولا حيلة لي!

كان يحتال عليّ، كي أتشبث به وأحضنه..

يخايلني الجد ونشوة تأخذني، ولا أشعر إلا بأني ابن هنا، فإن
لم أكن قد كبرت ونَمَتْ بذرتي هنا، فحسبها أنها تخلقت في هذه
الدُّور وتلك الشوارع النحيلة المتعرجة..

ومن شارع إلى شارع حتى طرقتنا بوابة العم، فخرج لنا
غلامهم الأحول الذي طالما لعب معي لعبة القط والفأر.
عرفني بالطبع ويبدو أنه لا يزال مبرمجاً على لقاءاتنا السابقة،
إذ قال:

- عايز جدي إبراهيم؟! جدي خلاص مات.

فسببته في سري وشاطته ليلي بيدها كي ينزاح من أماننا،
وصعدنا الدَّرَجَ ومنه إلى غرفة الكنب. برهة وأقبل أولاد العم
الثلاثة: سلطان وفريد والشحات، بجلابيهم الصوف والطواقي
الوبر، وكان يرد إلينا من جوف البيت ترتيل لآيات القرآن الكريم.
وأنت زوجة العم سميينة قاتمة الوجه وكل ما عليها سواد في سواد،

جلست على مسافة منا بجوار ليلى، صامته تكاد تغفو..

هذا الذي كان يبدو عليها، غير أنني سرعان ما أدركت أن الأمر ليس كما أحسب! فالمرأة بالفعل كانت ساكنة غير أن دماغها وجهازها العصبي كانا في قمة العمل، وعيناها اللتان حسبتهما نائمتين كانتا تمران علينا واحداً بعد واحد دون أن تحرك رأسها. وكلما جادلت ولدها سلطان في أمر وكان يريد حسم هذه المسألة، ما أشعر إلا وهو يبادلها النظر خلسة، وهي ترسل له إشارات بعينيها، بأن هذا: لا، وهذا: نعم!

* * *

بدأنا بتبادل كلمات العزاء..

وباقتراح من زوجة العم استهللنا الحديث بقراءة الفاتحة، كي تصفو النفوس ونراعي الله في قرابتنا وصلة الدم. قرأناها كلنا ومسحنا على وجوهنا، وكلّ بالطبع على حسب نيته. فأنا وليلى ألقينا أحمالنا على الله وأن نخرج من هذه الجلسة مجبوري خاطر وبأقل الخسائر الممكنة، أما هم وفيما أظن فقرءوها على أن نخرج عُراة وإن لم يكن فحُفاة على الأقل! ودخلنا في الموضوع، حيث كان الحديث تتخلله أحياناً لحظات صمت.

صمت تتخلله أحياناً، سعة من كبيرهم سلطان..

سعة ليست كأية سعة! وإنما تخرج منغمة وذات معنى، تعقبها عدة سعلات أو ربما نحنحة من صغيرهم الشحات، أما فريد

المهذب اللطيف فكان يحدق فيّ وفيهم ويبتسم. وكل هذا، حتى
الابتسام والضحكة، ما هو إلا كلام يقولونه لبعضهم البعض.
وزوجة العم تمسك بالدفة، ولا أظن أن شيئاً كان سينقضي لو لم
ترض به هذه الحيزيون وتباركه!

بقينا حتى أذان المغرب ما بين مناورة ومداورة وأخذ ورد،
حتى خلصنا إلى أن أدع لهم أرضي بسعر يقترب من سعر السوق،
على أن يصلني الثمن على قسطين. القسط الأول غداً أو بعد غد
عند كتابة العقد، والثاني (وعليك خير) العام القادم بعد أن يحصدوا
عروة الصيف. أما حقي في البيت، فلم أفلح في الحصول عليه..

- وشرع ربنا يا سلطان!

- لا إله إلا الله! وهو حد يقدر يقول حاجة في شرع ربنا! البيت
واسع يا ابن عمي والحمد لله، هات حالك ومحتالك وتعالى أقعد
معانا فيه.

وأتذكر العم إبراهيم، فطالما قال لي هذه الكلمات..

- أقعد فيه!

- أيوه إن كان لك شوق في عيشتنا أهلاً ومرحب بيبك، انت
بس تشاور بصباeck وإحنا نبنولك شقة فوق شقة الشحات.

غير أن الشحات لم يرتح لهذا الاقتراح، وقال معترضاً:

- بس يا حاج سلطان دا يدوبك البيت مكفيناً!

وأنا أتأمل هذا الشحات، الذي يرشحوه جاراً لي..

شارب كث وسحنة كسحنة أولاد الليل، ناهيك عن العصا ذات

العقفة التي بين رجليه ويريح كفه عليها. ليست عصاً من تلك العصي التي يتوكأ عليها الناس أو يجلبون من ورائها منفعة، وإنما شيء آخر! أي شجر هذا الذي يخرج لنا هذه الأشياء القاتلة، فليس لهذه الملعونة أي حل، ولو نزل بها هذا المحترم على رأس كلب لأودى به بضربة واحدة!

وأتاني صوت زوجة العم، وهي تنهر الشحات:

- بس اسكت يا واد شحثة - تدلله - دا الغالي ابن الغالي، ويا ريت هو بس يرضى يبجي يقعد معنا في البيت.

وتنتقل إليّ:

- بس يا ضنايا إن كان لك غرض بصحيح، يبقى فوّت لنا يبجي خمسين ألف من القسط الأولاني علشان المباني.

وبصوت كالمهمس:

- أمّال! ألا المباني دي موالها طويل وبتعوز شيء وشويات.

ولحق بها الشحات قائلاً:

- ويدفع كمان حصته في أساس البيت، وهي الشقة كانت

هتتبنى كده في الهوا من غير أساس!

فشاطت النار في ليلى:

- ودا ينفع ياعمة! بعد ما فات لكم الأرض، عايزينه كمان

يبجي يقعد فوق المتعوس الشحات اللي داير ينطح في الناس!

وكمان تدفعوه خمسين ألف، دا غير الأساس!

هب الشحات غاضباً، فأشارت له أمه بأن يلزم مكانه وقالت

لليلة:

- بس بس يا أمي، خليكي محضر خير ومترميش على الولعة

شوية جاز!

وتحلققت بي الأبخار، فقلت منهياً الحديث:

- الأرض وخلصنا منها، إنما البيت سيبوني أفكر وأرد عليكم

بعدين.

وخرجنا أنا وليلي..

* * *

(٣٨)

مكثت بعدها ثلاثة أيام ضيفاً على ليلتي، وعندما قررت العودة أرسل زوجها في طلب عمه صاحب (التبوتنا) النصف نقل، وأصر هو وهي على أن يقوم الرجل بتوصيلي بها إلى القاهرة، خوفاً عليّ من مخاطر الطريق وأنا أحمل كل هذه النقود.
وانطلقنا..

السيارة ترمح على طريق أسفلتي مليء بالمطبات والشقوق، وعلى اليسار أشجار الصفصاف بهاماتها العالية، ومن ورائها تنحدر الأرض خفيفاً حتى شاطئ الترعة.
وتلوح في خيالي أحداث الأمس، خاصة سلطان والشحات وهما قادمان إليّ بيت ليلي. الشحات يحمل صرة الفلوس، وسلطان بيده العقد. لم يكتف الجبان بتوقيعي على كل ورقة من أوراق العقد، بل أصر على أن أضع بصمة الإبهام أسفل كل توقيع.

ألقاهما في الخيال ضجرأً، وأهشهما بعيداً هما وهارون زوج
خالتي، الذي أقبل عليّ هو الآخر منتطعاً!
أهش الجميع وأدع كل ما ينغص ناظراً إلى الأيام القادمة، وفي
غمرة هذا الإحساس أطلب من الرجل الذي يسوق، أن يذهب بي
أولاً إلى سوق روض الفرج.
وألتقي الليثي..

رويت له عن سفري إلى باريس ولقائي بالشيخ بومكناس،
والنصائح التي أسداها لي إذا ما كنا نرغب في أن يكون لزراعتنا
موطئ قدم في سوق الجملة هناك، ثم حكيت له عما حدث معي
بالبلدة، وأني أصبحت مستعداً الآن.
فقال: وأنا معك بالنصف.

ومن روض الفرج إلى الظاهر، حيث عرّجت على شقة أبي
السعد أفندي أولاً. كان عائداً لتوّه هو الآخر من بلدته (أوسيم)،
وأخذني إلى غرفة الجلوس ومعنا هديل، ولتقتني به أوكنته عني في
لقاء المهندس الزراعي زميل هديل، الذي تعثر ولم يستكمل بعد
استصلاح العشرين فداناً التي بحوزته.
وسأل هو هديل:

- والأرض دي ورقها مطبوط؟
 - ومتسجلة كمان، من الناحية دي إطمن.
- فقلت:

- على بركة الله، ويا ريت تحدد لنا معاد معاه بسرعة على أي

كافيه.

- كافيه إيه يا جلال! الكلام ده عندكم في باريس، المقابلة
هتكون على راس الغيط، ومش كده وبس دا أنا كمان هاكلم
الشحات وأخليه يجيني قوام.

- الشحات!!

- أيوه الشحات! دا ابن خالي وراجل مضمون، وطول عمره
متمرمغ في الفلاحة والطين، وهو دا اللي هيجيب لنا قرار الأرض
ويندفع فيها كام.

وتأخذه الحمية:

- هي الأرض دي فين بالظبط يا بت يا هديل، والأفندي زميلك
ده اسمه إيه؟

تشعر بالخجل من تبسُّطه معها هكذا أمامي، وتقول متبرمة:

- وبعدين يا بابا!! وبعدين! إحنا معانا ضيف.

- ضيف إيه! دا جلال! وبكرة تبقوا زي السمن على العسل،

ولا تنكسفي منه ولا ينكسف منك.

فينتابنا الحرج أنا وهي، ويدرك هو فيقول مغيراً الحديث:

- خلاص خلاص يا ست هديل، الجمعة الجاية تجهزي حالك

وتيجي معايا، وأنا هاكلم الشحات علشان يدبر حاله ويشوف

هيقابلنا إزاي، ويوميها الفجر نطلع كلنا، بس على فين!؟

- على أبو المطامير يا بابا، الأرض هناك وصاحبها اسمه

حسام وآدي نمره التليفون علشان تتفق معاه.

صعدت إلى الشقة بعدها، لأتلقى الأخبار السيئة..

إذ وجدت خالي مريضاً في الفراش وأم حسن تطببه، فجلست على مقعد قبالته وهي تقول:

- من ساعة انت ما سافرت وهو راقد الرقدة دي، ويدوبك النهارده شم نفسه.

والخال يرمقها، ويقول لي:

- ربنا يجازيها خير على وقفنها معايا في شدتي.

وأسألها:

- وحد شافه؟

- أمال! جببت له دكتور من المستوصف اللي في ريحنا، ولما

كشفت عليه وقلب في الدوا اللي جايبه سي شمعون من بره معاه،

قال: ياخذ هو هو الدواء بس يحرص في الأكل وتلزمه الراحة

أسبوع وللا عشر تيام.

وتشيع بيدها:

- أنا بس سهيت عنه أول يوم، كت ملخومة في عَزَا الأستاذ

فؤاد.

- فؤاد! فؤاد مين! فؤاد جوز نادية؟!!

- أيوه تعيش انت، جانا الخبر بعد انت ما سافرت ببيجي

ساعتين، وسكان العمارة كلهم راحوا جابوه من المستشفى وصلوا

عليه في الشعراني، والعزا كمان رجالة وستات خلوه هناك.

وأسألها عن نادية؟

فترمقني بدهشة:

- واحنا مالنا ومال نادية دلوقتي، أهي لسه في شقتها والجيران

داخلين طالعين عليها.

وبنبرة مشفقة:

- عيني عليها بختها قليل، وهمّا يومين وللا ثلاثة وهتفوتنا.

فأحدق فيها، وهي تكمل قائلة: بأن الشيخ مصطفى السبكي والد

الأستاذ فؤاد لا يرى محلاً لبقاء نادية وحدها، وأنه استمهلها عدة

أيام حتى تجمع متعلقاتها وتأتي هي وابنتها للإقامة عنده.

وأنا أتمتم:

- الشيخ مصطفى!

ثم أقول:

- وهتسمع كلامه؟

- يوه! وماتسمعش ليه؟! مش خالها وجد البنت!

* * *

لم تقف الأخبار السيئة عند هذا الحد، ففي عز الليل جاءتني

مكالمة من أبي الشوارب..

كان مضطرباً، يقول العبارة ثم يعيدها، ويزلف منه لسانه

فيشتم ويسب ويلعن ويتوعد هؤلاء الهنود، وأنه سوف يلاحقهم

حتى يوم الدين! لا يصدق أنه أبو الشوارب الذي يلعب بالبيضة

والحجر جعلوه قرطاساً، وأصبح مضحكة بين التجار!

فقد جرجره هؤلاء المساخيط، وعملوا له البحر طحينة حتى

سلمهم البضاعة كلها ووقع لهم على إذونات الشحن، ولا يزال في ذمتهم مليوناً فرنك!

لعبوا عليه، ظلوا يماطلونه ولم يوقع له السيد/ كومار على الشيك الأخير (أبو مليونين)، إلا بعد أن أقلعت الطائرة بالبضاعة المشتراة، وقالوا له: إذهب لصرف الشيك ونلتقي الليلة لنسهر معاً في (المولان روج)^(١٣)، ثم أعطاه السيد/ كومار ساعة رولكس مذهبة مع الشيك، عربوناً لصداقة سوف تمتد لآخر العمر إن شاء الله!

صدقهم..

ولما ذهب إلى البنك لصرف الشيك وجد رصيدهم خاوياً إلا من أربعة فرنكات، وأسرع إلى توكيل الرولكس فقالوا له: إن الساعة هي الأخرى (مضروبة) ولكن باتقان! عمل الملاعين عملتهم وطاروا كالنمائم.. ولما سألته عن صفقة البغال، رد بأسى:
- بغال! دا نحنا اللي صرنا بغال!

* * *

(١٣) أحد الملاهي الشهيرة بحي بيجال.

لا تجيء سيرة الشيخ مصطفى السبكي على الألسنة إلا بالطيب، وأنا بالذات كنت معنياً به أول شبابي، وكثيراً ما حدثتني نادية عن رعايته لها بعد أن توفّي أبوها، وأن أمها لم تكن تقطع أمراً إلا بمشورته.

كان مهيباً بطلعته وعمامته وكتاب الله المحفوظ ب صدره، ولم يكن يكف عن قول كلمة (يا ساتر)، عند صعوده أو هبوطه على درج العمارة كلما جاء لزيارتها. وطالما طاف بخاطري أنه الرجل الذي سوف أتقدم له يوماً طالباً يد نادية، فأزداد له إجلالا وأقف لتحيته. يلحظ احتفائي به ولا يؤوِّله بالطبع للغرض الذي بنفسه ويجعله، ويلقاني بإيماءة رأس وبشاشة، لكن في الأيام الأخيرة التي سبقت رحيلي أنا وأمي، بدأ بالميل بوجهه بعيداً عني كلما التقينا، وكنت أشعر كما لو أن قلبه يتمتم طالباً الستر مني!

هذا الرجل ودون قصد منه، أحد أسباب أزمتي!

فبعد أن ذاع حبي لنادية وعرف به، إلا وأصر على أن تدع هي وأمها الشقة وتأتيا للإقامة عنده بالعباسية. لم يقبل أن تتعلق بي واحدة من طرفه، بل وربما كانت تضجره مسألة الحب هذه! والكلام الفارغ الذي يتشبه به أمثالنا. وجاء هذا على هوى أمي، فقد كانت تبحث أيامها عن وسيلة تبعثني عن نادية، وأعطائها إياها الشيخ مصطفى!

ولم يكتف، زوّجها على غير رغبة منها بابنه فؤاد الذي رحل.
ومن يومها تبدل حالي، وهاهو يأخذها مني مرة ثانية!

* * *

يمر بي طيفه متجهماً، ويلوح معه طيف أمي عندما كانت
تناور وتداور أيامها..

يثيران في الكمد ويذهبان..

وتقترب مني أم حسن، حيث كنت أجلس على كنبه الصالة.
تجلس إلى جانبي، وبين يديها صينية على سطحها كومة من الأرز
تقلب حباتها. أسألها أن تصعد معي لأعزي نادية، فتدع ما بيدها
قائلة:

- حَقَّه بقى آهو دا اللي ملوش لزمة! عزا الرجالة كان في

الشعراني وإنك كتّ غايب، يبقي خلاص!

يلوح عليّ غضب طفولي، وأنا أهم بالوقوف متجهاً إلى الباب
وأقول: بأني سأذهب لوحدي، فتزيح صينية الأرز وتتلفت على

طرحتها وحادئها ثم تلحق بي هازةً سبابتها:

- بس هي دقيقة واحدة وننزل على طول.

ونصعد لنفاجأ بأن الشيخ مصطفى هو الذي يفتح لنا الباب، وما إن رأيته حتى بوغتُ ورجعت خطوة إلى الوراء، وقفت مرتبكاً قلقاً من ردة فعله.

فوجئ بي هو الآخر ثم بدأ يرمقني بتودة، وأظنه في هذه اللحظة كان يعمل بأقصى طاقته مفتشاً عني في الجانب الكئيب من ذاكرته. وأم حسن التي كانت تعمل ألف حساب لهذا الموقف في حرج، وتسعل وتندس بيننا كي تحول بصره إليها. كان يعرفها فأوماً لها برأسه مرحباً، ثم أشار لها بيده بأن تتفضل بالدخول. وتجاهلني..

واسترعت بصري عصاه وقبضة يده الممسكة بها. كانتا في وضع هجومي. ففكرت في أخذ خطوة ثانية إلى الوراء، ودفعنتي الحيلة إلى الانتباه وأن أكون في أقصى درجات الحذر، فمن يدريني أنه لن ينزل على رأسي بهذه العصا.

عيناه تقولان إنه يعرفني، والتجهم هو نفس التجهم الذي خابلني به قبل قليل.. فأنا قليل الأدب الذي كان يشاغل ابنة أخته! وأنا السبب في تركهما الشقة أيامها! وها أنا لا أستحي وأدق على بابها بعد أن خلا لي الجو..

وتدعمني أم حسن قائلة:

- دا الأستاذ جلال، ملحقش يعزي في الشعراني قام قال أطلع

أعزي فوق.

قالت ذلك وأسرعت داخله، ولم يعلق هو طفق يتأملني ثانية ثم استدار داخلا، وأنا لا أعرف هل أتبعه أم أعود من حيث أتيت! مضيت خلفه..

جلسنا زهاء ربع الساعة نرمق بعضنا البعض في صمت، إلا من هذه العبارات:

- شكر الله سعيكم..

- غفر الله ذنبيكم..

- والأستاذ متجاوز وللا خالي؟

لم أرح قلبه، هزرت رأسي بما لا يفهم منه إن كنت هذا أو ذاك! وأخرج هو ساعة جيب من داخل جيبته، وقربها من عينيه قائلًا:

- ياه! دا المغرب وجب.

فنظرت إلى ساعتى أنا الآخر:

- المغرب!

وخفت أن يزداد تملله مني ويشوطني بالمطفأة التي أمامه، فنهضت وأسرع هو بَمَدِّ يده بالسلام، ومعى إلى الباب وهو يقول: إنه في طريقه الآن إلى زاوية الشيخ خلف، فهل سأذهب معه للصلاة؟ أم أني لا أصلي مثلما يصلي الناس!

فقلت: طبعاً أصلي!

ويا فكيك..

لم أر نادية في هذا اليوم، أو حتى بعدها..
أخذها وقلّ..

* * *

و غابت نادية..

غابت مخلّفة سدة نفّس ودقات قلب زائدة، وفي مرة من مرّات
شرودي أخرجت أم حسن خطاباً من عبّها وقدمته لي.
كان مجرد قصاصة ورق غير ممهورة أو لها تاريخ، ويبدو
أنها كتبت على عجل، غير أنها كانت بخط نادية الذي أعرفه
وتقول لي:

جلال..

نادية التي كنت تعرفها لم تعد..

فابحث لنفسك عن طريق غير الطريق الذي أمضي فيه، فأنا
الآن أمّ لم يعد يشغلها إلا ابنتها ريم، وامرأة زوجها في الممات أعز
عليها مما كان في الحياة..

ناهيك عن خالي الشيخ مصطفى، فقد حرك صعودك لشقتنا أشياء
بنفسه وبدأ في التلميح..

أقرأ الخطاب، وأم حسن تقول:

- أعمل إيه؟! شايفاك عشان وتعبان، قلت أطلع لها تاني
واسترجّأها تريحك بكلمتين، علشان ترسى على بر وتشوف
مصلحتك فين.

أسألها أن تدع لي الخطاب، فتخطفه من يدي:

- إلا دي! دي محلفاني أحرقة على طول بعد انت ما تقراه.
ألح عليها..

- يوه يا جلال!! عايزني أخسر ديني وأوقع الحلفان!
وتشعل عود ثقاب، والخطاب ينفطر عوده ويتلوى مع تموج
النار. قطع منه تصعد في الهواء ثم تعاود السقوط على شكل ذرات
ورماد، وما تبقى بيدها تلقيه بالمطفأة.

* * *

أذهب إلى أمي بعدها بأيام..
أصعد إليها بالطابق التاسع من فندق شبرد، حيث كانت تجلس
هي وزوجها قبالة النيل. وجنتاها متوردتان عما كانتا عليه
بباريس، ولأول مرة لا أشتم رائحة الدخان تنبعث من فيها أو
الثوب الذي ترتديه. والعم يعقوب يحكي عن الست أمينة التي كانت
تعمل بمنزل والده صرّوف بك أبي السعد، وتجاوزت الآن الخامسة
والثمانين.

- وأول ما دخلت عليها عرفتني على طول يا چاك - هكذا
يسميني - ورحت أنا موطي وبايس إيديها الاتنين.

ويسرح ببصره:

- قعدت في بيت البابا أربعين سنة، وياما دارت عليّه وعرفت
عني حاجات أكثر من اللي تعرفها الماما!
ثم يقول لأمي:

- إيه رأيك لو نمد الزيارة أسبوع وللا اتنين كمان؟

فتقول براحة:

- ياريت..

وأعرف منها أنها والعم يعقوب سيسافران باكراً إلى شرم الشيخ، وأن خالي إيزاك وصل من حيفا أول أمس وسبقهما هو وهارون إلى هناك.

وتسأل عن أم حسن، وأنها عازمة على زيارتها قبل أن تعود إلى باريس.

- ومش بس أم حسن، نفسي كمان أشوف الشارع والبيت وأتمرغ على السرير بتاعي زي زمان، وألفّ على الجيران جارة جارة.

ولا تتذكر خالي شمعون طوال الجلسة، ولا أني أبلغتها بمرضه.

وعندما رجعت إلى البيت فرد لي أبو السعد أفندي خريطة لقطعة الأرض حصل عليها من (المساحة)، وأن مستشارهم (الشحات) عاينها ووجد تربتها رملية وتصلح لزراعة الخضراوات والفاكهة، وأن نصف المساحة تقريباً مزروع والنصف الآخر يلزمه استصلاح، ولو أخذنا الأمور بجد لن يستغرق منا الأمر أكثر من ستة أشهر.

- بس يا بطل أنا عايزك ضروري بكرة تعملي توكيل، ونروح نقابل صاحب الأرض سوا وندفع العربون.

ففعلت..

ويومين بعدها واستأذنت من أم حسن وخالي شمعون للسفر
إلى شرم الشيخ، لأرى ما تفعله جماعتنا هناك.

* * *

(٤٠)

لا نزال في البكور والباص يتهباً للقيام من العباسية متجهاً إلى شرم الشيخ، والركاب.. من يثرثر، ومن يلهث بحقائبه، والمتجهم بغير سبب واضح وينظر إلى المسافرين على أنهم أعداء وليسوا رفاق طريق. والسائق بعفريته زرقاء وعليها كاب، ويشخط (وينتر) أمام مخزن الحقائب الذي يبطن الباص.

لا أعرف تحديداً ما الذي شدني إليه..

هل أنفه الذي يثير الانتباه، أم ذلك الشخط والنتز في الحمال والركاب وكل الواقفين، وإصراره على إعادة رص الحقائب للمرة العشرين، ليتمكن (وليّة عجوز) من وضع سَبَتِ لها وصرتين بين حاجات الناس..

وأسأل نفسي، ما بال هذا السائق!؟

هل كل هذا الزعيق والصياح لغباوة ونقص فيه، أم رافة منه

بالعجوز؟

واستوى الركاب..

وصعد هو إلى المقود ليبدو لي وليس لوهلة وإنما طوال الطريق، على أنه أكبر بكثير من المقعد الذي يجلس عليه، وكان الأولى أن يكون قبطاناً لفرقاطة أو قائداً لطابور من المجنرات. برهة ونقر نقرتين فوق سماعة الميكرفون، ثم أبلغ الجميع بأن راديو المركبة عطلان، المسجل فقط هو الذي يعمل، وأنه درءاً للملل أتى معه من البيت بعدة شرائط نتسلى بها في الطريق. صوته قاطع كأنما يدلي ببيان، والناس لا تأبه ومن يأبه ليس عنده تعليق، إلا واحد قلب كفه بحنق وقال لرجل معمم يجلس إلى جواره:

- يا نهار مش فايت! أنا رايح جاي على الخط ده على طول وعارف السواق ده كويس، وعارف اسمه كمان، اسمه عبد العليم، وصدقتي يا سيدنا الشيخ لا فيه حاجة خرابانة ولا يحزنون، هو بس اللي عايز يسمعنا أغاني زمان!

يزيح الشيخ العمامة قليلاً إلى الوراء هارثاً مقدمة رأسه، والرجل يضيف:

- ويا سبحان الله عليه! ترباس! وكل مرة يقول هو هو الكلام ويسمعنا هيه هيه الأغاني!

ويُدخل سائقنا عبد العليم أول شريط في المسجل، والرجل يرمقه ويشير لجاره الشيخ بإصبعه:

- واتفضل يا سيدي! أديك هتسمع غنيوة (الغليون)!
فيحبيه الشيخ دَهشاً:

- بتقول إيه يا حضرة! الغليون!!

لا يكذب المسجل الخير، يتهادي منه النغم ومعه شدو الفنان
محمد عبد المطلب:

يا سابق الغليون عدي القنال عدي..

وقبل ما تعدي خد مننا وادى..

دا اللي فحت بحر القنال جدي..

والرجل يفرك من الغيظ، غير أنه كان يعرف قدر نفسه ويتخذ

الاحتياطات كي لا يلحمه السائق من المرأة.

* * *

لم يبدأ الأكل، إلا بعد أن اجتزنا طريق الأوتوستراد..

وأغلبه فول وفلافل، وهناك من افترى ودخل في البصل

الأخضر والبادنجان، أما من فعلها وأكل في البيت أخرج ترمساً

وبدأ في صب الشاي.

يهمس الرجل ثانية في أذن الشيخ: بأننا سنسمع الآن أغنية (يا

حمام البر).

وفعلاً: يا حمام البر سقف..

طير وهفهب..

على كتف الحر وقف..

والقط الغلة..

وعندها ثارت ثلة من الشباب تحتل المقاعد الخلفية، أظنهم من المستخدمين الذين التحقوا بالعمل في البارات والكافيهات وكل ما يرفه عن سيّاح شرم الشيخ. أظهروا ضجرهم مما يسمعون، واقترحوا على السائق عبد العليم أن يقبل منهم شريطاً لمايكل چاكسون أو براين آدمز^(١٤)، أو أي أحد غيرهما ممن يسمعونهم هناك مع الخواجات، غير أنه استخف بهم وأسكتهم بشريط جديد تقول فيه أم كلثوم:

والله زمان يا سلاحي
اشتقت لك في كفاحي
انطق وقول أنا صاحي
يا حرب والله زمان

* * *

كنت مستمتعاً بما يدور، وأردت أن أرى الدنيا وأجعل المتعة متعتين ففتحت ستارة الشباك، ولم أكد أفعل حتى اخترقتنا أشعة الشمس وتمددت فوق بنطالي وبنطال الجار، فتبرم وأفهمني بأن فتح الستارة في السفر الطويل لا يكون هكذا! وإنما بالمعقول.. فقلت له: بالمعقول! حاضر..

وأعدت الستارة إلى سيرتها الأولى إلا همسة قليلة، ورغم ذلك جاءت النتيجة مخيبة وعكس ما يريد الجار!

(١٤) مغنيان من بلد العم سام.

إذ ولا أدري كيف؟! طارت الشمس من فوق بنطالي ووقدت
كلها فوق بنطاله، بل ومنها ما صعد حتى الزرار العلوي للقميص.
فرمقني ورمقته، وراعت ظروفه فعلى ما حسبت كان عاملاً من
عمال اليومية، وعيناه حمران ووجهه كالب من الكدر والفلس.
اضطرت إلى إغلاق الستارة إلى آخرها حتى راحت الشمس
وخفت الضوء، وسرعان ما فتح هو في التثاؤب ودخل في النوم،
وشيناً فشيناً أخذ النوم حقه وبدأ هذا الغلبان في دورات شخير
مؤذية تتخللها همهمات وأحياناً إشارات بأصابعه. أظنه كان
متورطاً في مشكلة مع أحد في الحُلم، أو ربما وصل الأمر بينهما
إلى حد الشجار.

وهلت السويس ثم تدلى بنا الباص في نفق الشهيد أحمد حمدي،
لنخرج منه والركاب قد ضربهم النوم، وجاري الهُمام كان أكثرهم
تركيزاً فيه ويرمي رأسه على كتفي كل دقيقتين، وأنا أذود عن
نفسي وأدفعه بعيداً وكأننا في عراق. ومن شدة حنقي صفعته وهو
نائم، والغريب أنه لم يشعر بالصفعة وعاود الكرة ملقياً برأسه عليّ
من جديد، فكدت أبرك عليه وأخنقه بيدي..

* * *

انتهزت فرصة نومه وأعدت فتح ستارة الشباك، لتبدو لي
سيناء..

كثبان رملية على الجانبين، وطريق يتلوى بنا حتى عيون
موسى ورأس سدر ثم أبو زنيمة حيث تصعب المنعطفات وتلوح

الجبال، وعلى البعد هناك أبو رديس والطور.

الدنيا فراغ في فراغ..

أرض وأفق بعيد وما بينهما وسع وفضاء، وهس هس إلا
صوت ريح أو بوق مركبة تأتي في مواجهتنا كل (حين ومين)..

أرض شحيحة الثمر والماء، اللهم إلا شجرة هنا أو هناك تقف
بلا أنيس أو طير يحط على فرع لها أو ساق. وعوالتك وبقايا
إطارات وعلب صفيح، تتناثر على الطريق. الخفيف منها وأعواد
الحطب ونباتات الشوك بالذات، كانت تهب أحياناً بفعل الريح
وتجري بحذاء الباص، أو تعلق في الهواء وتدور حول نفسها عدة
دورات. وكانت ذرات رمل ناعمة كالطحين تملأ الجو فجأة فتبدو
الدنيا كنيبة ومجال الرؤية بضعة أمتار، فيضطر سائقنا عبد العليم
إلى الإبطاء والدق على البوق تحسباً للمفاجآت.

والبدو سكان الحي معنا، ويرمقون أمثالنا عابري الطريق..

كهل بجلباب وعقال أو ولد يسوق أمامه عدة عنزات، ومن
يمرق منهم إلى جوارنا بمركبته (الجب) تلاحقه زوبعة غبار، أو
من أشعلوا ناراً أسفل شجرة في رابية من الطين ويحتسون القهوة
والشاي.

كانت تتعطل حركتهم، ونحن نمضي أمامهم. يظنون يتأملوننا
حتى يختفي عنهم الباص، ثم يعودون إلى ما كانوا فيه. وصغار
كأنهم ينتظروننا ويشيرون لنا بأذرعهم في الهواء، ومنهم من استعد
لنا بحجر يلقيه مثلما يفعل إخوتهم في طرق وسكك الفلاحين،

والإخوة الكرام رفاق الباص في نومهم يغطون.
سمعت كثيراً عن سيناء ونحن صغار. كانوا يَعِدُوننا في
المدرسة برحلة إليها حيث رفح وغزة والعريش. قالوا: إن تعليمات
وزارة التربية والتعليم في عهد (جمال) تقضي بذلك لتروا أهلكم
هناك، ومن لا يرغب فلينزِل إلى الجنوب فهناك رحلة أخرى
للأقصر وأسوان.

كان لسيناء سحرها وأرذناها هي، لكن تبدد حلمنا عندما نشبت
حرب سبعة وستين. وعندما جاء التحرير كنت قد تجاوزت هذه
المرحلة، وها أنا أدخل سيناء لأول مرة ولكن بين نيام، وليس
لأرى أهلها كما كان يُقال، وإنما لأرى جماعتنا وهي تشيد عليها
داراً للقمار!

* * *

(٤١)

الحمد لله.. وصلنا..

فاتجهت من فوري إلى خليج نعمة، وتحديداً فندق (هلنان)
حيث يقيمون..

الفندق يكتظ بالغرباء، وهم على نوعين. رجال أعمال من
أمثال جماعتنا، والنوع الآخر جاء للشمس والهواء والمنظر
الحسن. ويرتدون صنادل وشورتات، ومن صفف شعره على شكل
ضفيرة أو يضع قرطاً في أذنه ويديه جريدة التايمز أو النيوزويك.
أما الجنس اللطيف فكما عهدتهن من قبل لطيفات جادات، غير أن
مقاييسهن تخالف مقاييسنا في الاحتشام.

سألت عن جماعتنا، فقالوا: إنهم خرجوا من أول النهار،
وبالكاد تحصلت على غرفة لم أر من شرفتها الكثير.

شيء أقرب للكشك أو الصندوق الخشبي، يبيع الشاي والدخان

والمستلزمات التي تخص من يعملون في طائفة المعمار. وعلى مسافة ولكن ببناء حجري وواجهة وديكور، بوتيك يحوي قلادات وبرديات وتمائيل وجعارين وكل ما هو مقلد عن الفراعين، ويجذب هؤلاء الذين دبت أرجلهم في المكان.

وبعد ذلك كانت الدنيا خلاءً في خلاء، مجرد قطع أرض مسورة بالأسلاك عليها يفظ خشبية بأسماء الملاك، أو أساسات إسمنتية تخرج من الأرض لا تعرف إن كانت لفندق أو صالة قمار. وكان العمال بمعاولهم وسراويلهم إما يتسكعون، أو من يشطف وجهه من صنوبر ماء أو تمدد وغلبه النوم، فقد كنا في القيلولة والساعة ساعة راحة ونعاس.

وفي الصباح أخذوني إلى موقع الكازينو، على طريق يسمى طريق السلام لا تزال تجري فيه أعمال الرصف والتشييد. قضينا أغلب النهار تقريباً، نشاهد الخوازيق التي تدق ومركبات نقل ضخمة تلقي بحمولات من الرمل والزلط ومستلزمات البناء، ولفت نظري إيزاك وهارون بالذات. كانا أكثرهم اهتماماً وإبداءً للملاحظات، أما العم يعقوب فلكبر سنه أجلسوه على مقعد وأمي كل برهة تقدم له المرطبات.

ورجعنا..

كنا نستقل مركبة مؤجرة من ذوات الدفع الرباعي، سائقها رجل بدوي ثرثار. العم يعقوب إلى جواره ببذلة سفاري، وأنا وأمي بالمقعد الأوسط والخال إيزاك ومعه هارون في المؤخرة، وكل

دقيقة وشوشة تعقبها ضحكات.

قطع علينا هارون الصمت قائلاً: بأن الوقت لا يزال مبكراً،
والفرصة سانحة اليوم لصعود هضبة أم السيد^(١٥). عرضت عليكم
ذلك بالأمس، فقلتم: مجهدين، وتحججتم أول أمس بأن الليل قد دخل
والأفضل بالنهار، فما رأيكم الآن؟

فوافقوا..

وصعدنا، لألمح إلى اليمين وبجوار مطع الهضبة بنايات من
عدة أدوار، نوافذها صغيرة وليست على الطرز التي نألّفها في
المعمار، تحاذيها مساكن من دور واحد أشبه بالمساكن القديمة
لهيئة قناة السويس، والموجودة إلى الآن بالإسماعيلية وبورسعيد.
مرت عيناى عليها خطفاً وحدثوا هم فيها خاصة هارون،
ويبدو أنه سمع من قبل بوجودها، بل وربما هي سبب إلحاحه على
الصعود.

ولاحظ السائق، فهذاً من سرعة المركبة قائلاً لهم: إنها مساكن
أقربائكم، الأولى كانت للعسكر والثانية للضباط.
فسعلت أمي وتظاهر العم يعقوب بهش شيء حط على جبينه،
وقال للسائق وطرف عينه يبحث عني في الورا: تقصد أنها كانت
مساكن للجنود الإسرائيليين، دعنا منهم ومما فات، وعلى أية حال
هم ليسوا أقرباءنا كما تقول!

(١٥) هضبة كبيرة بكنون مدينة شرم الشيخ، مستوية من أعلى ومقام عليها أبنية

للسكنى كهضبة المقطم بالقاهرة.

فلم يفهم السائق، وقال له: أستم..

لم يدعه يكمل، رد عليه بضجر قائلاً: نعم! لسنا!

ولحظة وقال له: وانظر أمامك لو سمحت، فالطريق صعب
وكله مطبات.

النذل هارون هو الذي استملح الحديث، طفق يسأل وأسئلته
كلها تثير الضيق، والبدوي العبيط وراءه وكلام في كلام إلى أن
قال: وليس هذا فقط يا أستاذ هارون! لا تزال هناك جبانة للعساكر
اليهود في منطقة الميناء، ومعبد كانوا يصلون فيه.

فيرد هارون: جبانة ومعبد!

والبدوي: بل ويوجد أيضاً بين (طابا) و(دهب) نصبٌ تذكاري
للمهندس الإسرائيلي الذي أنشأ هذا الطريق.

وأمي تعاود السعال وتحاول تغيير الموضوع، والعم يعقوب
زاد ضجره وينادي على خالي إيزاك: يا إيزاك! يا إيزاك!
ففهم إيزاك ويبدو أنه زغد هارون زغدة أسكتته، والسائق لم
يفهم إلى الآن ولا يزال مستمراً في الكلام، فنقرت على رأسه من
الوراء راجياً منه إعادة لسانه إلى فمه والسكوت.

* * *

قمنا بجولة فوق الهضبة، نزلنا بعدها من المركبة نتأمل شرم
الشيخ من أعلى..

العم يعقوب يشكو من الصداق فلم يشأ الانضمام إلينا، وهارون
وإيزاك انتحيا جانباً، وأنا أتقدم أكثر نحو الحافة وأمي بفتانها

الليموني ونظارتها الشمسية المرفوعة فوق الرأس، تنادي عليّ
كي أرجع ولا أبتعد هكذا..

المشهد من أعلى يريح النظر..

جبال وهضاب وخلجان، وموج يتكسر على الشاطئ برغوة
تبقى ولا تعود مع الماء المنحسر. وبحر (القلزم) هائل يفظ، وسيناء
كلها بين ذراعيه. وفوقنا فضاء جبار، وسحب البعيد منها في
أطراف السماء بلون رمادي، والقريب من قرص الشمس الأقل أخذ
منه لونه القاني. وجزيرة (تيران) في طرف، وهناك على الطرف
الآخر وإن كنت لا أراها من موضعي جزيرة (شدوان)، التي طالما
نبضت قلوبنا ونحن نسمع بنشرات الأخبار، عما وقع بها في حرب
سبعة وستين.

وبين هذه الطبيعة البكر والحسن والجمال، دنيا أخرى تخرج
من رحم الغيب..

طرق تنشأ وأساسات توضع، لاستراحات ونزل ودور لهو
وقمار. بلدوزرات تمرح، ورمل وإسمنت وأسيخ حديد، وبشر
بثياب العمل يملأون المكان وحتى مسافات، حتى إن منهم من كان
يبدو لي من بعيد وكأنه بحجم حرف الألف على القرطاس.

بدت شرم الشيخ وكأنها صبية بدوية، بحسنها وعلها وخلقتها
التي خلقها عليها الله، ويشرعون الآن في فض بكارتها بما يسمونه
يد العمران.

* * *

ولم يكتف هارون..

أصر على رؤية الجبانة والمعبد، فذهبنا إلى منطقة الميناء..
بالفعل جبانة مصمتة ومغطاة برقائق من المعدن، تطوع أحد
الواقفين بالقرب منها وقال لنا: إنها كانت مخصصة لتجهيز جثث
الجند الغزاة كلما لاحقهم ملك الموت على أرض سيناء. وعلى
مرمى حجر منها معبد للصلاة من دورين، نوافذه مغلقة بقضبان
من حديد، والاثتان - الجبانة والمعبد - مجرد بقايا وأثر لا أكثر من
ذلك ولا أقل..

وأقول لنفسي: أكيد لم نرغب قط في بقاء هذا الأثر، وإنما هي
السياسة وملاحق الاتفاقات!! وشيء يسعد أمثال هارون لو مروا
يوماً من هنا، ويذكر بغفلة كانت وسوء حال..

أتركهم متجهين إلى السوق القديم في معية العم يعقوب،
ليرتبوا الرحلة في الصحراء أو ما يسمونه هنا بسفاري الجمال.
وتعفُ نفسي عن البقاء، فأسوِّي حسابي بالفندق وألحق بباص
المساء.

تمنيت لو أن السائق هو نفسه عبد العليم، بيد أنني وجدت رجلاً
آخر يحتضن طارة الدريكسيون، صوته غليظ ووجهه المستدير
مُخبأ فيه الدهاء وراء أمارات الغباء..

سألته عن عبد العليم، فقال: إنه بعد أن أوصلنا يوم أمس، سقط
مغشياً عليه ونقلوه إلى المستشفى بسيارة إسعاف.

فقلت: لا إله إلا الله..

وصعدت وأنا أتمتم قائلاً: حسبنا الله ونعم الوكيل! فأنت إذاً
الذي سوف تكمل بنا المشوار.

* * *

(٤٢)

هبط علينا ملك الموت، وأبى أن يرحل إلا وفي يده الخال
شمعون..

كنا نتناول العشاء وأردفنا بأقداح الشاي، ثم طفقتنا نشاهد فيلم
(ردّ قلبي). وأم حسن تغفو ثم تنتبه، وتسال عما فعله سمو
(البرنس) في حق (إنجي وعلي)، ولا ندري بأن ضيفاً فتح علينا
الباب، ومكث يرمق خالي من حيث لا نراه.

وعندما فرغ الفيلم، سألني الخال أن أبتاع له نسخة منه هو
وفيلم (بين الأطلال)، ثم تشاءب قائلاً:

- القعدة حلوة، ومعدش عالسفر غير يومين!

فسألته أم حسن، أن يبقى معنا أسبوعاً آخر؟

- ياريت يا حاجة ياريت، الأجازة خلصت خلاص والسنة

الجاية وعليكي خير هعمل حسابي على شهر بحاله.

- تنور وتأنس يا سي شمعون، وإن كان فيه عمر ونصيب
هتلاقيني قاعدة مستنياك.

ودخلت أنا إلى الغرفة لأصلي العشاء، وتركته يعبث في علبه
الثقاب ويتهياً لإشعال لفافة تبغ. لم أكمل الصلاة، خرجت على
صياح أم حسن، لأجد الخال قد مالت عنقه إلى أسفل، ولفافة التبغ
لا تزال مشتعلة وسقطت على صدر الجلباب، فأسرعت إليه وهي
ورائي بكوب ماء، وصعد إلينا أبو السعد أفندي مسرعاً.

لم يُجد صياحنا عليه ولا تقليبنا فيه أو أي شيء نفعله، فلم تكن
مجرد نوبة كما حسبنا، السر الإلهي كان قد خرج ونحن نتخبط ما
بين الجزع والرجاء.

وانتحت أم حسن تبكيه كما لو أنه ولدها، وأنا وأبو السعد أفندي
شلنا الموت ونحرق في بعضنا البعض، ولا حول ولا قوة إلا بالله
فاتنا الخال شمعون ورحل!
وبعد أن أفقنا من بَغْة الحدث، ضغط أبو السعد أفندي على
معصمي قائلاً:

- شد حيلك يا جلال وإكرام الميت دفنه.

فشردت بعيني:

- يعني قصدك!

- أيوه طبعاً! مش عم زكي كان له تربة هنا؟

فتقاطعنا أم حسن:

- أيوه يا خوياء ليهم حوش في البساتين، وكتّ بسمع زمان من

الست إيفون إن الحوش بتاعهم كتف بكتف مع حوش الخواجة
سمعان، انت بس تروح هناك وتزق وتقول فين حوش سماعيل
وهتلاقيه جنبه على طول.

لم يرق لأبي السعد أفندي هذا الوصف غير أنه لم يعلق، قال
لي:

- إبتدي انت بس وخذ رأي الست والدتك، مش بتقول إنها هنا؟
وأنا من الفجرية هطلع التصريح وأجيب لك قرار الحوش.

فتسألني أم حسن بدهشة:

- هي كاميليا هنا! هنا فين!

وتبدأ في التحقيق معي..

ويمضي الأمر بعدها بأيسر مما أتوقع، جاء التصريح واستدل
أبو السعد أفندي على موقع الحوش، ولم تمنع أمي ولا العم يعقوب
أو سارة زوجة خالي من دفنه بمصر، أما هارون وخالي إيزاك فلم
ندخلهما في حساباتنا.

* * *

أقمنا ليلة العزاء بالشقة..

وقد أردت الاكتفاء بشرائط القرآن، غير أن أبا السعد أفندي
اعترض:

- شرايط! شرايط! شرايط! يا رجل يا طيب! انت عايز الليلة تبقى
فطيس، لازم مقرئ.

وأعقبته أم حسن:

- دا غير اللي هيقرا للستات، وإلا هيدور الرغي ويوجعوا
دماغي!

وعلى غير ما توقعت أقبل الناس، وكان أبو السعد أفندي
صاحب الليلة تقريباً.

عيناه على من يدخل ويخرج ومن يقدمون الطلبات، وكلما
هممت بالمشاركة يشير لي بأن أدعه وألزم مكاني، ويدور بعلبة
الدخان على المعزّين وشفته لا تتوقفان عن التمتمة، ومن يجيبه
قائلاً: غفر الله ذنبكم، أو يكتفي بالتربيت على صدره ومعها إيماءة
رأس.

وكالعادة لم يخلُ المكان من الهمس، خاصة من كبار السن
الذين كانوا يعرفون خالي في صباه. كانت تلوح لهم فجأة بعض
ذكرياتهم معه، فيتفلون بها في أذان من يجلسون إلى جوارهم،
وبعضهم كان يخلي بها في صدره لتكون مادة للحديث بعد العزاء.
ومن لا يربطهم بنا رباط وثيق وأتوا من باب المجاملة أو إشباعاً
للفضول، كان الأمر يبدو لهم غريباً، فما هذا الذي يرونه؟! الميت
يهودي والعزاء عزاء مسلمين!

الذي كدر علينا الجلسة ولكن في أولها فقط، الضجيج القادم من
(كافيتريا مرجان)، فهي على مقربة منا وجلبتها كانت تخرم
الأذان. فالليلة ليست كأية ليلة! فقبل قليل كان الإرسال على الهواء
وينصّبون الرئيس لولاية ثانية، وجاء الآن دور الأغاني والأناشيد.
فالمحترم مرجان صاحب الكافيتريا من المتصلين بالحكام، وأبى إلا

أن تشاركه الناس فرحته، غير أن المقرئ بارك الله فيه تسلطن في التلاوة وسحب من تحت قدمه البساط.

كان كفيفاً وصوته مؤثراً ناهيك عن وقفاته المتقنة، العيب الذي فيه أنه كان كثير النححة ويغضب إذا تأخروا عليه بأقذاح الينسون، حتى أن أبا السعد أفندي أو عز لصبي بأن يقف خصيصاً لخدمته، ولم يكف عن الثناء عليه والشيخ يبحث عن مصدر الصوت ويومئ برأسه ممتناً.

العم يعقوب كان يجلس إلى جوارى، ويهم بالوقوف ومد يده بالسلام كلما أقبلت طائفة من المعزين، والردل هارون قبالتنا وبجانبه مجدي ابن المعلم حبيب. ولم يمد أحد يده للقهوة التي تمر فوق الصواني اللهم إلا مرات قليلة، وعندما قدمت لهارون عافتها نفسه وطلب زجاجة (سفن أب)، فتلفت الساقى على أبي السعد أفندي مرتبكاً وأسر له بطلب هارون، فأسرع إليه ومال على أذنه حانقاً:

- سفن إيه وهباب إيه يا جدع انت، مش تختشي!

ورمقني قانلا:

- دا ناقص يطلب مهلبية وللا آيس كريم!

كان العم يعقوب يتابع ما يجري، فزغر بضجر إلى هارون كي يحترم نفسه أو يغادر المكان.

* * *

ولم تقصر النسوة..

أتين إكراماً لأم حسن فاستقبلتهن بشقتها القديمة، ومقرئ آخر بناءً على طلبها يتلو القرآن. والأمور تمضي في سيرها الطبيعي اللهم إلا الصغائر واللمم، همهمة لكنها عالية حبتين، واحدة (تودود) في أذن أختها، أو من تخفي ضحكة بكف يدها أو تذهب (عمّال على بطل) إلى الحمام.

وأم حسن راعية الجلسة لا يزال بيدها زمام السيطرة، وتنبه بأدب أو تشير بإصبعها إلى الشيخ الذي يقرأ، وأن الشرع يأمرنا بالإنصات. والست نظيرة زوجة أبي السعد أفندي تدعمها، تلعب الدور ذاته الذي يلعبه زوجها بشقة الرجال، ورغم الشحم واللحم والدوالي التي تسرح على الساقين، لم تتوقف المسكينة عن خدمة المعزيات، أو مد الشيخ بأقداح الحلبة الحصى. لم يتدهور الموقف إلا عندما طببت أمني..

فوجئت بها أم حسن والجارات اللاتي لا يزلن يذكرنها، فقمنا إليها يتكفأن والدهشة تعلق وجوههن، وبدأت الأحضان والقبلات واختلط الدمع بكلمات الاشتياق، وكل تشدها من يدها مصرة أن تجلسها إلى جوارها، إلا أنها أثرت القعود بجانب أم حسن.

وتوقف المقرئ - طبعاً - عن تلاوة القرآن، حدق فيهن مقلباً كفاً بكف ويتمم بشفتيه: بأنهن فعلاً ناقصات عقل ودين! بل وحتى النسوة اللاتي لم يسمعن بأمني من قبل، هيبن للسلام عليها وليس باليد فقط وإنما بالحضن والقبلات. وعندما رجعن إلى أماكنهن لم يطقن الانتظار. كن مصمات على تقصّي الخبر، ومعرفة حكاية

أمي في التوّ واللحظة ومن الألف للياء.

ساد الهرج ومكثت النسوة زهاء الساعة دون ضابط أو
سيطرة، بعدما تركت أم حسن الدفة وانغمست هي نفسها في
طقوس الترحيب. والمقريء أصابه الإحباط ويرمقهن بضجر، لاعناً
حظه الذي أوقعه بين هؤلاء النسوة الخائبات.

* * *

(٤٣)

لم تمكث أُمي طويلاً..

بعد أن انصرفت النسوة سعدت إلى شقتها القديمة تتحسسها بعينها، حتى حوض المطبخ وقفت تتأمله، وفتحت صنوره ثم أغلقتة. وكان البرواز الذي يحمل صورة جدي زكي يميل قليلاً نحو اليسار، أعادته بلمسة من أناملها إلى وضعه الصحيح، وقبل أن تغادرنا جمعت ما تبقى من أثارها..

أشياء لا تذكر.. مرآة بحجم الكف، مكحلة للعين، ساعة يد لا عقارب فيها وما عادت تصلح، وعندما ضمت إليها جراب نظارة خاوياً يخص جدي، سحبته برفق من يدها ونحيتة جانباً. وكانت لنا صورة معاً بالأبيض والأسود أسفل زجاج التسريحة، هي بثوب بلا أكمام وأنا في حجرها، فعلت المستحيل لتخرجها من موضعها غير أن الصورة أبت، ففعل الزمن أمسكت بالزجاج وصارا كلا واحداً.

كانت تبدو لي في هذه اللحظات الأم التي عرفتها في الصغر،
وليست الأم التي ساقتها الدنيا إلى العم يعقوب وبلد غير البلد،
ويكاد يجمع بي الظن وأسألها البقاء معي لولا ذرة عقل أمسكت
بلساني.

ولم أملك نفسي عندما وقفت تودعني، انفجرت مرة واحدة في
البكاء..

هل الكآبة التي كنا بها إثر وفاة الخال، أم لقاؤنا أنا وهي ثانية
في شقة زمان وأبكي هذا الزمان، أو الأمر أبسط من ذلك، ومجرد
دفقة عاطفة ساعة وداع سرعان ما تزول؟

وإن كان هذا الأخير، فلماذا كل هذه الحرقة في البكاء؟! ومن
أين تأتي سدة النفس هذه، والإحساس بالفقد والإحباط؟!

بل وقلبي نهّاز الفرص الشكاك يكاد يدخل بي من جديد في عالم
السؤال، ولو كان كذا لكان كذا ولو لم يكن هذا الشيء لما وقع ذلك
الشيء، ويلوك في مُسلمات وأسئلة بغير إجابات..

كنت أبكي وألوذ بها ولا أدري أن حالها هي الأخرى ليس
أفضل من حالي، وتبادلني دمعاً بدمع وتقول وصوتها مخنوق
بالبكاء:

- زي ما يكون الزمن دار بيّه، وشايفاك قدامي دلوقتي وانت
بتزحف على إيد ورجل وجاي جري عليه، وللا أول يوم رحنت فيه
المدرسة ماسك في إيد جدك زكي وأنا من البلكونة ببص عليك.

وتتقدم خطوة نحو الباب، وتقول ورعشة تسري بشفتيها:

- يبقى زور خالك شمعون ماتفوتوش لوحده..
وتطيش عيناها وتهم ثانية بالكلام غير أنها لا تبدأ، يغلبها
الدمع فتقترب منها أم حسن مخففة:

- فضونا بقى من الكلام اللي يوجع القلب، ويللا يللا الحقي
جوزك اللي مستني تحت وخوتنا بزمارته، وانت يا حبيبي بتبكي
ليه؟!!

وتربت على كتفي:

- دنيتك حلوة إن شاء الله، الأرض اللي كانت شغلاك أديك
حطيت إيدك عليها خلاص، والعروسة جاهزة بس انت تشاور،
وقول يا رب واتكل عليه.

وتقول أمي: إنها ستسافر في طائرة الفجر إلى باريس، فهل
سوف ألحق بها؟

أجيبها بصوت خافت: إن شاء الله..

فتحتج أم حسن:

- سفر إيه تاني! ومصالحك اللي هنا؟!!

فأقول لها هي الأخرى: إن شاء الله..

وأحاول اصطحاب أمي حتى باب السيارة، غير أنها تثنييني
كي لا يراني زوجها يعقوب دامعاً وعلى هذه الهيئة. وبعد أن
هبطت أول سلمة على الدَّرَج، استدارت إلينا قائلة:
- فتكم بعافية..

* * *

ومن الشرفه تابعتها..

الليل يومها كان قد أوغل وخفت الحركة، بالكاد يمضي أمامنا رجل وطيف بعيد ينسلُّ خارجاً من أحد الأبواب، ومركبة فالثانية وأمي وراءهما تشير لنا من نافذة السيارة حتى واراها الشارع.

الدكاكين موصدة، وهلال صبي محل العطارة يدفع ببطن حدائه قفل الباب الخارجي حتى أغلقه، وحسن إلى جواره يتمطي متثائباً ويده تتلقى سلسلة المفاتيح. كافتيريا مرجان هي وحدها التي لم تنم، حفنة رجال على مقاعد متناثرة فوق الطوار وأم كلثوم تصدح لهم ولنا بالأطلال. يخاليني الشدو كأنه حقيقة، وأم حسن بجانبني محنية على الدرايزين وتشغلني بحديثها:

- اسم الله عليها هديل حلوة ومدورة وصلاة النبي معاها شهادة، انت كسلان كده ليه؟!!

أرمقها صامتاً فلا يروق لها ذلك، وتتغير نبرتها:

- بصراحة بقي أمها لمحت لي وأنا محروجة، ملكش غرض

رسيني من دلوقتي.

أرنو بعيني نحو الأفق..

أخال نادية..

ولحظات زمن عشناها من قبل، أعيشها مرة ثانية..

ويصل حسن إلى باب العمارة، وأمه من أعلى تدقق فيه

وتسألني:

- مش برضه الواد حسن ده اللي داخل من الباب؟

لا أنتبه لها..

- مالك! سرحان في إيه! في الست والدتك؟ مسيرك تشوفها
وتشوفك..

ويشغلنا أبو السعد أفندي، يطل بمنامته من النافذة راجياً صبيبة
مرجان أن يرحموه ويخفضوا صوت المذياع، فتقول أم حسن:

- معذور! بنته هديل تعبانة وعايضة ترتاح!

وكان لأبي السعد أفندي ما أراد، وارتاحت هديل..

فلم يخفض الصبيبة صوت المذياع فقط، بل أغلقوه كلية على

أنين (الست) وهي تقول:

كيف ذاك الحب أمسى خيراً..

وحديثاً من أحاديث الجوى..

* * *